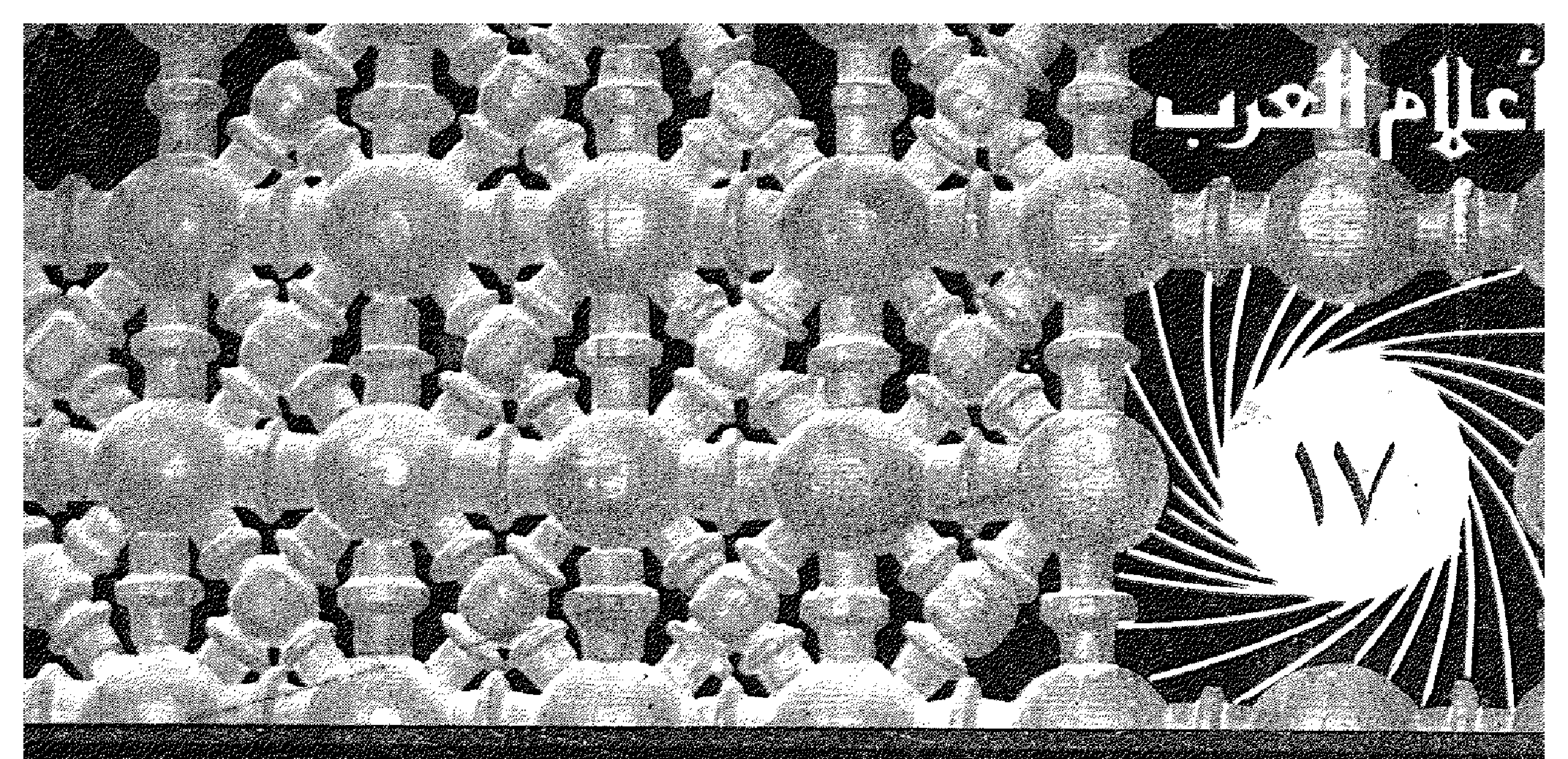


الوليد بن عبد الملك

٨٦ - ٩٦ هـ (٧٠٥ - ٧١٥ م)

بقلم
الدكتورة سيّدة إسماعيل كاشف

الثقافة والإرشاد القومى
...سة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

أعلام العرب

١٧

الوليد بن عبد الملك

٨٦ - ٩٦ هـ (٧٠٥ - ٧١٥م)

بقلم

الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف

وزارة الثقافة والإرشاد القومي

المؤسسة المصرية العامة

للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

مقدمة

يعتبر عهد الوليد بن عبد الملك من نواح كثيرة الأوج الذى بلغه سلطان العرب فى زمن الخلافة الأموية . ومع ذلك فانه لم يكتب عن الوليد وعصره فى الكتب التاريخية القديمة سوى صفحات قليلة . والمعروف أن عصر الدولة الأموية لم يلق ما يستحق من الانصاف عند المؤرخين المسلمين ؛ فالكتب القديمة التى لدينا دونت وكتبت فى العصر العباسى ، أو فى ظل الدول والدويلات التى تفرعت عن الخلافة العباسية . أى أن التاريخ الأموى كتب بوجه عام فى ظل أسرات معادية لبنى أمية . والملحوظ أن أهم الكتب التاريخية الاسـلامية فى تاريخ بنى أمية اثنان : تاريخ اليعقوبى المتوفى سـنة ٢٨٤ هـ (٨٩٧ م) ، وهو علوى يكاد لا يستطيع اخفاء عدائه لبنى أمية . أما المصدر الرئيسى الثانى فهو كتاب تاريخ الأمم والملوك للطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ (٩٢٢ م) ، ويؤخذ عليه أن عنايته تتجه الى العراق وايران أكثر من الشام ومصر . وقد كان الاقليمان الآخران خصوصا الشام مركز النشاط الأموى ، فلا غرابة اذ قلّت بسبب ذلك أهمية الطبرى بالنسبة لتاريخ بنى أمية . والملاحظ أن المصادر القديمة التى كتبت بعد هذين المؤلفين تعتمد عليهما الى حد كبير مثل كتاب « الكامل

فى التاريخ » لابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ هـ (١٢٣٢ م) ، وكتاب « العبر وديوان المبتدأ والخبر » لابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ (١٤٠٥—١٤٠٦م) . على أننا نفيد من المصادر المادية المعاصرة للدولة الأموية مثل الآثار والفنون ، والكتابات التاريخية الأثرية فهى كتابات محايدة ومعاصرة للأحداث التى تسجلها ولم تتغير من ناقل الى ناقل ، أو من راو الى راو ، وهذه الكتابات كتبت على جدران المساجد ، وفى التحف الأثرية ، وعلى شواهد القبور ، وفى الأضرحة والمنازل وسائر العمائر ، وعلى المنسوجات . ولا شك أن المسلمين أقبلوا على الكتابة الى حد كبير كالفراعنة القدماء وذلك لأنهم اتخذوا الكتابة عنصرا من العناصر الزخرفية .

كذلك تفيدنا النقود الاسلامية فى دراسة تاريخ الدولة الأموية . فهى تبين صلة الدولة بغيرها من الدول فى ذلك الحين ، أو بغيرها من البلاد المفتوحة . فضلا عن أنها كانت تتأثر فى أوزانها بالحالة الاقتصادية فى البلاد . ونلاحظ أن النقود ليست وثائق صحيحة وقديمة فحسب ولكنها فوق ذلك وثائق رسمية لا يسهل الطعن فى قيمتها .

والحق انى أفدت افادة كبيرة من دراسة الأوراق البردية لاجلاء نواح هامة فى حكم الوليد بن عبد الملك . والمعروف أنه قبل استعمال الورق الحالى صنع المصريون القدماء ، الورق من نبات البردى الذى ظل يستعمل للكتابة لا فى مصر وحدها بل فى العالم المتمدن حتى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) وقد عثر فى مصر منذ القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، على

مجموعة كبيرة من الأوراق البردية الاسلامية . وترجع معظم هذه الوثائق الى مصر فى فجر الاسلام . ولهذه الوثائق شأن كبير فى دراسة الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والمالية ، اذ أن من بينها نصوصا تتعلق بالجزية والخراج واسناد المناصب وأنظمة الادارة وطرق التجارة وبناء العمائر والمساجد وانشاء الأساطيل وأثمان البضائع والبيوت والأرض فضلا عن عقود الزواج والبيع والشراء وما الى ذلك من المكاتبات .

وقد بيع معظم هذه الأوراق الى الأوربيين فتفرقت فى المكتبات والمتاحف والمجموعات الأثرية ولا سيما فى ڤينا وبرلين ولندن وباريس ، ولكن دار الكتب المصرية لا تزال تحتفظ بمجموعة ثمينة من أوراق البردى العربية التى كشفت فى الفيوم أو فى غيرها من البلاد المصرية مثل أخميم وسقارة والأشمونين وميت رهينة واهناسيا وادفو .

ومن الوثائق البردية النفيسة ما عثر عليه فى قرية كوم اشقاو[1] التى كانت تعرف باليونانية باسم أفروديتو Aphrodito ومعظمها محفوظ الآن فى المتحف البريطانى وفى متحف المعهد الشرقى بجامعة شيكاغو كما تحتفظ دار الكتب المصرية بمجموعة منها . وتكشف هذه الوثائق عن بيانات طيبة عن المجتمع المصرى والادارة فى عهد قرة بن شريك الذى كان واليا على مصر من قبل الخليفة

---

(١) تقع كوم اشقاو بين ابو تيج وطهطا فى محافظة أسيوط . وكانت فى العصر الاسلامي « كورة » أو قسم من أقسام الصعيد تسمى أشقوه .

الوليد بن عبد الملك بين سنتى ٩٠ و ٩٦ هـ (٧٠٩ — ٧١٥ م) .

والواقع أن هذه الأوراق فضلا عن قيمتها التاريخية بوصفها من المراجع الأصيلة فهى تمتاز بأنها معاصرة للحوادث التى تسجلها ومحايدة كما أنها تصلح بعض النقص الذى يسببه تحيّز بعض المؤرخين المسلمين لتاريخ الأسرة التى يكتبون فى ظلها ، أو تعصبهم لمذهبها ، كما أنها تسد فراغا كبيرا فى بيان النظم الادارية والمالية وأحوال المجتمع .

والمعروف أن الدولة العربية كانت تكاد تكون فى حالة حرب دائمة مع الدولة البيزنطية التى سماها العرب دولة الروم ولذا لم يفتنى الرجوع الى المراجع البيزنطية فضلا عن المراجع الاسلامية لأتبيّن مدى علاقة الدولة العربية فى عهد الوليد بدولة الروم .

دكتورة
سيدة اسماعيل كاشف

القاهرة فى { ٢ شعبان ١٣٨٢ هـ
٢٩ ديسمبر ١٩٦٢ م

الفصل الأول

نشأة الوليد وسيرته

يفيض تاريخ الأمم المختلفة منذ القدم بذكر تاريخ وسير الملوك والخلفاء والسلاطين والعظماء ، أما تاريخ الشعوب نفسها فلم يظفر بالعناية الواجبة اللهم الا منذ مطلع القرن الحالى حين اتجهت الدراسات التاريخية الى دراسة الطبقات المختلفة فى الشعب وطرق معيشتها ونظمها وأحوالها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . بل اننا نلاحظ أن التاريخ لم يغفل سير العظماء والحكام والقادة الذين نشأوا نشأة مغمورة ثم دخلوا من أبواب التاريخ وتولوا المهام الجسيمة والقيادات العامة ، اذ نرى الرواة والمؤرخين ينسجون القصص والأساطير الكثيرة حول نشأتهم الأولى .

ونحن هنا بصدد خليفة من أعرق بيوتات قريش ، يتصل نسبه بنسب الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهو ابن خليفة وحفيد خليفة وهو قريب عثمان بن عفان ثالث الخلفاء الراشدين كما أنه من أبناء عمومة معاوية بن أبى سفيان مؤسس الدولة الأموية . لكن نشأة الوليد بن عبد الملك فى هذا البيت العريق ونسبه وحسبه لم يشفع له عند المؤرخين المسلمين فنحن نكاد لا نجد ما يشفى

غليلنا عن ولادته ونشأته الأولى وتربيته الى أن ولى خلافة المسلمين والعرب . وربما يرجع ذلك الى أن الكتب التى وصلت الينا دونت فى العصر العباسى ، وكما نال التقصير تاريخ العصر الأموى ، أدرك هذا التقصير سير خلفائهم .

ولعل السبب فى ذلك أيضا أن بداية التأليف العلمى فى التاريخ عند المسلمين كانت وثيقة الصلة بالحديث والسنة فركز المؤرخون المسلمون الأول اهتمامهم فى سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وفى أفعاله وغزواته وحياته الخاصة ، ونحن نعرف أن أقدم الكتب التاريخية التى تجمع بين الحديث والتاريخ هى كتب المغازى والسير .

ولعل ما انتاب المسلمين من تفرق ونزاع عقب وفاة معاوية ابن أبى سفيان وابنه يزيد ، وما حققته خلافة عبد الملك بن مروان القوية من تخليص الدولة الاسلامية من الفتن والشقاق الداخلى فضلا عن الأخطار الخارجية ، لعل تلك الفترة العصيبة وما وقع فيها من أحداث جسيمة لم يترك مجالا للرواة والمؤرخين كى يتحدثوا عن الوليد بن عبد الملك قبل توليه الخلافة .

ولعل ما حققته خلافة الوليد بن عبد الملك بعد ذلك من فتوحات عظيمة واصلاحات وتعمير ، جعل المؤرخين يصبون اهتمامهم كله فى خلافته وليس قبلها .

وينتسب الوليد بن عبد الملك الى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وفى عبد مناف يجتمع خليفتنا ، مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النسب ، فالرسول الكريم يتصل نسبه

بهاشم بن عبد مناف أما أمية فهو ابن عبد شمس بن عبد مناف . أي ان عبد مناف أبو الهاشميين والأمويين . وكان لأمية جد الأمويين ولدان هما حرب وأبو العاص ، وينتسب معاوية بن أبي سفيان مؤسس الخلافة الأموية الى حرب ، فان أبا سفيان هو ابن حرب بن أمية . أما الوليد فينتسب الى أبي العاص ، فالوليد هو ابن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص ابن أمية . ويلتقي الخليفة الوليد بثالث الخلفاء الراشدين عثمان ابن عفان في أبي العاص ، فالخليفة عثمان هو ابن عفان ، ابن أبي العاص ، ابن أمية ؛ وكان الحكم أخا لعفان وعما لعثمان . أي ان الخليفة مروان بن الحكم جد الوليد بن عبد الملك أقرب الى الخليفة عثمان بن عفان من معاوية بن أبي سفيان .

وكان حرب أكبر من أخيه أبي العاص ، وكانت له السيادة والرئاسة في العصر الجاهلي ثم انتقلت من بعده الى ابنه أبي سفيان . وحين جاء الاسلام ارتفع ذكر بني أبي العاص وذلك لأن عثمان بن عفان كان من السابقين الى الاسلام فصحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وآمن بدعوته وجاهد معه ، وهاجر الى الحبشة ثم الى المدينة ، وتزوج رقية بنت الرسول فلما توفيت تزوج أختها أم كلثوم ولهذا كان يلقب بذي النورين . ولكن بعد أن ظهر معاوية وأسس الخلافة الأموية عادت السيادة لبني حرب ابن أمية . وما لبث فرع أبي العاص أن علا ذكره بتولي مروان ابن الحكم خلافة العرب اذ ظلت الخلافة الأموية في بني مروان . وحين انتهت خلافة الأمويين في المشرق على يد بني العباس ، نراها

بعثت من جديد فى الأندلس على يد أحفاد مروان بن الحكم ابن أبى العاص بن أمية . واشتهر أبو العاص فى الجاهلية ببسالته وشجاعته فى حرب الفجار التى وقعت فى الأشهر الحرم بين قبائل من عرب الحجاز ، وقد شهدها النبى صلى الله عليه وسلم قبل بعثته بنحو ستة وعشرين عاما .

أما الحكم بن أبى العاص فهو من القرشيين الذين أسلموا يوم فتح مكة ، ولسبب لا نعرفه على وجه التحديد أمر الرسول الكريم بابعاده الى الطائف ، ثم رده بعد قليل الى مكة . وبقى الحكم مع أسرته فى مكة حتى ولى عثمان بن عفان الخلافة فاستدعاه وأسرته الى المدينة مقر الخلافة حينئذ . وقضى منذ اسلامه بقية حياته فى هدوء ودعة الى أن توفى زمن خلافة عثمان . أما ابنه مروان فقد ولد فى مكة بعد بعثة الرسول ، وحين أسلم أبوه فى عام الفتح كان فى نحو الثامنة من عمره وقضى مع أبيه فترة فى الطائف ثم عاد معه الى مكة . وشهد فى صباه عظمة الاسلام وعزة العرب وتفوقهم على جيوش كسرى وقيصر وان كان صغيرا لم يشترك فى هذه الحروب ، لكنه حين أصبح شابا اشترك فى بعض الفتوح فى صدر خلافة عثمان . وكان فى نحو الخامسة والعشرين من عمره حين ذهب الى المدينة مع أبيه وأسرته فى خلافة عثمان . وفى المدينة تلقى علومه الدينية والفقهية فكان يتصل بالصحابة والتابعين ، وعد مروان فى الطبقة الأولى من التابعين . وفى المدينة تعلم الدرس الأول فى السياسة والادارة اذ عيّنه عثمان أحد كتابه وما لبث أن أصبح رئيسا لديوان رسائل

الخليفة وصار بمثابة كاتم سر دولته . ولعل أهم حادث شهده مروان فى شبابه هو الثورة ضد عثمان بن عفان وتصدع وحدة المسلمين والعرب ، والدولة لا تزال فى عنفوانها ، ثم ما كان من مقتل عثمان نفسه ؛ بل ان اسم مروان زج فى تلك الثـورة بصفته كاتبا للخليفة ، اذ زعم الثوار الذين خرجوا من مصر انهم ضبطوا كتابا بتوقيع الخليفة الى عامله على مصر يأمره فيه بقتل الثوار ، وذلك حين كانوا فى طريق عودتهم الى مصر بعد أن اتفقوا مع الخليفة على عزل واليه عليها . ولما عاد هؤلاء الثوار الى المدينة ومعهم الكتاب حلف لهم الخليفة بأنه لم يبعث به ، فطلب اليه الثوار بأن يسلم اليهم كاتبه مروان فأبى الخليفة وحلف مروان هو الآخر أنه لم يكتبه ودافع مروان دفاعا مجيدا عن عثمان . ولكن انتهت الثورة بمقتل الخليفة عثمان بن عفان فى سنة ٣٥ هـ .

وخرج مروان بعد مقتل عثمان مع السيدة عائشة زوج الرسول صلى الله عليه وسلم ومع من خرج معها الى العراق ليطالب بدم عثمان ، ابن عمه وعميد أسرته ، وقاتل فى الموقعة التى عرفت باسم موقعة الجمل فى ظاهر البصرة . وظهرت شجاعة وفروسية مروان فى تلك الموقعة ، وأخذ يدافع عن السيدة عائشة وكان كلما وثب رجل الى الجمل الذى تركبه السيدة عائشة ضربه بالسيف وقطع يده حتى قطع نحو عشرين يدا . ولكن الهزيمة لحقت بأصحاب السيدة عائشة على يد علىّ بن أبى طالب ، خليفة المسلمين حينئذ ، الذى عزّ عليه أن تتمزق وحدة العرب والمسلمين ، والذى نصح المطالبين بدم عثمان قبل موقعة الجمل بالتريث حتى اذا هدأت

النفوس وعاد الأمن الى نصابه ، أجرى الحق مجراه وتمكن من انزال الجزاء بقتلة عثمان .

وبعد أن انتهت موقعة الجمل فى سنة ٣٦ هـ طلب مروان ابن الحكم الأمان من علىّ فأعطاه له ، وبعدما بايع مروان عليا بالخلافة وعاد الى المدينة ليعيش فيها بعيدا عن الأحداث السياسية حينئذ لم يشترك مروان فى الحرب والنزاع بين علىّ ومعاوية ، ولم يخرج مروان لمبايعة معاوية بالخلافة ، وظل مروان محتفظا بالعلاقة الطيبة مع آل علىّ ومع آل سفيان ، بل مع بنى هاشم وبنى أمية جميعا . ولعل معاوية بن أبى سفيان أراد أن يفيد من علاقة مروان الطيبة بالجميع ، ومن سياسته وحنكته فعيّنه واليا على المدينة فى سنة ٤٢ هـ ، ولبث واليا عليها حتى عزل فى آخر عهد معاوية . وحين ولى يزيد الخلافة ظل مروان بعيدا عن معترك السياسة ، ولما استشهد الحسين بن على فى كربلاء فى العاشر من المحرم سنة ٦١ هـ (١٠ أكتوبر — تشرين الأول — ٦٨٠ م) استنكر مروان قتل الحسين . ولكننا سنرى أن مروان وبنيه حين يتولون خلافة العرب والمسلمين سيرثون العداء الذى نشأ بين آل على وشيعتهم ، وبين آل أبى سفيان ، فدولة بنى مروان ما هى الا استمرار للدولة الأموية التى أنشأها معاوية بن أبى سفيان ، كما أن الشام هى نفس مقرهم وهى التى ناصبت اقليم العراق العداوة منذ أن بدأ النزاع بين معاوية وعلىّ .

ولم يكن استشهاد الحسين هو خاتمة الثورات ضد حكم يزيد بن معاوية وانما قامت ثورة فى المدينة على حكم يزيد ، وولى

أبناؤها على أنفسهم رجالا منهم وبويع أحدهم بالخلافة ، كما ثار عبد الله بن الزبير فى مكة . ولما ثار أهل المدينة ثورتهم هـذه حاصروا بنى أمية جميعا فى دار مروان ثم رأوا أن يخرجوهم فأخرجوهم على أن يتوجهوا الى الشام .

وهنا نرى أن مسألة الحكم والخلافة أصبحت مثار الخلاف بين الحجاز والشام ، فأهل الحجاز يرون أن الحكم يجب أن يكون فيهم ، والأمويون يدافعون عن حق صار لهم . ولم ير يزيد بن معاوية بدا من أن يلجأ الى العنف والشدة بعد أن أخفق فى حل هذه الثورات بطريق المسالمة . وأرسل يزيد جيشا من الشآميين بقيادة مسلم بن عقبة المرى للقضاء على ثورات الحجاز . وقابل مروان ومن معه من الأمويين مسلم بن عقبة فى الطريق فعادوا معه . وعسكر مسلم فى الحَرّة ، وهى الأرض الصخرية البركانية الواقعة شمالى المدينة ، وحدثت موقعة الحرة وانتصر مسلم قائد الخليفة ، ونكبت المدينة فى أواخر سنة ٦٣ هـ (٦٨٢ م) . واستأنف مروان وأسرته حياته بالمدينة ، ولكن لم تطل اقامتهم هذه المرة . اذ حدث أن مسلم بن عقبة حين فرغ من أمر المدينة وبعدما أخذ البيعة من أهلها ليزيد ، أراد أن يقضى على فتنة ابن الزبير فى مكة ، وفى الطريق توفى مسلم وتولى القيادة بعده الحُصين بن نمير السكونى ، فسار الحصين الى مكة وحاصرها . وبينما الحرب قائمة بينه وبين عبد الله بن الزبير وصل نبأ وفاة يزيد فى أوائل سنة ٦٤ هـ (٦٨٣ م) ، كما وصل نبأ اضطراب الأمر فى الشام ، فأوقف القائد الشامى الحرب لأنه لم يعرف باسم مَن يقاتل ؟

بل ان القائد الشامى أراد أن يبايع ابن الزبير ، لكنه اشـــترط شروطا منها أن يتجاوز ابن الزبير عن كل الدماء التى سفكت ، وأن يسير معه الى الشام . ورضى ابن الزبير بالشرط الأول ولكنه أبى أن يخرج من الحجاز الى الشام ، وأغلب الظن أن ذلك لم يكن لكرهه للشام وانما لخوفه من أهل الحجاز . وعندئذ اتخذ القائد الشامى أهبته للعودة الى الشام . وفى تلك الأثناء أيضا أعلن ابن الزبير الدعوة الى نفسه بالخلافة جهرة بعد أن كان يدعو سرا ، ثم عيّن ابن الزبير أخاه عبيدة بن الزبير واليا على المدينة وأمره أن يخرج من بقى منها من بنى أمية . وهنا تحرج مركز مروان ومن معه من بنى أمية ، فاتخذ مروان قرارا بالهجرة من المدينة وأسرته الى الشام وكان ذلك فى ربيع الثانى من عام ٦٤ هـ .
وحين وصل مروان وبنوه الى الشام كان غريبا عن أهل البلاد اذ كانت هذه أول مرة يأتى فيها مروان الى الشام للاقامة . ولم يكن قدوم مروان الى الشام فى ظروف حسنة بل كانت الأمور تتطور تطورا سيئا ، وبدت وحدة العرب تتمزق ، وبدا الصرح الذى أقامه معاوية ينهار ويتفكك . وفى تلك الظروف الحالكة للدولة العربية ، وللأسرة الأموية ، أخـــذ مروان بن الحكم وأسرته يشتركون فى المداولات وسرعان ما تطورت الأمور تطورا لم يكن فى الحسبان . اذ انتهى الأمر بتولى مروان بن الحكم مقاليد الخلافة فى ذى القعدة فى سنة ٦٤ هـ (٦٨٤ م) واضطر مروان كى يثبت خلافته فى الشام أن يحارب الخارجين عليه والناقمين على خلافته والداعين لابن الزبير فى مرج راهط بالقرب من دمشق فى

المحرم عام ٦٥ هـ . وأظهر مروان وقد جاوز عامه الرابع والستين بسالة فائقة فى هذه الموقعة التى دامت نحو عشرين يوما وأسفرت عن ثبوت الخلافة لبنى أمية عامة وللفرع المروانى خاصة . ولم يعش مروان بعد هذه الموقعة أكثر من ثمانية أشهر ، الا أنه يمكننا أن نقرر أن هذه الأشهر القليلة ، وان هذا العام الأخير من حياة مروان كان أهم عام فى حياته اذ ثبت مروان خلافة الأمويين فى الشام كما أرسل جيشا بقيادة ابنه عبد العزيز لاستخلاص مصر من عامل ابن الزبير عليها ، ولم ينس أن مصر والشام لا يمكن أن تنفصلا فضلا عن أن مصر مورد غنى بالمال والامدادات ولم يعتمد مروان على ابنه فقط بل سار بنفسه الى مصر واستطاع أن ينتصر على عامل ابن الزبير برغم استماتته فى الدفاع عن العاصمة ثم دخل مروان الفسطاط فى غرة جمادى الأولى سنة ٦٥ هـ . وأقام مروان بن الحكم بمصر شهرين ثم غادرها فى أول رجب سنة ٦٥ هـ بعد أن وطد أمورها وأعادها ثانية الى الحكم الأموى ، كما ولى عليها ابنه عبد العزيز بعد أن زوده بالنصائح الهامة التى تجعل منه حاكما قديرا وتساعده على حكم مصر (١) .

وبعد أن عاد مروان الى الشام أعد حملتين للقضاء على نفوذ ابن الزبير احداهما للحجاز والأخرى للعراق ولكن المنية عاجلته فى غرة رمضان سنة ٦٥ هـ قبل أن يحقق ما تبقى له من اقرار

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٤٧ ـ ٤٨ (بيروت ١٩٠٨ م)

خلافته فى سائر الدولة الاسلامية واعادة وحدة صفوف العرب فترك ذلك لابنه عبد الملك . كذلك لم يفت مروان أن يعقد البيعة قبل وفاته لبنيه من بعده .

والحق ان دراستنا لشخصية عبد الملك بن مروان ، وتأدبه ، وثقافته ، وشجاعته ، وحزمه وسياسته ، ورباطة جأشه وجلده وصبره ، وما تم فى عهده من اعادة توحيد صفوف الأمة العربية ، واستئناف الجهاد والفتوحات ، والعناية بتنظيم الدولة ، ونهضتها العلمية والأدبية ، والاهتمام بالعمارة والفنون ، تجعلنا ندرك أن عبد الملك تلقن الدرس الأول فى التأدب بآداب الدين وبعلوم العرب وفى ممارسته فنون الادارة والسياسة والحرب على يد أبيه مروان ، وفى مدرسة المدينة التى نشأ فيها ، فضلا عن أنه ورث عن أبيه كثيرا من الصفات المميزة له . فكان عبد الملك مثل أبيه يمتاز بحسن الرأى والبصيرة الى جانب شجاعته ، وكان يقوم بنفسه بانجاز المواقع الهامة والأمور الحاسمة ، كذلك لم يكن الغدر من شيمة هذا البيت فى الحرب أو السلم ، وفضلا عن ذلك فان البيت الأموى تميز بالوصول الى الغايات والأهداف بالسياسة قبل السيف . والحق ان عبد الملك نشأ فى المدينة نشأة اسلامية واشتهر كأبيه بالفصاحة والتأدب بالثقافة العربية وسمع عبد الملك منذ طفولته بانتصارات العرب فى كل مكان وتفوق الدولة العربية على غيرها من الأمم وهى بعد وليدة ، ورأى بعينه كيف كان الاسلام سببا فى اقامة النظام فى تلك الدولة العربية الناشئة ، وكيف كان الاسلام باعثا على قوتها وعزها ، ولذلك نرى عبد الملك

يتمسك بأصول الاسلام ويتأدب بآدابه حتى قيل : « فقهاء المدينة : سعيد بن المسيب ، وعبد الملك بن مروان ، وعروة بن الزبير ، وقبيصة بن ذؤيب » [1] . وآمن عبد الملك ايمانا عميقا بالعروبة ، فنراه فى خلافته يبدأ عملية تعريب الدواوين الجبارة ، كما كان له الفضل الأول فى اصلاح السكة وتوحيدها فى أنحاء الدولة الاسلامية ، والاستغناء عن النقود الأجنبية .

ولا شك أن حادث مقتل عثمان فى سنة ٣٥ هـ قد أثر فى عبد الملك الفتى الذى كان قد جاوز العاشرة من عمره ، وأصبح عبد الملك الرجل يؤمن بأن الخليفة لا يجب أن يتبع سياسة اللين ، وانما الشدة والحزم هما عماد السياسة .

وسنرى صفات وميزات عبد الملك بن مروان تنتقل الى ابنه الوليد بن عبد الملك الى حد كبير ، متطورة مع تطور الزمن .

* * *

لا تذكر المراجع والمصادر القديمة أين ولد الوليد بن عبد الملك . بل ان تلك المراجع لا تتفق على سن الوليد حين ولى الخلافة بعد وفاة أبيه فى سنة ٨٦ هـ ، وحين توفى سنة ٩٦ هـ . فيذكر البعض انه كان يبلغ اثنتين وأربعين سنة حين توفى ويذكر البعض انه توفى وله من العمر خمس وأربعون سنة ، كما ذكر البعض انه كان ابن ست وأربعين سنة أو ابن تسع وأربعين سنة عند وفاته . ونفهم من ذلك ان المؤرخين والرواة يختلفون فى سنة ولادة الوليد فيجعلونها بين سنة سبع وأربعين للهجرة وسنة أربع

---

(١) الذهبى : تاريخ الاسلام ج ٣ ص ٢٧٧ (القاهرة ١٣٦٨) .

وخمسين . أى ان الوليد ولد فى خلافة معاوية بن أبى سفيان وحين كان يقيم أبوه مع أسرته فى المدينة . ونفهم من كنية عبد الملك ابن مروان أن الوليد كان أكبر أولاده اذ عرف عبد الملك بن مروان باسم أبى الوليد القرشى الأموى . وكان للوليد أخوة كثيرون ، اذ يذكر الرواة أنه كان لعبد الملك بن مروان نحو سبعة عشر ولدا من عدة زوجات عربيات ومن أمهات أولاد . وأم الوليد هى ولادة بنت العباس بن ربيعة بن مازن من عبس . أما الوليد نفسه فيقال انه أنجب نحو تسعة عشر ابنا واشتهر من زوجاته أم عبد العزيز ، وأم البنين بنت عبد العزيز بن مروان ، وأم أبى عبيدة الفزارية .

وحين هاجر مروان مع أسرته الى الشام كان الوليد بن عبد الملك بين العاشرة والسابعة عشرة من عمره . ويذكر المؤرخون ان عبد الملك كان يعنى عناية كبيرة بتأديب الوليد واخوته . وحثهم على اصطناع المعروف وحملهم على مكارم الأخلاق . وكان عبد الملك يوصى بنيه بأن يحفظوا لغة العرب وكان يقول : انه لا يلى العرب الا من يحسن كلامهم .

كذلك عنى عبد الملك عناية كبيرة بتربية أولاده تربية دينية . وتأثر الوليد بتلك التربية فنراه يهتم بالدين اهتماما كبيرا ، ويحرص فى خلافته على ألا يهمل المسلمون قراءة القرآن [1] ولم يترك عبد الملك بن مروان فرصة لاسداء النصح لبنيه أو لمعلمى

---

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ٨ ص ٩٧ ـ ٩٨ (طبعة المطبعة الحسينية) .

أولاده الا وانتهزها . وأثر عن عبد الملك النصائح الغالية التى تبين اهتمامه بخلق وتربية أولاده ، والتى تبين رجاجة عقله وسعة أفقه وايمانه الشديد بالعروبة والخلق القويم .

وليس من شك فى أن عبد الملك بن مروان عنى بتدريب الوليد على الادارة والسياسة وفنون القتال وان كانت المصادر لا تشفى غليلنا فى هذا الميدان . ولكن الوليد الخليفة سيثبت لنا ذلك وسيكون الوليد الخليفة شديد الاعجاب بسياسة أبيه ، كما أنه سيترسم خطوات والده فى كافة الأمور السلمية والحربية بحيث يكون حكم الوليد متمما لحكم أبيه .

ولدينا نص يبين أن الوليد بن عبد الملك كان يلى دمشق نيابة عن أبيه أحيانا [1] . وهو فى ذلك مثل أبيه عبد الملك بن مروان الذى كان الساعد الأيمن لأبيه مروان فى خلافته . ولم ينس الوليد ابن عبد الملك ، ولا عبد الملك بن مروان ، ولا مروان بن الحكم ، ولا البيت المروانى الأموى أنهم حين توجهوا غرباء الى الشام ، أعطاهم أهل الشام الدولة والخلافة والسلطان ؛ وأن أهل الشام ساعدوهم علـى تسجيل صفحات مجيـدة فى تاريخ العـروبة والاسلام . لذلك اعتبروا أهل الشام عصبهم وعصبتهم وسرعان ما أصبح الفرع المروانى فى بيت بنى أمية مثل الفرع السفيانى من قبل ، يعتز بأهل الشام ويثق فيهم ويعتمد عليهم فى ادارة الدولة الاسلامية . ويظهر من النصوص المختلفة ان الوليد كان يسهر

---

(١) ابن قتيبة الدينورى : عيون الاخبار : ج ٢ ص ٢١ (طبعـة دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٣٤٦ هـ) .

على رعيته جميعا حتى انه لم يغفل أهل العراق الذين كانوا يبغضون حكم الشام وحكم الأمويين ، فيذكر المؤرخون أن الوليد كتب الى الحجاج يأمره بأن يكتب اليه بسيرته فكتب اليه « انى أيقظت رأيى ، وأنمت هواى ، فأدنيت السيد المطاع فى قومه ، ووليت الحرب الحازم فى أمره ، وقلدت الخراج الموفّر لأمانته ، وقسمت لكل خصم من نفسى قسما يعطيه حظا من نظرى ولطيف عنايتى ، وصرفت السيف الى النّطِف المسيىء ، والثواب الى المحسن البرىء ، فخاف المريب صولة العقاب ، وتمسك المحسن بحظه من الثواب » (١) .

على أن الوليد اختص أهل الشام بعطفه ورعايته ، فكان يقول لأهل الشام : « انما أنا لكم كالظليم الرائح عن فراخه : ينفى عنها القذر ، ويباعد عنها الحجر ، ويكنها من المطر ، ويحميها من الضباب ، ويحرسها من الذئاب . يا أهل الشأم أنتم الجنّة والرداء ، وأنتم العدّة والحذاء » (٢) .

وليس من شك فى أن الوليد تلقن الدرس الأول فى السياسة من أبيه عبد الملك . وقيل ان الوليد قال لعبد الملك : « يا أبت ما السياسة ؟ قال : هيبة الخاصة مع صدق مودتها ، واقتياد قلوب العامة بالانصاف لها ، واحتمال هفوات الصنائع » (٣) .

---

(١) ابن قتيبة : عيون الأخبار ج ١ ص ١٠ (طبعـــة دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٣٤٣ هـ ــ ١٩٢٥ م) .

(٢) ابن قتيبة : عيون الأخبار . ج ١ ص ١٠ .

(٣) نفس المرجع ج ١ ص ١٠ .

ولا شك أن نصائح عبد الملك بن مروان لابنه الوليد ولكافة بنيه ، أصول فى علم السياسة . ومن تلك الأقوال التى أثرت عنه ما قاله لبنيه قبيل وفاته اذ أوصى بنيه بتقوى الله ، ونهاهم عن الفرقة والاختلاف ، وقال : « انظروا مسلمة واصدروا عن رأيه — يعنى أخاهم — فانه مجنكم الذى به تجتنون ، ونابكم الذى عنه تفترون ، وكونوا بنى أم بررة ، وكونوا فى الحرب أحرارا وللمعروف منارا ، فان الحرب لم تدن منية قبل وقتها ، وان المعروف يبقى أجره وذكره ، واحلولوا فى مرارة ، ولينوا فى شدة ، وكونوا كما قال ابن عبد الأعلى الشيبانى :

ان القــداح اذا اجتمعن فرامهـــا
بالكسر ذو حنــق وبطـــش أيد
عزت فــلم تكسر وان هى بددت
فالكســـــر والتــوهين للمتبدد

« يا وليد اتق الله فيما أخلفك فيه ، واحفظ وصيتى ، وخــذ بأمرى ، وانظر الى أخى معاوية فانه ابن أمى وقد ابتلى فى عقله بما علمت ، ولولا ذلك لآثرته بالخلافة فصِل رحمه ، واحفظنى فيه ، وانظر أخى محمد بن مروان فأقره على الجزيرة ولا تعزله ، وانظر أخاك عبد الله فلا تؤاخذه وأقرره على عمله بمصر ، وانظر ابن عمنا هذا على بن عبد الله بن عباس فانه قد انقطع الينا بمودته وهواه ونصيحته وله نسب وحق ، فصِل رحمه واعرف حقه ، وانظر الحجاج فأكرمه فانه هو الذى وطأ لكم المنابر وهو سيفك يا وليد ، ويدك على من ناوأك فلا تسمعن فيه قول أحد ، وأنت

اليه أحوج منه اليك ، وادع الناس اذا مت الى البيعة ، فمن قال برأسه هكذا فقل بسيفك هكذا .. » .

ولا شك أن نصيحة عبد الملك بن مروان تبين الخطوط العريضة لأخلاق وسياسة عبد الملك ، وهى التى حرص الوليد على اتباعها فى خلافته ؛ فلم نعرف ان الوليد تهاون فى دين أو فى خُلق ، كما ظل الوليد يرعى اخوته وأسرته وحرص على وحدة الأسرة القرشية من هاشميين وأمويين ، تلك الوحدة التى حرص عليها جدّه مروان وأبوه عبد الملك ، وعرف الوليد فضل الحجاج على الخلافة الأموية فظل يرعاه ويقدره ويعمل بآرائه الى أن توفى الحجاج فكان جزع الوليد عليه شديدا .

ونسمع عن الوليد بن عبد الملك وهو فى حوالى العشرين من عمره يدافع عن أبيه عبد الملك ضد مؤامرة قام بها أحد أفراد الأسرة الأموية فى وقت كانت الدولة العربية تجتاز فيه مرحلة من أخطر مراحل تاريخها ؛ اذ كان الروم يهددون دولة العرب ، كما كان أتباع عبد الله بن الزبير فضلا عن الخوارج والشيعة يهددون الأمويين فى العراق ، وكان حصن قرقيسياء فى الجزيرة معقلا لقبائل قيس التى أعلنت عداءها للأمويين وموالاتها لابن الزبير منذ موقعة مرج راهط ، هذا فضلا عن وجود عبد الله ابن الزبير نفسه فى الحجاز . وكان القوم فى مؤتمر الجابية قد اتفقوا على تولية مروان بن الحكم الخلافة على أن يبايع لولاية العهد من بعده خالد بن يزيد بن معاوية ، وعمرو بن سعيد ابن العاص بن أبى أحيحة بن العاص بن أمية . الا أن مروان

ابن الحكم غيّر نظام ولاية العهد وجعله لابنيه عبـد الملك ثم عبد العزيز بن مروان . لكن عمرو بن سعيد ، وهو ابن عمـة عبد الملك وابن عمه أيضا ، لم تطب نفسه لخروج الخلافة منه وظل يترقب الفرص لخلع عبد الملك والدعوة الى نفسه بالخلافة . وحين خرج عبد الملك فى سنة ٧٠ هـ من دمشق متوجها الى قرقيسياء والعراق لاقماع الفتن هناك أعلن عمرو بن سعيد خلع عبد الملك ودعا لنفسه بالخلافة ، واضطر عبد الملك الى العودة بقوته على الفور وألقى الحصار على دمشق ثم تمكن من دخولها بعد أن كتب صلحا بينه وبين عمرو وأعطاه الأمان . وكان أخطر ما فى هـذه المؤامرة اشتراك اخوة عمرو وأبنائه فيها فضلا عن بعض كبار القواد . ولم يكن عبد الملك ليسكت عن هذه المؤامرة الخطيرة لقلب الحكم والقضاء على دولة عبد الملك . وكان بعد أن ضبط عبد الملك الأمور ثانية فى العاصمة أن استدعى عمرو بن سـعيد الى قصره ، وفى القصر لا نعرف ماذا حدث بالضبط مما أدى الى اغتيال عمرو بن سعيد . وفى أثناء وجود عمرو فى قصر الخليفة حدثت ثورة خارجة كان على رأسها أخوه يحيى بن سعيد وسائر أسرته ونفر من القواد الذين كانوا قد اشتركوا فى مؤامرته . وحاول الثوار اقتحام القصر وحدثت معركة جرح فيها الوليد بن عبد الملك فى أثناء دفاعه وكاد أن يقتل ، وأخيرا تغلب حراس عبد الملك على الثوار ثم حبس عبد الملك أخوة عمرو وأبناءه ولكنه ما لبث بعد ذلك أن عفا عنهم ووصلهم .

وحين ارتقى الوليد عرش الخلافة ووصلت دولة العـرب

والاسلام فى عهده الى ما وصلت من سعة ومنعة ، نرى الوليد مثل أبيه لا يركبه الغرور ولا يترفع عن شعبه ، ولا يفتح صدره للوشاية . وروى أن رجلا قال للوليد بن عبد الملك : « ان فلانا شتمك ، فأكبّ ، ثم قال : أراه شتمك » (١) .

ويذكر ابن قتيبة ان رجلا أتى الوليد بن عبد الملك وهو على دمشق لأبيه فقال : « للأمير عندى نصيحة ، فقال : ان كانت لنا فأظهرها ، وان كانت لغيرنا فلا حاجة لنا فيها ، قال : جارٌ لى عصى وفرّ من بعثه ، قال : أما أنت فتخبر أنك جار سوء ، فان شئت أرسلنا معك ، فان كنت صادقا أقصيناك ، وان كنت كاذبا عاقبناك ، وان شئت تاركناك ، قال : بل تاركنى » (٢) .

ولم يكن غريبا أن يترفع الوليد عن السعاية والوشاية ، اذ أن خلقه الى حد كبير هى خلق أبيه ، فقد روى عن عبد الملك بن مروان أن رجلا سأله الخلوة ، فقال لأصحابه : « اذا شئتم تنحوا ، فلما تهيأ الرجل للكلام قال له : اياك وأن تمدحنى فانى أعرف بنفسى منك ، أو تكذبنى فانه لا رأى لكذوب ، أو تسعى بأحد الىّ ، وان شئت أن أقيلك أقلتك ، قال : أقلنى » (٣) .

وليس من شك فى أن عهد الوليد كان متمما لعهد أبيه اذ استأنف عبد الملك الفتوحات بعد أن استقرت أمور الدولة الداخلية ، فجاء الوليد وسير الجيوش شرقا وغربا حتى وصل

---

(١) ابن قتيبة : عيون الأخبار ج ٢ ص ٢٣ .
(٢) المرجع السابق ج ٢ ص ٢١ .
(٣) ابن قتيبة : عيون الأخبار ج ٢ ص ٢٣ .

المسلمون الى حدود الصين شرقا والى جنوب فرنسا غربا . وكما عنى عبد الملك بتحقيق وحدة العرب وبناء القومية العربية نرى الوليد يتم ما بدأه أبوه مستهدفا الوحدة والتعريب .

ويجمع المؤرخون على أن الوليد وجّه الدولة الى السهر على راحة مختلف الطبقات وخاصة تلك التى تكون فى حاجة الى مساعدة الدولة ، فعنى بالمرضى وذوى العاهات والمكفوفين ، وتعهد الأيتام ورتب لهم من يؤدبهم ، ومنح الأرزاق للضعفاء والفقراء وحرم عليهم سؤال الناس ، كذلك وسع على سائر الرعية . ويقول اليعقوبى [1] ان الوليد أول من عمل البيمارستان للمرضى ، ودار الضيافة ، وانه أول من أجرى الأرزاق على العميان والمساكين والمجذمين ، كما أنه أول من أجرى طعام شهر رمضان فى المساجد .

* * *

أما عن حياة الخليفة وحياة البلاط فليس من شك فى أن بلاط الخليفة الأموى كان يسير سيرا سريعا نحو البذخ والترف . وكان يتمشى فى ذلك مع التطور السريع للدولة العربية جميعا نحو التأنق والتزود بأسباب النعيم والرفاهية .

وليس من شك فى أن الخليفة الأموى أخذ يهتم بأناقة ملابسه وتبعه فى ذلك علية القوم من العرب . وكانت صناعة النسج زاهرة فى مصر حين فتحها العرب واستغلتها الخلافة كثيرا لسد حاجاتها

---

(١) تاريخ اليعقوبى ج ٣ ص ٣٤ ـ ٣٥ .

المختلفة . وحمل الأقباط لواء هذه الصناعة مدة طويلة من الزمن ويدلنا على ذلك أن العرب كانوا يطلقون على المنسوجات المصرية اسم « قباطى » [1] . كذلك ذكر ياقوت [2] الذى عاشر حتى أوائل القرن السابع الهجرى أن ناسجى الثياب فى دمياط وتنيس من القبط .

وكانت مصر مشهورة على الأخص بنسج الكتان لوفرة زراعته وكذلك كان يصنع فيها المنسوجات الصوفية والقطنية والحريرية . ويذكر المؤرخون أن معاوية بن أبى سفيان لما كبرت سنه كان لا يدفأ ، فاتفقوا أنه لا يدفئه الا الأكسية التى تعمل بمصر من صوفها المرعِزّ [3] فعمل له منها عدد فما احتاج منها الا الى واحـد [4] .

ولم يكن الفضل فى اتســاع نطاق فن النسج فى مصر فى العصور الوسطى راجعا الى الأهالى فقط ، وانما كان يرجع الى الحكومة أيضا اذ كانت تسيطر على مصانع النسج . أما لفظ « طراز » المشتق من الفارسية « ترازيدان » و « تراز » بمعنى التطريز وعمــل المدبَّج Broderie فقد أصبح يدل على ملابس

(١) الأزرقى : أخبار مكة ج ١ ص ١٣٧ و ١٦٨ (المطبعة الماجدية بمكة المكرمة ١٣٥٢ ــ ١٣٥٧ هـ) ، المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٢٠٣ (ليدن ١٨٧٧ م) ، خطط المقريزى ج ١ ص ١٨١ (بولاق ١٢٧٠ هـ) .

(٢) معجم البلدان ج ٢ ص ٦٠٢ (ليبزج ١٨٦٦ ــ ١٨٧٣ م) .

(٣) المرعز : اللين من الصوف .

(٤) المقريزى : خطط . ج ١ ص ٢٠٤ .

الخليفة ورجال الحاشية لا سيما اذا كان فيها شيء من التطريز وعليها أشرطة من الكتابة . واتسع مدلول هذا اللفظ حتى انتهى فى العربية والفارسية الى الدلالة على المصنع والمكان الذى تصنع فيه مثل هذه المنسوجات [1] . ولم يبق نظام الطراز وقفا على مصر بل نكاد نجده فى كل الأقاليم الاسلامية .

* * *

وقد شهد القرن الأول بعد الهجرة عناية بتنمية الأخبار المختلفة عن العرب فى الجاهلية والأمم التى اتصلت بهم ، وتألف من تلك الأخبار مجموعة من الأساطير . وممن عرف بالدراية فى هـذا الميدان وهب بن منبه (ت سنة ١١٠ هـ / ٧٢٨ م) وعبيد بن شرية . ويبدو أن تدوين هذه الأساطير والأخبار والسير بدأ فى العصر الأموى فى صحف وكراريس . ويروى أن عبيد بن شرية ألف لمعاوية بن أبى سفيان (كتاب الملوك وأخبار الماضين) ، كما روى أن معاوية كان يستمع كل ليلة الى شيء من أخبار العرب وأيامها ، وأخبار العجم وملوكها . وكان يأتيه غلمان بكتب يقومون على حفظها ويقرأون له مما فيها عن سير الملوك وأخبار دولهم [2] .

---

(١) الدكتور زكى محمد حسن : الفن الاسلامى فى مصر . ج ١ ص ٨٤ (القاهرة ١٩٣٥) .

(٢) المسعودى : مروج الـذهب ج ٣ ص ١٧٣ و ١٧٥ ، ج ٤ ص ٨٩ ، ج ٥ ص ٧٧ ـ ٧٨ (ط.أوربا)، الدكتور زكى محمد حسن : دراسات فى الموازنة بين المؤرخين فى دار الاسلام والمؤرخين الأوربيين فى العصور الوسطى ص ٦ ـ ٧ (مجلة كلية الآداب والعلوم فى بغداد ـ الجزء الثانى يونية ١٩٥٧) ، دكتورة سيدة اسماعيل كاشف : مصادر التاريخ الاسلامى ... ص ١٣ (القاهرة ١٩٦٠ م) .

أما وهب بن منبه فقد اشتهر بمعرفته أخبار أهل الكتاب من يهود ومسيحيين عن طريق اليمنيين من أهل الكتاب . ويبدو أنه كان ذا دراية بالكتابات القديمة ، فقد أشار المسعودى الى أن الوليد بن عبد الملك عثر على حجر عليه نقوش غير عربية أثناء بناء الجامع الأموى بدمشق فى سنة ٨٧ هـ « وعرض الحجر على جماعة من أهل الكتاب فلم يقدروا على قراءته ، فوجه به الى وهب بن منبه ليقرأها » (١) .

أما عن اللهو فنعرف ان الوليد بن عبد الملك كان يهتم اهتماما كبيرا بتنظيم المهرجانات لسباق الخيل (٢) . وكان يهتم أيضا بالصيد كما يتضح لنا من رسوم الصيد فى قصير عمرة القائم فى شرقى عمان فى الأردن والذى يرجع الى زمن الوليد بن عبد الملك (٣) .

ويذكر صاحب الفخرى أن يزيد بن معاوية كان أشد الناس كلفا بالصيد ، وقيل ان يزيد كان يلبس كلاب الصيد الأساور من الذهب ، والجلاجل المنسوجة منه ، ويهب لكل كلب عبدا يخدمه (٤) .

* * *

وفى العصر الأموى أخذ المغنون المحترفون يظهرون على

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ١٥٢ (القاهرة سنة ١٣٤٦ هـ) .

(٢) ابن قتيبة : عيون الاخبار ج ٣ ص ١٤٢ (دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٣٤٨ هـ - ١٩٣٠ م) .

(٣) الدكتور زكى محمد حسن : فنون الاسلام ص ٤٥ - ٤٧ .

(٤) ابن طباطبا : الفخرى: ص٣٩ (القاهرة ١٣٤٥ هـ - ١٩٢٧م)

مسرح الحياة ووفد على الحجاز وعلى بلاط دمشق الموهوبون من أرباب الفن ، وشمل عبد الملك برعايته المغنين والموسيقيين الموهوبين كما عنى بالعمارة والفنون الزخرفية ، وتبعه ابنه الوليد فى تلك العناية والرعاية فعنى بالعمارة والفنون الزخرفية كما استدعى الى بلاط دمشق كبار المغنين والموسيقيين حينئذ ، مثل ابن سريج ومعبد بن وهب .

* * *

والحق ان حياة الوليد كانت بصفة عامة حياة سعيدة لنفسه ولأمته ، وهو بعد أبيه يشبه فى كثير من الوجوه الخليفة المهدى بعد أبيه أبى جعفر المنصور .

أما وفاة الوليد فكانت فى دير مُرّان بالقرب من دمشق وكان دفنه فى دمشق .

ولعل أبلغ وصف للوليد ما ذكره ابن طباطبا عنه فى بضعة سطور اذ يقول : « وكان الوليد من أفضل خلفائهم سيرة عند أهل الشام ، بنى الجوامع : جامع دمشق ، وجامع المدينة ، على ساكنها أفضل السلام ، والمسجد الأقصى ، وأعطى المجذمين ، ومنعهم من سؤال الناس ، وأعطى كل مقعد خادما، وكل ضرير قائدا ، وفتح فى خلافته فتوحا عظاما ، منها الأندلس وكاشغر والهند . وكان شديد الكلف بالعمارات والأبنية ، واتخاذ المصانع والضياع ، وكان الناس يلتقون فى زمانه فيسأل بعضهم بعضا عن الأبنية والعمارات » (١) .

(١) ابن طباطبا : الفخرى : ص ٩٢ ـ ٩٣ .

الفصل الثاني

خليفة أم ملك ؟!

كانت مسألة ولاية العهد من المشاكل التي جابهت «أبا الخلفاء» عبد الملك بن مروان . ولم تكن مسألة الخلافة مشكلة عبد الملك ابن مروان وحده ، وانما كانت الخلافة هى مشكلة المسلمين بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام. اذ ظهر بعد وفاته مباشرة ، الخلاف بين المسلمين حول مسألة الخلافة ومن الذى يتولاها ، وهل هى ارث فى بيت النبى، وفى فرع معين من هذا البيت كبنى هاشم أو بنى أمية، أم يتقلد أمرها أى فرد كفء لها بغض النظر عن القبيلة التي ينتسب اليها . فالدين الاسلامى لم ينص على شكل حكومة معينة للأمة العربية أو لغيرها من الأمم . ولم يعهد الرسول عليه الصلاة والسلام الى شخص معين من بعده ليكون زعيما للأمة العربية يتولى الاشراف على أمورها الدنيوية والدينية . وأقصد بالدينية هنا الاشراف على تنفيذ أحكام الدين ، لا أن يخلف الرسول فى صفته الدينية ، اذ أن النبوة والرسالة قد انتهت بوفاة خاتم النبيين والمرسلين محمد عليه الصلاة والسلام .

وكان امتناع العباس بن عبد المطلب عم الرسول (ص) وعلى ابن أبى طالب ، وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، وغيرهم

عن مبايعة أبى بكر الصديق بالخلافة ، ايذانا بما حدث بعد ذلك من انقسام المسلمين .

وقد كثر النزاع حول الخلافة ومن يتولاها ، وكان هذا النزاع تارة بالكلام والجدل ، وتارة بالسيف والحرب ، واتبع كل فريق أو كل حزب أفراد عديدون أما ايمانا بعقائد الحزب ومبادئه ، واما رغبة فى منفعة أو مصلحة مادية .

وقد ظهر النزاع حول الخلافة بأجلى مظاهره فى الثورة التى قامت ضد الخليفة عثمان بن عفان ، اذ احتكم فى ذلك النزاع الى السيف بدلا من أن يحكم العقل واللسان ، وكانت هذه أول مرة يحتكم فيها الى السيف فى النزاع الذى يدور حول مسائل الحكم والملك . ولم يغفل فيلسوف المؤرخين ابن خلدون(١) ما انطوت عليه هذه الثورة ، اذ أوضح أن المسألة لم تكن مسألة عثمان ، انما كانت عود الى الجاهلية ونزاع بين القبائل على السيادة ، وأنفة بعض القبائل العربية من سيادة المجاهدين والأنصار من قريش وسواهم ، فأظهروا الطعن فى ولاة عثمان وفى الخليفة نفسه ، فلما وصلت تلك الأخبار الى الصحابة بالمدينة ارتابوا لها وحملوا عثمان على النظر فى الأمر .

والواقع أن الثورة ضد عثمان كان الباعث عليها اتجاهات وميول مختلفة ، فمن ثائر يريد بخروجه الكيد للدين الاسلامى

---

(١) انظر ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٢ ص ١٣٨ ـ ١٣٩ (القاهرة ١٢٨٤ هـ) ، دكتورة سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ١١٢ ـ ١١٣ (القاهرة ١٩٤٧ م) .

وللدولة الاسلامية ، ومن متذمر من خلافة قريش وسيادتها ، ومن طامع فى الخلافة ، ومن شيعى خرج مؤمنا بحق على بن أبى طالب فى الخلافة . وانتهت تلك الثورة بمقتل الخليفة عثمان بن عفان فى سنة ٣٥ هـ . وبعد مقتل عثمان تمت بيعة على بن أبى طالب خليفة . وبادر علىّ بعزل ولاة عثمان وارسال عماله الى الولايات ، كما أرسل ببيعته الى جميع البلدان . لكن معاوية بن أبى سفيان والى الشام رفض التنازل عن الشام للوالى الذى عيّنه علىّ . وكان لابد من نشوب النزاع بين علىّ خليفة العرب ، وبين معاوية أمير الشام . وبينا هما يستعدان لذلك وقع على مسرح الخلاف السياسى حادث جديد هو خروج طلحة والزبير وعائشة زوج الرسول ، على خلافة علىّ بن أبى طالب واشتباكهم معه فى موقعة الجمل بالبصرة نسبة الى جمل السيدة عائشة ، وانتهت الموقعة بانتصار علىّ ، وبعد هذه الموقعة اتخذ علىّ مدينة الكوفة فى العراق حاضرة للخلافة الاسلامية . ثم اشتبك علىّ ومعاوية فى قتال قرب صفين ، تلك المدينة الرومانية الخربة الواقعة على الفرات فى سنة ٣٦ هـ (٦٥٧ م) .

وسبق القتال مفاوضات لم تكن ذات جدوى ، بل عملت على توسيع مسافة الخلف بين الفريقين . وأصرّ معاوية على طلب تسليم قتلة عثمان ومعاقبتهم . وحمّل معاوية عليا مسئولية أدبية فى عدم ملاحقته لقتلة الخليفة عثمان بن عفان . وحين وقعت معركة صفين كاد أن يتم النصر لجيوش علىّ ولأهل العراق لولا حيلة دبّرها

عمرو بن العاص اذ أشار على جند معاوية الشآميين برفع المصاحف على أسنة الرماح وأخذوا ينادون « الحكم لله » .

وطبيعي أن عليًا أدرك أن هذا التحكيم لن يستطيع أن يتناول في الحقيقة الا موضوع قتل عثمان والثأر له ، لأن موضوع الخلافة لن يمكن الوصول الى حله على ضوء نصوص من القرآن الكريم ، ولهذا لم يرحب عليّ بالتحكيم . ولكن فريق القراء في جيش عليّ ، وهم حفظة القرآن ، استنكروا المضي في القتال وقد دعوا الى تحكيم كتاب الله فتوقفوا عن القتال وتوقف معهم عدد غير قليل من جند عليّ .

وهكذا أُجبر الخليفة على قبول الهدنة وانتهت بذلك موقعة صفين وحل محلها التحكيم ، أي أن الفريقين المتنازعين دخلا في دور مفاوضات ، واتفق على أن يختار كل فريق حكما ، كما اشترط على القائدين المتنازعين أن يقبلا نتيجة التحكيم .

ووقع اختيار أهل الشام على عمرو بن العاص ، أما أهل العراق فاختاروا أبا موسى الأشعري . وبهذه الطريقة كسب معاوية نصرا معنويا ، اذ أنزل عليّ في الواقع ، من مركز خليفة المسلمين الى مطالب بالخلافة . كذلك نجح معاوية — زعيم بني أمية حينئذ — في تفريق أنصار عليّ بن أبي طالب اذ تسبب التحكيم في أن ثار عليه جماعة من أتباعه ممن لم يرضوا عن التحكيم ، وعرف هؤلاء باسم الخوارج ، أي الذين خرجوا على الجماعة . وأصبح الخوارج أشد أعداء عليّ ، ودعوى الخوارج أن عليًا

أخطأ فى التحكيم ، اذ حكّم الرجال — والحكم لله — ومن هنا كان نداؤهم حين خرجوا عليه « لا حكم الا لله » .

وأعلنت نتيجة التحكيم فى أوائل سنة ٣٨ هـ (٦٥٩ م) وقيل ان أبا موسى الأشعرى تقدم وخلع عليّا ومعاوية معا . أما عمرو فثبت معاوية بعد أن خلع عليّا . ونحن نرجح أن الحكمين خلعا عليّا ومعاوية . وهذا يعنى أن معاوية هو الذى كسب الموقف لأن عليّا خسر منصب الخلافة . أما معاوية فانه لم يكن فى ذلك الحين خليفة بل كان أميرا على احدى الولايات الاسلامية وهى الشام ، واذا كان قد خسر شيئا فهو لم يخسر سوى حقه فى الخلافة الذى لم يكن قد ادعاه علانية بعد .

ولم يقبل علىّ نتيجة التحكيم ، وعادت الحالة الى ما كانت عليه قبل صفين ، بل ان مركز علىّ تضعضع بسبب قيام الخوارج ، ولانحطاط روح أتباعه المعنوية بعدما حدث من أحداث ، وفضلا عن ذلك فان معاوية استطاع قبيل اعلان نتيجة التحكيم أن يستولى على مصر سنة ٣٨ هـ فحرم بذلك عليّا من مورد غنى بالمال والامدادات . والواقع أن أصحاب معاوية كانوا يدا واحدة وعلى العكس كان أتباع علىّ الذين تفرقت صفوفهم . وكان مركز معاوية فى الشام راسخا اذ كانت الشام آنذاك ولاية موحدة هادئة تتمتع بادارة مركزية منظمة كانت الأولى من نوعها فى الاسلام فى ذلك الحين . وكان تحت امرته جيش قوى اكتسب خبرة وتنظيما أثناء حروبه مع الروم فضلا عن أن معاوية كان يلى الشام من قبل عمر بن الخطاب منذ سنة ٢١ هـ ثم ثبته فيها عثمان . وجذب معاوية

اليه خلال هذه المدة الطويلة قلوب أهل الشام فصاروا أنصـــارا متحمسين له ، وكان من بين أنصاره فى الشام بعض دهاة العرب مثل عمرو بن العاص . وقد بايع أهل الشام معاوية بالخلافة منذ سنة ٣٧ هـ فشجعه ذلك على ضم مصر اليه فى سنة ٣٨ هـ .

وفى سنة ٤٠ هـ (٦٦١ م) ذهب معاوية الى بيت المقدس (ايلياء) وأخذ البيعة لنفســه بالخلافة . وحينما بويع بالخلافة أدرك أصحاب علىّ الخطر ، وأخذ علىّ يعد العدة لمعركة جديدة ، ولكن قبل أن يسير علىّ لمحاربة معاوية ، قتله أحد الخوارج وهو عبد الرحمن بن ملجم . وكان استشهاد علىّ فى ١٧ رمضان سنة ٤٠ هـ فى مسجد الكوفة . وبايع أهل العراق الحسن بن علىّ خليفة لأبيه الامام علىّ . وسار الحسن لمحاربة معاوية بالجيش الذى أعدّه أصحاب علىّ قبل استشهاده ، ولكن يبدو أن الحسن لم يكن واثقا من أن الكوفيين وسائر أنصاره جادون فى نصرته فتنازل لمعاوية وآثر الاعتكاف فى الحجاز فى سنة ٤١ هـ . وقد سمى عام ٤١ هـ عام الجماعة لاجتماع أمة العرب فيه على خليفة واحـــد .

والواقع أن معاوية اتبع طرق الحرب وشتى الطرق السياسية للوصول الى غايته . وهكذا استتب الأمر لمعاوية وقفل باب الفتنة بين المسلمين وهى الفتنة الكبرى والأولى فى التاريخ الاسلامى ، وقد تمخضت عن قيام طائفتين أو حزبين هما الشيعة والخوارج اللذان أصبح لهما تاريخ طويل فى العصور التالية . كما تمخضت هذه الفتنة عن قيام العصبية الاقليمية فى الاسلام ، اذ وقف العراق

والشام وجها لوجه ، وصار علىّ بطل العراق منذ اتخذ الكوفة عاصمة لخلافته بعد موقعة الجمل سنة ٣٦ هـ ، وصار معاوية بطلا للشام منذ أن بدأ ثورته على حكومة علىّ من الشام واتخذ دمشق قاعدة له .

وكانت الخلافة فى العصر الأموى انتقالا بين الخلافة الانتخابية الديمقراطية زمن الخلفاء الأربعة الراشدين ، وبين الخلافة الوراثية المطلقة فى العصر العباسى . اذ فتح معاوية بن أبى سفيان بابا جديدا بتوليه الخلافة بعد ثورته على آخر الخلفاء الراشدين علىّ ابن أبى طالب ، فكانت خلافة معاوية ثورة على التقاليد السائدة التى تقضى بانتخاب الخليفة .

ومن الأمور التى اتجه اليها معاوية لتوطيد سلطانه والقضاء على عدم الاستقرار فى الدولة الاسلامية جعل الخلافة وراثية فى أسرته . ولعله رأى أن هذا العمل يحقق مغنما شخصيا لأسرته فضلا عن أنه يقضى على سبب رئيسى من أسباب النزاع فى الدولة الاسلامية . ولكننا سوف نرى أن هذا التصرف من جانب مؤسس الدولة الأموية ، ان نجح فى تحقيق مطمع أسرته فانه لم يحقق الاستقرار المطلوب ، اذ أدى بعد وفاته الى استئناف النزاع على الخلافة والى مأساة كربلاء ، ثم الى انتقال الخلافة الى الفرع المروانى من بنى أمية .

والواقع أننا اذا نظرنا الى الثلاثين سنة التى سبقت خلافة معاوية منذ وفاة الرسول (ص) ، نجد ان مسألة الحكم والخلافة كانت مثار النزاع بين المسلمين وسببا فى انقسامهم شيعا وأحزابا .

فبعد وفاة الرسول (ص) قام النزاع بين المهاجرين والأنصار حول الخلافة ومن يتولاها ، ثم شغل العـرب بالفتوحات الكبرى . ولما طعن عمر بن الخطاب ظهر التنافس بين أهل الشورى الذين اختارهم عمر قبيل وفاته لانتخاب خليفة منهم . ثم ظهرت بوادر الثورة والانفجار منذ خلافة عثمان ، وأطمع الناس فى الثورة ضد عثمان دماثة خلقه ولينه وطيبة قلبه وكرهه سفك الدماء . ولما تولى علىّ بن أبى طالب الخلافة عقب مقتل عثمان واجه حروبا وفتنا داخلية فخرج عليه طلحة والزبير والسيدة عائشة ، ثم اشتبك مع معاوية ، ثم لم يلبث أن خرج عليه فريق من اتباعه وهم الخوارج . وانتهى الأمر باستقرار الحكم لمعاوية فلا عجب اذا رأيناه يفكر فى القضاء على سبب هذا النزاع بين المسلمين بوضع نظام ثابت للخلافة . ولكن مسألة الخلافة معقدة الى حد بعيد ، فلو أن معاوية اختار شخصا صالحا يجمع على اختياره المسلمون ، أو ينال رضا الأغلبية العظمى من بينهم ، لما وجدنا فى تصرفه مطعنا أو مثارا للنقد . ولكن اختياره ابنه يزيد ، واتجاهه الى بداية نظام الوراثة ظهر فيهما ضعف الوالد ، وكان تحديا للنظم المألوفة عند عرب الحجاز وبين الجماعة الاسلامية قبله . وزعم بعض الباحثين أن معاوية كان متأثرا فى اتجاهه الى نظام الوراثة بما كان مألوفا فى الشام ، وبين العرب المتاخمين لهذا الاقليم مثل الغساسنة والنبط وأهل تدمر .

ولكننا لا نحتاج الى أن نذهب الى هذا الحد ، فليس تصرفه فى الحقيقة الا تصرف حاكم شعر بقوته وأراد أن يوطد الحكم

فى أسرته ، ولعله أراد فى الوقت نفسه أن يجنب المسلمين عاقبة التنازع على الخلافة كلما مات خليفة ووجبت اقامة خليفة جديد .

ويجب أن نذكر فى هذه المناسبة أن نظام الوراثة فى الحكم لم يكن مجهولا تماما عند أهل الحجاز فقد كانوا يعرفونه فى دول بلاد العرب الجنوبية والدول العربية التى قامت فى أطراف شبه الجزيرة ، وبين الفرس والروم ولكن القوم فى قلب الجزيرة كانوا بسبب بداوة معظمهم لا يقبلون الخضوع لأسرة حاكمة ، وكانوا يصرون على انتخاب زعيمهم وفقا لنظام المشيخة المعروف بينهم والذى يقضى بأن يتولى الشيخ الذى تؤهله للزعامة صفاته العقلية والجسمية وحالته الاجتماعية .

* * *

وقد اعتبر المؤرخون معاوية أول ملك فى الاسلام ، وذكروا أنه حول الخلافة الى مُلك ، والخلافة تستند الى الدين أكثر من السياسة ، أما الملك فهو الزعامة الدنيوية التى تستند الى السياسة أولا والدين ثانيا أو الى السياسة فقط . ولذلك قيل ان عليّا آخر الخلفاء ومعاوية أول الملوك ، ذلك لأن معاوية كان يقدم المصلحة السياسية على الاعتبارات الدينية والأدبية . ويصفه المؤرخ « ابن طباطبا » فى كتابه « الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية » بقوله : « وكان معاوية رضى الله عنه مصروف الهمة الى تدبير أمر الدنيا ، يهون عليه كل شىء اذا انتظم أمر الملك » (١).

---

(١) انظر : ابن طباطبا : الفخرى ص ٧٩ (القاهرة ١٣٤٥ هـ ـ ١٩٢٧ م) .

ونجد ابن خلدون فى مقدمته يجعل للمُلك شـارات وعلامات لم تظهر الا فى زمن معاوية ومنها السرير ، أى العرش ، فمعاوية كان أول من اتخذ السرير وحوله الحرس على نحو ما كان يفعل قياصرة الروم وأكاسرة الفرس . ولعل معاوية رأى أن يحتاط لنفسه وألا يعرّضها لما تعرض له الخلفاء من قبل فقد قتل عمر ابن الخطاب ، وقتل عثمان وقتل علىّ . كذلك استحدث معاوية المقصورة فى الجامع وجعلها مقاما للصلاة خاصا به . فكان ينفذ الى المقصورة من باب خاص به فلا يختلط بجموع المسلمين . ولا شك ان احداث المقصورة فى زمن معاوية كان من باب الاحتياط أيضا ومع ذلك فان هذه الأمور أعطت للخليفة على ممر الزمن مكانة خاصة لم تكن له من قبل .

كذلك أخذ المؤرخون على معاوية الجلوس أثناء الخطبة فهو أول من خطب قاعدا وقد جرت العادة قبل معاوية أن الخليفة أو الخطيب اذا خطب فى الناس يوم الجمعة خطبهم واقفا . وقد اعتذر معاوية عن جلوسه أثناء الخطبة لتقدمه فى السن ولضخامة جسمه وعظم بطنه . ومع ذلك فقد جرت العادة بذلك بعد معاوية ، فكان بنو أمية يخطبون الناس جلوسا . ولعل أهم شىء أخذه المؤرخون والفقهاء على معاوية هو أنه جعل الحكم فى الدولة الاسلامية وراثيا فنقل الحكم من بعده الى ابنه يزيد ، والوراثة هى أهم ركن يستند عليه نظام المُلك .

وقد وجّه المؤرخون العرب ، الذين جاءوا بعد الدولة الأموية وكتبوا فى ظل أسر خلفت الأمويين ، همهم الى الحط من شـأن

الأمويين وامتنعوا عن اطلاق لقب « خلفاء » على معاوية ومن جاء بعده من الحكام . فنراهم يتكلمون عن « مثلك » معاوية وباقى حكام بنى أمية باستثناء عمر بن عبد العزيز أو عمر الثانى ٩٩ — ١٠١ هـ (٧١٧ — ٧٢٠ م) الذى فاز دون بقيـة الحكام الأمويين بلقب خليفة وذلك لشهرته بورعه وتقواه .

أما الفقهاء المسلمون فكانوا يأخذون على بنى أمية ايجادهم سنة الملك وخروجهم على سنة الخلفاء من قبلهم . كما أن معظم أولئك الفقهاء لم يرتاحوا الى استيلاء أرستقراطية قريش على السلطان فى الدولة الاسلامية فتجنى ثمار الدعوة الاسلامية بعد أن كانت تقاوم النبى (ص) فى بدايتها كل المقاومة . وجدير بالذكر أن الخصومة بين الأمويين والفقهاء كانت مستمرة باستثناء خلافة عمر بن عبد العزيز . فلم يحاول الأمويون تقريب الفقهاء والاعتماد عليهم لتأييد حكمهم كما فعل الخلفاء العباسيون بعد ذلك .

ولم يعد الخليفة ، فى نظر المؤرخين والفقهاء ، الزعيم الدينى الذى يخلف النبى عليه الصلاة والسلام ، بل أصبح طوال العصر الأموى أشـــبه بملك أو بامبراطور يسيطر على دولة مترامية الأطراف ، ويعتز بملكه وأسرته ، ويسوس هذا الملك غير مقيد بحديث أو سنة ، ومستخدما كل الوسائل التى يراها موصلة الى الغرض المطلوب ، أى توطيد أركان حكمه وتوسيع دائرة مثلكه . ومن ثم فقد سمى الخلفاء الأربع السابقون على معاوية بالخلفاء الراشدين .

ويبدو أن معظم المؤرخين يبالغون حتى يتكلمون عن مثلك

معاوية ، ولا غرو فان الكتب المدونة ترجع الى العصر العباسى وقد ألف بعضها تزلفا للعباسيين ، أو تحت تأثير عناصر تكره الحكم الأموى .

وقد أنكرت معظم هذه المصادر على معاوية فضائله وشكت فى تقواه . وعلى العكس من ذلك نرى ابن عساكر فى تاريخ دمشق يمثل رأى المدرسة الشامية من المؤرخين ويناصر معاوية ويظهره مسلما ورعا تقيا .

* * *

ويبدو من المراجع فيما يختص بمعاوية بالذات أنه كان حريصا على ألا يبدو ملكا مستبدا ، بل كان أشبه بشيخ من شيوخ القبائل قبل الاسلام ، وكان يستشير الزعماء فى شئون الدولة فى المسجد وفى قصره ، كما كان يستقبل وفود الأمصار فيسمع شكاواهم ويصغى لآرائهم ، ويعمل على التوفيق بين العشائر المختلفة .

والواقع أن حكم معاوية كان عربيا فى أساسه ، ولم يعد هذا الحكم دينيا ، كما أنه لم يكن ملكيا بمعنى الكلمة ، فقد كانت سلطة معاوية احياء وتوسيعا لسلطة « السيد » أو « الشيخ » فى النظام السائد قبل الاسلام . وقد واصل خلفاء بنى أمية تقاليد سيد القبيلة ورؤساء العشائر التجارية فى مكة مهذبة بما اكتسبه العرب من بذخ وتقاليد ملكية عن الأمم التى غلبوها على أمرها مثل ايران ، أو التى جردوها من معظم مستعمراتها مثل بيزنطة .

والمعروف أن العرب كانوا يكرهون لقب ملك ، ويكادون لا يطلقونه الا على سلاطين الأعاجم . وتذكر الروايات التاريخية

ان الخليفة عمر بن الخطاب قال لسلمان « أملك أنا أم خليفة ؟ فقال له سلمان : ان أنت جبيت من أرض المسلمين درهما أو أقل أو أكثر ثم وضعته فى غير حقه فأنت ملك غير خليفة ، فاستعبر عمر »[1].

وجدير بالذكر ان الفقهاء الذين اعتبروا خلافة الأمويين ملكا، كانوا يؤيدون الخلفاء العباسيين الذين ادعوا ارجاع الخلافة الحقة بدل الملك الذى أقامه الأمويون . والواقع أن الخلفاء العباسيين أحاطوا أنفسهم بالفقهاء واستشاروهم فى مشاكل الدولة ، وكانت غاية العباسيين الاستفادة من الدين لتثبيت مركزهم السياسى . وهكذا لم يعترض الفقهاء على خلافة العباسيين الذين أكدوا مبدأ الوراثة واعتمدوا على القوة أكثر من الأمويين فى تنفيذ رغباتهم . وبعد أن كان الخليفة الأموى أشبه بشيخ قبيلة يعتمد على رضى وتأييد رؤساء القبائل والعشائر ، ويحاول استرضاءهم ، أصبحت سلطة الخليفة العباسى مقدسة ومستمدة من الله تعالى . فخطب الخليفة أبو جعفر المنصور قائلا : « أيها الناس انما أنا سلطان الله فى أرضه أسوسكم بتوفيقه وتسديده وتأييده ، وحارسه على ماله ، أعمل فيه بمشيئته وارادته ، وأعطيه باذنه فارغبوا الى الله وسلوه .. أن يوفقنى للرشاد والصواب ، وأن يلهمنى الرأفة بكم والاحسان اليكم .. »[2] وأصبح الخليفة خليفة الله على الأرض ،

---

(١) انظر : الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ٥ ص ٢٤ (الطبعة الأولى بالمطبعة الحسينية المصرية) .

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص ٣٧٠ (القاهرة ١٩١٣ م)

فيذكر المؤرخ المسعودى أن عبد الله بن عمر بن عتبة دخل على المهدى يعزيه فى وفاة والده المنصور ، وكان مما قاله : « .. ولا مصيبة أعظم من امام والد ، ولا عقبى أجل من خلافة الله على أولياء الله .. » (١) .

ولا شك أن الخلفاء العباسيين تأثروا بالفرس الذين كانوا يعتقدون فى نظام الوراثة فى أسرة مالكة بعينها تستمد حقها فى الحكم من الله لا من الشعب . ولم تستند وراثة الخلافة فى العصر العباسى على فكرة الحق الالهى المقدس فى الحكم فقط ، بل أكد العباسيون أن الخلافة حق شرعى لهم وعلى أنها ميراث لهم عن جدهم العباس عم النبى الذى هو مقدم فى الميراث عن النبى على غيره سواء أكان من الأمويين أم العلويين (٢) .

* * *

على أن النجاح الذى أحرزه معاوية بن أبى سفيان بتحويل الخلافة الى ملك وراثى ، لم يكن متين الأساس ، ولم تكن الدولة الاسلامية الناشئة لتستطيع هضمه بسهولة ، وانما كانت شخصية معاوية أكبر ضمان له ، فلا عجب اذا كانت وفاة معاوية ايذانا بالانقسام من جديد حول مسألة الخلافة وحين تولى يزيد الخلافة ثار الحسين بن على مطالبا بحقه فى الخلافة . وكانت ثورة الحسين تأكيدا للمبدأ الانتخابى الذى يؤكد اختيار أصلح المسلمين وأفضلهم

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٥٠ (القاهرة ١٣٤٦ هـ)
(٢) راجع خطبة ابى العباس السفاح فى تاريخ الأمم والملوك للطبرى ج ٩ (طبعة المطبعة الحسينية) .

كما كان الحال أيام الخلفاء الراشدين . وانتهت ثورة الحسين باستشهاده فى كربلاء بالعراق ، لكن استشهاد الحسين لم يثنه المطالبة بالمبدأ الانتخابى فى الخلافة ، اذ سرعان ما أعلن عبد الله ابن الزبير فى الحجاز خروجه على خلافة ناشىء شامى مثل يزيد ، على حين أن فى الحجاز من يفضله من صحابة رسول الله (ص) .

وما لبث ان زاد الخلاف واتسعت شقته بعد وفاة يزيد بن معاوية ، وبعد تنازل ابنه معاوية الثانى عن الخلافة ووفاته بعد أن حكم نحو ثلاثة أشهر . بل ان معاوية الثانى الذى ولى الخلافة وفق مبدأ الوراثة بعد وفاة أبيه يزيد بن معاوية ، كان يخلص للمبدأ الانتخابى ولا يقبل الوراثة حتى قيل انه قبل البيعة وهو كاره لها ثم ما لبث أن تنازل عن الخلافة ، بل قيل انه خطب خطبة انتقد فيها جده معاوية لانتزاعه الخلافة ممن كان أولى بها منه ، كما انتقد أباه لأنه كان غير خليق بها [1] .

ولم يحكم خلال الشهور الستة التى تلت وفاة معاوية الثانى أحد بعد أن رفض معاوية الثانى أن يعهد لأخيه خالد بن يزيد بالخلافة [2] .

واندلعت الفتنة الثانية فى التاريخ الاسلامى . ولم يقتصر الصراع حول الخلافة بين المبدأ الانتخابى ، وبين مبدأ الوراثة المباشر من الأب الى الابن فقط ، بل ظهر مبدأ ثالث وهو المبدأ

(١) راجع : اليعقوبى : تاريخ . ج ٢ ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧ (طبعة النجف الأشرف ١٣٥٨ هـ) .

(٢) انظر : البلاذرى : انساب الاشراف ج ٤ ص ٦٥ (مطبعة القدس ١٩٣٦ م) .

القبلي الذى يعترف بسيادة القبيلة ويختار أكبر أفرادها سنا وأكثرهم خدمة وشجاعة وحنكة . وكانت رغبة الأسرة الأموية ، وأهل الشام عامة أن تبقى الخلافة أموية ، وهكذا انتخب مروان ابن الحكم فى الجابية فى الشام سنة ٦٤ هـ على أساس أنه من البيت الأموى وعلى أساس قبلى لسنّه وخبرته . ومع ذلك فان مبدأ الوراثة لم يهمل ، اذ تذكر المصادر القديمة أنه بويع لمروان بن الحكم فى الجابية ، ثم لخالد بن يزيد بن معاوية ، ثم لعمرو بن سعيد بن العاص الأشدق وكان من الزعماء الأمويين الذين لهم الفضل فى تثبيت الحكم المروانى .

لكن مروان بن الحكم ، بعد أن تولى الخلافة ، رجع الى نظام الوراثة من الأب الى الابن فبايع سنة ٦٥ هـ لابنيه عبد الملك وعبد العزيز . وقد تكون البيعة لابنيه ليست مجرد رغبة شخصية فقط ، أو خطئا ، وانما كانت هذه البيعة ضرورة سياسية اقتضاها حرص المروانيين على عدم خروج الخلافة من أيديهم كما خرجت من الفرع السفيانى الأموى ، ولتجنب الاضطرابات التى قد تنشأ عن كثرة الطامعين فى الخلافة ، أو التى تنجم عن آراء مثل آراء معاوية الثانى . ولكننا سنرى أن هذه السنّة فى انتخاب الخلفاء ، ستزيد فى مشكلات بنى أمية ، وسوف نلاحظ أن عبد الملك ابن مروان وخلفاءه سيعمل كل منهم على أن يحصل على ولاية العهد لخلفائه المباشرين وأن ينحى عنها اخوته وأقاربه . وسوف يأخذ الخلفاء العباسيون بعد ذلك بهذه السنّة وهى تولية العهد لأكثر من واحد .

وتذكر المراجع أنه حينما أراد عبد الملك بن مروان خلع أخيه وولى عهده عبد العزيز بن مروان ، شجعه على ذلك الحجاج بن يوسف الثقفى ، بل ان المراجـع تذكر أنه هو الذى كتب الى عبد الملك يُزيّن له أخذ البيعة لابنه الوليد . ويقال ان عبد الملك ابن مروان استشار فى ذلك الأمر رجلا من أجلّ الناس عنده هو روح بن زنباع الجذامى ، فكان رد روح : « لو خلعته ما انتطح فيه عنزان » وبينا عبد الملك يفكر فى هذا الأمر جاءه الخبر بوفاة أخيه عبد العزيز بن مروان .

وتذهب روايات أخرى الى أن عبد العزيز بن مروان سُقى سمّا ، كما تذكر روايات أخرى ان عبد الملك خلع أخاه من ولاية العهد ، وولى ابنه الوليد ثم ابنه سليمان من بعد الوليد .

وأرجح الروايات أنه لا الوعـد ، ولا الوعيد أجديا مـع عبد العزيز بن مروان كى يعدل عن حقه فى الخلافة ، لكن الذى حدث أنه مات قبل عبد الملك ، فاستطاع عبد الملك أن ينفذ ما يريد .

وهكذا أعلنت ولاية العهد للوليد وبايعه الناس . وحين توفى عبد الملك بن مروان فى سنة ٨٦ هـ رجع الوليد من دفن أبيه واعتلى منبر دمشق وخطب فى الناس ناعيا أباه طالبا منهم البيعة والطاعة له وكان مما جاء فى خطبته « .. وقد صار الى منازل الأبرار ولىٔ هذه الأمة بالذى يحق عليه لله ، من الشدة على المريب ، واللين لأهل الحق والفضل ، واقامة ما أقام الله من منار الاسلام وأعلامه ، من حج هذا البيت وغزو هذه الثغور وشن هذه الغارة على أعداء

الله ، فلم يكن عاجزا ولا مفرطا . أيها الناس عليكم بالطاعة ولزوم الجماعة فان الشيطان مع الفرد . أيها الناس من أبدى لنا ذات نفسه ضربنا الذى فيه عيناه ، ومن سكت مات بدائه » [1] .

ويذكر المؤرخ اليعقوبى عن عبد الملك بن مروان أنه لما حضرته الوفاة جمع ولده فأوصاهم بالاجماع والألفة وترك التباغى . ثم قال يا وليد : اذا أنا مت فشمر وأتزر والبس جلد النمر ثم ادع الناس الى بيعتك فمن قال برأسه هكذا فقل بالسيف هكذا » [2] .

والحق ان الخلفاء الأمويين الأول كانوا ملوكا ، وفى الوقت نفسه شيوخا للقبائل ، فلم تكن سلطتهم تستند الى أساس دينى بقدر ما كانت تستند الى قوة القبائل . ولذا نجد الخليفة الأموى يراعى شعور رؤساء القبائل كواحد منهم وان كان أكبرهم . ولكن منذ خلافة عبد الملك بن مروان بدأ يتجه الحكم نحو الاستبداد شيئا فشيئا وذلك بعد أن أخذ نظام الوراثة يستقر فى الدولة . وليس غريبا اذن أن نرى عبد الملك يحيط نفسه بأبهة الملك أكثر ممن سبقه من الأمويين . ولعل لعبد الملك بن مروان بعض العذر فى هذا فقد كان يبغى بالشدة والحزم أن ينظم دولة اشتدت فيها الفتن . ونجح عبد الملك فى ذلك الى حد كبير حتى يمكننا اعتباره المؤسس الثانى للدولة الأموية . أما الوليد فانه أظهر منذ اليوم الأول لتوليه الخلافة رضاه عن سياسة أبيه وعزمه على اتباع

(١) انظر : تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٥٩ .
(٢) اليعقوبى : تاريخ ج ٣ ص ٢٥ .

الشدة حيث تكون لازمة حتى لو كنّ له الناس البغض ، كما يظهر من خطبته الأولى .

وحرص الوليد على أن يحيط نفسه بأبهة الملك مترسما فى ذلك خطوات والده عبـد الملك بن مروان . وقد عبر المؤرخ البلاذرى عن ذلك بقوله فى كتاب أنساب الأشراف : « وهو أول من تجبّر من الخلفاء » .

* * *

ولى الوليد خلافة الدولة الاسلامية وعمره يزيد على الثلاثين قليلا أو كثيرا ، فمنح الدولة الاسلامية من شبابه الكثير . واستفاد الوليد كثيرا من مجهودات أبيه ، وهو لم ينس أن ينوه بفضله على الدولة منذ اليوم الأول لتوليه الخلافة . فاستفاد من السلام الذى بدأ يسود الدولة بعد أن قضى عبد الملك بن مروان معظم خلافته فى القضاء على الفتن والحروب الداخلية التى كادت تمزق الدولة الاسلامية شر ممزق . كما أنه اقتفى أثر أبيه فى الاصلاح والتعمير ، بل انه اعتمد على الرجال الذين اعتمد عليهم أبوه وعلى الأخص الحجاج بن يوسف الثقفى الذى كان سيفا صارما لبنى مروان . والمعروف ان عبد الملك مهّد للفتوحات الواسعة التى تمت فى عهد ابنه الوليد . وهكذا نرى الوليد يستفيد من مجهودات أبيه فى تعمير الدولة الاسلامية وفى تعريبها وفى نشر نفوذها ، وليس غريبا اذن أن نرى ما تم على يدى الوليد الشاب فى مدة لا تعدو العشر سنوات قد تعجز الدول عن الوصول اليه فى قرون عديدة .

الفصل الثالث

ادارة الدولة وسياستها المالية فى عهد الوليد

أعزّ الاسلام العرب ، ووحد كلمتهم وخلق منهم العظماء فى الحرب والسياسة والادارة . وخرج العرب من شبه جزيرتهم يفتحون البلاد شرقا وغربا وأصبحوا يكونون الأرستقراطية العسكرية فى جميع البلاد التى فتحوها .

ولم يكن الخليفة مسئولا أو محاسبا أمام أى شخص أو أية هيئة . والمعروف أن الخلفاء كانوا يستشيرون فى غالب الأحيان بعض الناس فى بعض القضايا الهامة حتى لا يقعوا فى خطأ أو لكى يظهروا بمظهر البعد عن الاستبداد والتعسف . ولكن الخليفة كان يستطيع أن يقبل هذه الآراء أو يعدلها أو يرفضها . كذلك كان الخليفة يستشير من يشاء ومتى شاء ، ولذلك كان سلطان الخليفة واسعا . وازداد هذا السلطان بعد أن تقرر مبدأ الوراثة فى عهد معاوية بن أبى سفيان ، وبعد أن تأكد هذا المبدأ بعد أن تولى الخلافة مروان بن الحكم ، جدّ الخليفة الوليد . وكان للخليفة وحده حق اختيار ولاة الأمصار والبلدان المفتوحة فهو الذى يعينهم أو يعزلهم ، وهم يحكمون فى البلدان المختلفة باسمه .

ولعل براعة العرب السياسية تجلت فى ادارتهم للبلدان والأقطار

المفتوحة . فقد فتح العرب بلادا راقية فى نظمها متقدمة فى حضارتها فأبقوا على تلك النظم ، ولم يحاولوا أن يزاحموا أهل البلاد المفتوحة فى أراضيهم الزراعية ، أو فى أعمالهم الصناعية والتجارية أو فى وظائفهم ، وانما اكتفى العرب بشغل بعض المناصب الرئيسية ليشرفوا على الادارة بوجه عام . واعتمد العرب على الدخل الكبير الذى كانت تدره البلاد المفتوحة . بل ان مرونة العرب الأوائل تتضح فى أنهم أبقوا فى معظم الأحيان على الأسـماء الأجنبية للوظائف وللتقسيمات الادارية التى وجدوها . وفى الشام التى أصبحت مركز العالم الاسلامى فى خلافة الأمويين تعلق العرب بالمدن وتجمعوا فيها وجعلوها مراكز عسكرية وألحقوا بكل منها جانبا من الريف اعتبروه حوزا للمدينة أو زماما وهذا هو ما عرف بالأجناد . وكان المراد بها ولايات عسكرية ينزلها « جند » . وتقسمت الشام الى أربعة أجناد تبعا للأقاليم البيزنطية الأربعة التى كانت زمن الفتح العربى وهى جند دمشق وجند حمص وجند الأردن وجند فلسطين . وأضاف الخليفة يزيد بن معاوية جندا خامسا هو جند قنسرين الذى سلخه عن حمص وضم اليه أنطاكية ومنبج والجزيرة . وأتى بعد ذلك عبد الملك بن مروان ففصل منطقة الجزيرة وجعلها جندا مسـتقلا . ولكن هيكل الجهاز الحكومى البيزنطى بقى كما هو ، وبقى الموظفون من أهـل البلاد ، ومن الروم الذين لم يغادروا البـلاد ابان الفتح ، فى مناصبهم . ولما كان الشام مقر الحكم الأموى فان نظام « الأجناد » كان من أوكد أسباب قوة الدولة الأموية فضمن لها المحاربين الذين

كانوا مستعدين حين النداء للقضاء على أعداء الدولة فى الداخل وفى الخارج .

أما فى مصر فقد اتبع العرب نظام « الكورة » . ولفظ كورة مشتق من الاسم اليونانى « كورة » ، وكانت الكور هى « الباجركيات » البيزنطية التى كانت مثل المحافظات اليوم أو المديريات ، وكانت الكور مقسمة بدورها الى قرى . ويقال انه كان فى مصر ثمانون « كورة » . ونلاحظ أن العرب احتفظوا فى مصر بحدود « الكور » وأسمائها ، بل انهم احتفظوا بالأسماء البيزنطية للوظائف . فكان على رأس الكورة « صاحب الكورة » ، ونقرأ فى أوراق البردى أن قرة بن شريك والى مصر زمن الوليد ابن عبد الملك (٩٠ — ٩٦ هـ) يرسل كتابا الى بسيل صاحب أشقوه (١) يخبره فيه بأن يرسل التعليمات الخاصة بدفع الجزية الى « جسنطال كورته » والى « موازيت القرى » . وقد استخدم العرب كلمة « جسطال » فى مصر بمعنى الموظف المشرف على مالية الكورة أى مندوب ديوان الخراج والأموال . أما موازيت فقد استعملها العرب بمعنى رؤساء أو مشايخ القرى . ونلاحظ هنا أن كلمة « جسطال » تقابل الكلمة البيزنطية «أوجستاليوس» ، وان كلمة « مازوت » تقابل الكلمة البيزنطية « ميزوتروس » (٢) .

---

(١) كانت أشقوه كورة من كور الصعيد . وهى الآن كوم اشقاو بين أبو تيج وطهطا فى محافظة أسيوط . وقد عثر فيها سنة ١٩٠١م على مجموعة من الأوراق البردية التى القت شعاعا من النور على حكم قرة بن شريك فى مصر .

(٢) انظر : دكتورة سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٢٨ ـ ٢٩ ، وما ذكرته من مراجع .

أما فى العراق وما يليها شرقا فقد جرى العرب فى التقسيم الادارى على أساس الكورة والرستاق ، فكان حوض الدجلة والفرات يضم مالا يقل عن خمس عشرة كورة . وكان الرستاق جزءا من الكورة . وكان الرستاق أو الرساتيق فى بلاد الفرس هى المواضع التى فيها مزارع وقرى .

* * *

أما الأندلس بعد فتحها فقد سار العرب فيها على أساس التقسيم الرومانى القوطى الذى وجدوه ، فكان الأساس الادارى هو المدينة وكانت المدينة فى الأندلس بمعنى « المدينة — الدولة » . City-Skate فى النظام اليونانى القديم . فكانت هناك فى الأندلس أقسام ادارية تسمى مدنا أو تنسب الى مدن . وهذه المدن كانت واسعة لها أحواز فسيحة وفيها مدن كبيرة وقرى وحصون . ولم تكن المدينة فى الأندلس بمعناها فى المشرق أى مجموعة من الأبنية يحددها سورها بل كانت بالمعنى اليونانى الرومانى ، أى نواة لاقليم أو أقاليم كل أهلها يعتبرون من المدينة ، فالاقليم فى الأندلس مدينة تتبعها أرض ، أما فى المشرق فالاقليم أرض تتبعها مدن ، ولم تكن المدن والاقاليم وحدات ادارية فقط وانما كانت وحدات ادارية مالية تؤدى ما عليها من جبايات أو عشور أو ضرائب مختلفة ، مثل الكور فى مصر والعراق ، ومثل الأجناد فى الشام .

والحق ان نظام الادارة والضرائب فى الامبراطورية الاسلامية كان يختلف بين مكان وآخر تبعا للنظام الذى كان موجودا قبل

الاسلام سواء أكان بيزنطيا أم فارسيا أم قوطيا رومانيا . ونلاحظ ان الفقهاء والمؤرخين بعد العصر الأموى حاولوا تعليل اختلاف الضرائب باختلاف الطريقة التى تمت بها الفتوحات الاسلامية فى مختلف البلدان ، أى هل تم فتحها صلحا أو عنوة . ونحن نرجح ان كلام « البلاذرى » فى كتابه « فتوح البلدان » وآراء الامام أبى يوسف فى كتابه « الخراج » ونظريات « الماوردى » فى كتابه « الأحكام السلطانية » وغيرهم من المؤرخين والفقهاء المسلمين القدماء ما هى الا روايات وتعليلات متأخرة .

* * *

وتدلنا النصوص التاريخية على أن سياسة الخلفاء المالية بعد الفتوحات كانت ترمى الى استغلال البلاد المفتوحة وان اختلف بعضهم عن البعض الآخر من حيث درجة الاستغلال اذ بينما نرى بعض الخلفاء أو ولاتهم يشتطون فى جمع الضرائب نرى البعض الآخر يرى أن من مصلحة الراعى أن يقص صوف غنمه وليس من مصلحته أن يسلخها . وحسبنا أن نشير فى هـذه المناسبة الى ما ذكره الماوردى [1] من أن الحجاج « كتب الى عبد الملك بن مروان يستأذنه فى أخذ الفضل من أموال السواد (أى العراق) فمنعه من ذلك وكتب اليه : لا تكن على درهمك المأخوذ أحرص منك على درهمك المتروك وابق لهم لحوما يعقدون بها شحوما » وهذا النص يبين لنا أن سياسة هذا الخليفة كانت ترمى الى عدم

(١) انظر : الاحكام السلطانية ص ١٤٣ (القاهرة ١٢٩٨ هـ) .

تحميل البلاد فوق ما تحتمل كى لا يجف معينها وبالتالى كى لا يؤثر ذلك فى مالية الدولة . ولكن بعض الخلفاء لم يراع هذا المبدأ وراح يبتز كل ما تملك البلاد ، فتذكر المراجع أن الخليفة سليمان ابن عبد الملك (٩٦ — ٩٩ هـ) كتب الى أسامة بن زيد التنوخى متولى خراج مصر « احلب الدرّ حتى ينقطع واحلب الدم حتى ينصرم » (١) .

ولم يكن الخلفاء الأمويون هم الحريصين على جباية الأموال ، بل حرص الخلفاء الراشدون من أول الفتح على تلك الأموال . ولا أدل على ذلك من المكاتبات التى دارت بين الخليفة عمر بن الخطاب وبين عمرو بن العاص بطل فتح مصر وواليها عقب فتحها مباشرة ، فعندما بلغ عمر بن الخطاب أن المقوقس كان يجبى من مصر ستة وعشرين مليون دينار وأن عمرو بن العاص جباها اثنى عشر مليون دينار كتب الخليفة الى عمرو يستبطئه فى الخراج ويطلب منه أن يجبى مثل المقوقس (٢) .

والواقع أن الأمويين كانوا يمتازون بالمرونة فى حكم الدولة العربية وكانوا يقتبسون ما تضطرهم اليه طبيعة البلاد المفتوحة واهتموا بتوفير الجباية مع عدم اغفال عمران البلاد ، وظهر هؤلاء الخلفاء الأمويون بمظهر دينوى ورغم ذلك فانهم لم يبعثوا بأصل

---

(١) انظر : ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٣٣١ (طبعة دار الكتب المصرية الأولى) .

(٢) انظر : ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها (طبعة تورى) ص ١٥٨ — ١٦١ .

من أصول الدين . ولم يكن الخليفة العباسى أكثر تدينا من الخليفة الأموى . ونعرف أن الخليفة عبد الملك بن مروان نشأ فى المدينة واهتم قبل توليه الخلافة اهتماما بالغا بالدراسات الفقهية وان كانت أمور الخلافة وشواغل السياسة قد صرفته عن هذه الدراسات الا أنه كان يحافظ على المظهر الدينى . وكان للفقيه رجاء بن حيوة الكندى منزلة كبيرة عنده . وتحدثنا الروايات أنه قتل رجلا ادعى النبوة دون محمد عليه الصلاة والسلام . أما الوليد بن عبد الملك فان صلته بالدين كانت عميقة وسنرى أنه يعزل هشام بن اسماعيل والى المدينة لأنه كان عنيفا شديدا مع أتقياء المدينة ويولى مكانه ابن عمه عمر بن عبد العزيز الذى كان محببا من العلماء والفقهاء . كذلك كان الوليد يحرص على أن يكون كل انسان قارئا للقرآن (١) .

ولم تكن حكومة الأمويين ، كما صورها دعاة العباسيين ، حكومة طاغية قاسية ، وسنعود الى تفصيل ذلك فى كلامنا عن الحجاج بن يوسف الثقفى فى المشرق ، وعلى قرة بن شريك فى مصر .

وليس أدل على قوة الدعوة العباسية ضد الخلافة الأموية من أن أقباط مصر اشتركوا مع العباسيين فى القضاء على مروان بن محمد آخر خليفة أموى حين التجأ الى مصر أملا فى أن يخفف عنهم العباسيون بعض أعبائهم المالية . ولكن العباسيين لم يفوا

---

(١) راجع : الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ٨ ص ٩٧ ـ ٩٨ .

بوعودهم بعد قيام دولتهم ولم تمض ثلاث سنوات على قيامهم حتى ضوعف الخراج على الأقباط . والواقع أن العباسيين لم يحققوا وعودهم بالعدل والمساواة حتى روى أبو الفرج الأصفهانى فى كتابه الأغانى أن أبا العطار الشاعر قال :

يا ليت جور بنى مروان عاد لنا

يا ليت عدل بنى العباس فى النار

* * *

وكان أكثر الخلفاء الأمويين يقيلون العامل اذا اتضح لهم ظلمه أو اشتطاطه فى تقاضى الخراج والجزية والصدقات . ولم يكن بين هؤلاء الخلفاء وبين رعيتهم حجاب فكان حكم الأمويين لا يزال ديمقراطيا . وقد أعطى الخلفاء الأمويون لعمالهم سلطانا واسعا لادارة ما عهد اليهم به حتى يسرعوا فى البت فى مصالح الناس وعمران البلاد وفى فض الخصومات والمنازعات . ولا أدل على ذلك من أن الوليد بن عبد الملك لما عهد الى عمر بن عبد العزيز بامارة الحجاز قال له عمر : « انك استعملت من كان قبلى فأنا أحب أن لا تأخذنى بعمل أهل العدوان والظلم والجور . فقال له الوليد : اعمل بالحق وان لم ترفع الينا درهما واحدا » وكان يلى المدينة قبل عمر بن عبد العزيز هشام بن اسماعيل الذى وليها نحو أربع سنين حتى سنة ٨٧ هـ (٧٠٦ م) ، وعلم الوليد بن عبد الملك أن هشاما بن اسماعيل كان يسىء الى الناس ويؤذيهم وان عليا ابن الحسين لقى منه أذى شديد ، ولذلك يقول المؤرخ الطبرى أن الوليد كتب بعد عزل هشام الى عمر بن عبد العزيز « أن يقف

هشام بن اسماعيل للناس وكان فيه سيىء الرأى » [1] . كذلك يذكر اليعقوبى [2] : « وولّى الوليد عمر بن عبد العزيز المدينة ، وأمر أن يقف هشام بن اسماعيل للناس ، وكان هشام بن اسماعيل المخزومى قد أساء السيرة وجار فى الأحكام وتحامل على آل رسول الله (ص) » .

أما عمر بن عبد العزيز بن مروان فانه ابن عم الوليد ، كما أن نسبه يتصل بعمر بن الخطاب من جهة أمه ، وعاش فى شبابه بالمدينة واختلط بالتابعين وأئمة الدين . ولما ولى المدينة كان شابا فى الخامسة والعشرين من عمره . ويتضح لنا من المصادر القديمة أن عمر بن عبد العزيز اتخذ لنفسه فى المدينة مجلسا استشاريا يتألف من عشرة من أئمة الفقهاء ؛ فيذكر المؤرخون انه « لما قدم عمر بن عبد العزيز المدينة ونزل دار مروان دخل عليه الناس فسلموا فلما صلى الظهر دعا عشرة من فقهاء المدينة : عروة بن الزبير وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، وأبا بكر بن عبد الرحمن ، وأبا بكر ابن سليمان بن أبى خيثمة ، وسليمان بن يسار ، والقاسم بن محمد ، وسالم بن عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عامر بن ربيعة ، وخارجة بن زيد ، فدخلوا عليه فجلسوا ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : انى انما دعوتكم لأمر تؤجرون عليه وتكونون فيه أعوانا على الحق ، ما أريد أن أقطع أمرا الا برأيكم أو برأى من حضر منكم ، فان

(١) الطبرى : تاريخ . ج ٨ ص ٦١ .
(٢) اليعقوبى : تاريخ . ج ٣ ص ٢٨ .

رأيتم أحدا يتعدّى أو بلغكم عن عامل لى ظلامة فأحرّج الله على من بلغه ذلك الا بلغنى . فخرجوا يجزونه خيرا وافترقوا » [1] .

* * *

وعزل الوليد عمر بن عبد العزيز عن ولاية المدينة فى سنة ٩٣ هـ وقيل ان سبب ذلك ان الحجاج بن يوسف الثقفى شكا الى الوليد ابن عبد الملك من أن المدينة ومكة كانتا تفتحان أبوابهما للاجئين العراقيين . ولم يكن من الوليد الا أن استجاب لرغبة الحجاج بل انه سأله أن يشير عليه بأسماء عاملين ، فأشار الحجاج بعثمان ابن حيان وخالد بن عبد الله القسرى فولى الخليفة خالدا مكة وعثمان المدينة .

ويقال ان سبب عزل الوليد لعمر بن عبد العزيز ان الوليد أراد أن يعزل أخاه سليمان من ولاية العهد وأن يبايع لابنه عبد العزيز وأطاعه كثير من ذوى الرأى ، ولكن عمر بن عبد العزيز أبى أن يخلع رجلا له فى عنقه بيعة فغضب عليه الوليد وكاد يفتك به ثم اكتفى بعزله عن المدينة .

* * *

وكان الوليد لا يقتّر على ولاته ولا يرى بأسا فى أن يراهم فى شىء من الرفاهية . كتب اليه الحجاج أنه أصيب لمحمد بن يوسف خمسون ومائة ألف دينار فان يكن أصابها من حلها فرحمه الله ، وان تكن من خيانة فلا رحمه الله . فكتب اليه الوليد ان محمد بن

---

(١) الطبرى : تاريخ · ج ٨ ص ٦١ ·

يوسف أصاب ذلك المال من تجارة أحللناها له ، وأمره أن يترحم عليه .

* * *

وتوسع الأمويون فى أعطيات وأرزاق عمالهم ، وكان ذلك نتيجة لورود المال الى خزينة الخلافة من البلاد المفتوحة ، فكان رزق (أى مرتب) ابن حجيرة (٦٩ — ٨٣ هـ) من القضاء فى مصر مائتى دينار فى السنة . وكانت الأرزاق والأعطيات فى ازدياد فكان رزق عبد الرحمن بن سالم الجيشانى فى سنة ١٣١ من القضاء فى مصر عشرين دينارا فى الشهر [1] .

* * *

والحق ان نظام الأمويين الادارى والمالى كان استمرارا لنظام الخلفاء الراشدين كما أنه كان متمما لهذا النظام نتيجة للظروف التى وجد فيها ، وهو فى الوقت نفسه ممهد للنظام الادارى والمالى العبّاسى .

---

(١) انظر : الكندى : الولاة والقضاة ص ٣١٧ ، ٣٥٤ (طبعة بيروت ١٩٠٨ م) .

الفصل الرابع

الحجاج سلطان فى المشرق

استعان الوليد بن عبد الملك فى اقرار الأمن فى شرق العالم الاسلامى ، ثم فى توسع الدولة العربية شرقا برجل من أقدر الرجال الذين ظهروا فى تاريخ الدولة العربية ألا وهو الحجاج بن يوسف الثقفى . والحجاج من قبيلة ثقيف من الطائف . ولد حوالى سنة ٤١ هـ ، وكان يعلم الصبيان فى أول حياته ثم دخل الجيش العربى واستطاع أن يكسب رضا الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان فى حملته على مصعب بن الزبير سنة ٧٢ هـ (٦٩١ م) ، وكان مصعب قد تغلب على العراق باسم أخيه عبد الله بن الزبير . وبعد ما فرغ الحجاج من مهمته فى العراق أنفذه الخليفة عبد الملك الى مكة لمحاربة عبد الله بن الزبير الذى كان يطالب بالخلافة منذ استشهاد الحسين بن على رضى الله عنه فى العاشر من المحرم سنة ٦١ هـ (٦٨٠ م) ، واستطاع الحجاج أن يقضى على عبد الله ابن الزبير وحركته فى سنة ٧٣ هـ .

واستعادت الدولة العربية وحدتها وكافأ عبد الملك القائد الظافر بأن عينه أميرا على الحجاز بالاضافة الى اليمن ، واليمامة فى شرق بلاد العرب . وبعد أن أقر الحجاج الأمن والنظام فى هذه

البلاد طوال سنتين دعاه عبد الملك الى تولى أعباء أخطر عمل فى الدولة ، فعينه أميرا على العراق خلفا لبشر بن مروان أخى الخليفة الذى كان قد توفى . ونحن لا نبالغ اذا اعتبرنا ولاية العراق أخطر عمل فى الدولة الأموية ، اذ كان العراق ميدان الحركات المختلفة فى التاريخ الاسلامى حينذاك ولذا كان ينتظر الحجاج فى العراق العمل الشاق للابقاء على وحدة الدولة العربية ، ولحمايتها من التيارات المختلفة التى كانت تضطرم فى هذا البلد .

والحق ان عداوة العراق للشام قد نبتت منذ أن قام النزاع بين على بن أبى طالب وبين معاوية بن أبى سفيان اذ اتخذ على الكوفة فى العراق حاضرة له ، وظهرت العصبية الاقليمية منذ ذلك الحين بين العراق مقر على بن أبى طالب وبين الشام مقر معاوية ابن أبى سفيان . وكان موقف معاوية ومن بعده الخلفاء المروانيين مؤكدا لما أدركه أهل العراق من أن خلافة بنى أمية معناها سيادة الشام على بقية أنحاء الدولة الاسلامية . ولعل هـذه العصبية الاقليمية بين الشام والعراق كانت صورة مكبرة لما كان فى الجاهلية بين الغساسنة والمناذرة . وكان أخطر أعداء الأمويين فى العراق هم العلويون أو الشيعة ، والخوارج . ونحن لا نستطيع أن نحكم تماما على موقف الأمويين تجاه أعدائهم من الخوارج والعلويين ، فهل كانوا يحاربون فى شخصهم عدوا دينيا ؟ أو عدوا دنيويا ؟ أم الاثنين معا ؟ وهل كانوا يعتقدون أن هذه الفرق الخارجة عليهم تناوىء سلطانهم الشخصى أو كانوا يعتقدون أنها خطـر على الاسلام لأنها تفصم وحدته وتبث الانقسام بين صفوف العرب ؟

أو كانوا يعتقدون بأن آراءهم الدينية لا تتفق وتعـاليم الدين الاسلامى الصحيح ؟ لا نظن أننا نستطيع أن نجزم برأى فى هذا الموضوع وذلك بسبب العيوب التى نعرفها فى تدوين التاريخ الاسلامى فى صدر الاسلام .

والواقع أن الخلافة كانت مصدر المنازعات والتفرقة بين العرب بعد الاسلام . وان الناظر الى تاريخ الدولة الاسلامية ليجد أن المشكلة الرئيسية التى دار عليها التاريخ حتى نهـاية العصر العباسى الأول هى مشكلة الحكم . وكان هناك ثلاث وجهات نظر رئيسية بالنسبة للخلافة ، أو ثلاث طبقات كبرى : أولا : طبقة العلويين وهم حزب اليمين الذين قالوا ان الخلافة واجبة على أن تنحصر فى الامام على وذريته . ثانيا : طبقة المعتدلين الذين قالوا ان الخلافة فى قريش بدون تمييز بين بطونها المختلفة . ثالثا : طبقة الخوارج وهم حزب اليسار الذين خالفوا العلويين والمعتـدلين وكانوا يمثلون المبادىء الديموقراطية المتطرفة ويعتقـدون أن الخلافة حق لكل عربى حر ، ومنهم من أدخل على نظريتهم بعض التعديل فشرط الاسلام والعدل بدل العروبة والحرية ولا سيما حين انضم الى صفوفهم كثير من المسلمين من غير العرب فقالوا ان المسلمين يختارون من بينهم الخليفة ولو كان عبدا حبشيا .

وكان تولى الحجاج للعراق موفقا الى أبعد حـد ، اذ كان الحجاج ممتازا فى أساليب الحرب والسياسة ولم يعرف له سيدا سوى الخليفة فأخلص له كل الاخلاص . وكان مكياڤيليا لا يحجم عن أى عمل فى سبيل مصلحة الدولة وفى سبيل الخليفة . وقد

استعمل الحجاج أساليب القمع الشديدة مع فرق الخوارج فأضعفها كما هزم العلويين فى ميدان الكفاح الظاهر فلجأوا بعد ذلك الى الدعوة السرية التى لم تثمر ثمرتها الا بعد زمن طويل . ونجح الحجاج الى حد بعيد فى توطيد الأمن وتنظيم البلاد واخضاع العراق لحكم الأمويين .

ولما ولى الوليد بن عبد الملك الخلافة سار على سياسة أبيه ؛ بل انه جنى ثمار تلك السياسة ، ولم يغفل الوليد فضل الحجاج وجهوده فتمسك به وأطلق يده فى شئون المشرق الذى كان مشكلة المشاكل فى العصر الأموى ، فكان الحجاج سلطانا وسيدا كبيرا لا يقل فى سيادته عن الخليفة الوليد .

ويروى المؤرخ المسعودى أن عبد الملك بن مروان حين جمع أولاده قبل وفاته ليوصيهم وصيته الأخيرة لم يغفل الاشادة الى فضل الحجاج فكان مما قاله « وأكرموا الحجاج فانه الذى وطأ لكم هذا الأمر »(١) .

والواقع أن كلا من عبد الملك بن مروان والوليد كان خليفة فى الغرب بينما كان الحجاج سلطانا فى الشرق ولم يكن فى الامكان أن تستقر الخلافة آنئذ دون استقرار الشرق . واتصف الحجاج بصفات كثيرة جعلته يتغلب على الصعاب التى واجهتـه فكان مخلصا أشد الاخلاص لخليفته عبد الملك ولابنه الوليد من بعده، وكان شجاعا كما كان اداريا حازما ومصلحا ماليا . كذلك امتاز

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ١٥٤ (القاهرة ١٣٤٦ هـ)

بأنه كان موهوبا فى خطبه الارتجالية ذات الأسلوب العربى الرفيع والتى كان لها تأثير كبير على سامعيه . فحين حاصر الحجاج مكة فى قتاله عبد الله بن الزبير ، وحين اضطر الى رمى الكعبة بالمجانيق حيث كان يحتمى ابن الزبير أبرقت السماء وأرعدت ونزلت الصاعقة على جيش الحجاج من الشآميين وقتلت اثنى عشر رجلا من جيشه ، فخاف جند الشام وظنوا أن الله غضب عليهم ورماهم بالصاعقة فهب الحجاج وقال لأصحابه : « أنا ابن تهامة ، وهذه صواعقها ، فما أنكرتها قط ، ولا تجعلوا الوهم يتسرب الى قلوبكم ، فوالله ما وهنت عقيدة أمة الا ذلت . فهذا النصر بين أيديكم ، وهل الصواعق أرهب من الرجال ، اطلبوا الموت توهب لكم الحياة ! » وتصادف أن أصابت الصاعقة أهل مكة فى اليوم التالى فسر بذلك الحجاج واتخذ ذلك فألا حسنا .

أما أشهر خطب الحجاج على الاطلاق فهى خطبته فى الكوفة حين وصلها بعد توليته العراق ، والتى لا تقل شهرة عن خطبة زياد بن أبيه المشهورة « بالبتراء » حين ولى البصرة لمعاوية بن أبى سفيان . اذ سار الحجاج الى العراق فى جيش من أهل الشام ، ولما بلغ القادسية أمر الجيش بالاستراحة وسار هو فى اثنى عشر راكبا الى الكوفة فدخلها وصعد المنبر متلثما وقد جعل قوسه فى كتفه وسيفه الى جانبه ، ولما غص الجامع بأهله كشف اللثام عن وجهه وخطب خطبته النارية المشهورة فى الأدب والتى استهلها ببيت لشاعر قديم :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا   متى أضع العمامة تعرفونى

ثم أردف يقول : « يا أهل الكوفة ! انى لأرى رءوسا قد أينعت وحان قطافها وانى لصاحبها ، وكأنى أنظر الى الدماء بين العمائم واللحى .. » الى آخر ما جاء فى الخطبة من التهديد والوعيد .

وأعلن الحجاج فى خطبته هذه سياسته الحـازمة فى صراحة وأفهم العراقيين أنه سينتهج خطة الحزم وأنه لن تأخذه هوادة فى معاملة من يخرج عن طاعة الأمويين . ولما فرغ الحجاج من الكوفة سار الى البصرة وخطب الناس فيها خطبة لا تختلف فى معنـاها ولا مرماها عن خطبته فى الكوفة . وكان يهدد الخلافة فى المشرق حينئذ ثورات وحروب الخوارج ومن انضم اليهم من الأعاجم ، وكان الخوارج ثوارا على استئثار فريق بالحكم والسيطرة دون فريق ، فحاربوا كل من خالفهم سواء أكان علويا أم أمويا ، وكان معظم الخوارج من تميم وبكر أى من القبائل التى كانت تنزل شرقى شبه جزيرة العرب وصاروا ينادون بأن المسلمين سواء وأنه لا فضل لأحد منهم على الآخر الا بالتقوى وان الامامة تصلح لمن يكون أهلا لها ولو كان عبدا حبشيا ، ولهذا نجد عددا غير قليل من الموالى وخاصة فى ايران ينضمون الى الخوارج . ونحن نعرف أن ظهور الخوارج بدأ فى خلافة على بن أبى طالب وأن اسمهم اشتق من خروجهم عليه وانتهى الأمر فى خلافة علىّ بأن قتله أحد الخوارج . وفى خلافة معاوية بن أبى سفيان بقى الخوارج ثائرين فاستعمل الولاة الشدة فى محاربتهم ، ولكن الشدة كانت تزيد من حماستهم وتعلقهم بمبادئهم فصاروا يؤلفون العصابات ويلقون الرعب فى النفوس . وكانت مراكزهم الرئيسية فى البطائح أى فى

المستنقعات الواسعة فى جنوبى العراق ، وكان اذا أصابتهم الهزيمة توجهوا الى الجبال فى شرقى دجلة . ولم يأل ولاة معاوية على العراق ، وهما المغيرة بن شعبة وزياد بن أبيه ، جهدا فى القضاء على الخوارج . فضعفت شوكة الخوارج بما أبداه زياد بن أبيه من الشدة والقسوة فى معاملتهم والقضاء عليهم . ولما ولى البصرة عبيد الله بن زياد بن أبيه ظن الخوارج أنه سهل لين فتحركوا من جديد ولكن عبيد الله بن زياد استطاع أن يتغلب عليهم .

وكان الخوارج لا يبالون اضطهاد الولاة لهم فكانوا يبثون تعاليمهم سرا وكانوا يمتازون بالشجاعة والايمان العميق بعقائدهم كما اشتهر نساؤهم بالشجاعة أيضا .

وقد كثرت ثورات الخوارج بعد وفاة يزيد بن معاوية وذلك لاضطراب الدولة العربية ثم لانشغال الأمويين بمحاربة عبد الله ابن الزبير ، ولكن الخوارج انقسموا على أنفسهم وأصبحوا فرقا مختلفة وساعد على ذلك أن معظمهم كان من القبائل التى تأصلت فيها العصبية البدوية . وكانت صبغة الخوارج منذ نشأتهم صبغة سياسية فكانوا يبحثون فى الخلافة ومَن يتولاها ولكن بعد وفاة يزيد بن معاوية مزج الخوارج آراءهم السياسية بالأبحاث الدينية فكانوا أشداء فى الدين غير متسامحين وتشدد كثير منهم فى النظر الى مخالفيهم من المسلمين فعدوهم مشركين وكفـارا ، وكانوا لا يتورعون عن ارتكاب أشد أعمال القسوة ضدهم فغدا الناس غير آمنين على أنفسهم وأموالهم وذراريهم .

وكان العراق حين ولى الحجاج فى حالة غليان وهياج اذ كان

يجول ويصول فيه الخوارج ، وكان فيه العلويون المعتدلون منهم والمتطرفون فضلا عن الزبيريين أنصار ابن الزبير . وكان أشد هؤلاء ثورة وغليانا هم الخوارج الذين جعلوا المشرق فى حروب وثورات دائمة وأعملوا السلب والنهب انى توجهوا . والتقت حركة الخوارج فى العراق وفارس بحركة الموالى الذين اعتنقوا الاسلام ولكنهم كانوا يعارضون سيادة العرب . وكان أعنف المحاربين للخوارج قبل قدوم الحجاج ، هو المهلب بن أبى صفرة اذ حاربهم المهلب بالرأى والمكيدة والدهاء كما حاربهم بالسيف . وظل المهلب وبنوه يقاتلون الخوارج تسع عشرة سنة بعضها فى أيام ابن الزبير وباقيها فى خلافة عبد الملك بن مروان وولاية الحجاج على العراق . وحين قدم الحجاج الى العراق فى سنة ٧٥ هـ وضع نصب عينيه اعادة النظام فى معسكرات الكوفة والبصرة حتى يستطيع أن ينهض بأعبائه فى المشرق ولا سيما أن الجند كانوا قد بارحوا معسكر المهلب دون اذن بعد أن تلقوا خبر وفاة بشر بن مروان . فكان أن أكد الحجاج فى خطبته الشهيرة فى الكوفة ضرورة عودة جند المهلب ومما قاله فى خطبته .

« ... الا ان امير المؤمنين امرنى باعطائكم واشخاصكم الى محاربة عدوكم مع المهلب بن أبى صفرة وقد امرتكم بذلك واجلت لكم ثلاثا ، واعطيت الله عهدا ان لا اجد أحدا من بعث المهلب بعدها الا ضربت عنقه » . ثم أمر غلامه أن يقرأ على الجمع كتاب أمير المؤمنين ، فقرأ : « بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله ، عبد الملك أمير المؤمنين الى من بالكوفة من المسلمين . سلام

عليكم » ولكن احدا لم يرد السلام . فصاح الحجاج بالقارىء غاضبا « اسكت يا غلام ! » ثم قال « يسلم عليكم أمير المؤمنين فلا تردوا السلام ! أما والله لاؤدبنكم ادبا سوى هذا الأدب . اقرأ يا غلام الكتاب » ولما بلغ الى السلام لم يبق أحد فى المسجد الا قال « وعلى أمير المؤمنين السلام » وهكذا ساعد الحجاج المهلب على أداء مهمته ، وخرج هو نفسه لمحاربة الخوارج . ولما رأى الحجاج ضعف العراقيين وتثاقلهم عن مقاومة الخوارج سأل عبد الملك أن يمده بجيش من أهل الشام . وبذا كان للحجاج فضل كبير فى تشتيت الخوارج وكسر شوكتهم .

والواقع أن الحجاج لم يأل جهدا فى توطيد سلطان الأمويين فى المشرق وفى اقرار الامن والنظام هناك كما أسلفنا . فما كاد يخمد الفتن فى العراق والمشرق ويكسر من شوكة الخوارج حتى أرسل أعوانه للفتح ومنهم عبد الرحمن بن محمد بن الاشعث الكندى أمير سجستان وكان ابن الأشعث ينتمى الى أسرة ملوك كندة فى العصر الجاهلى . وأراد الحجاج اخضاع زنبيل — وهو لقب ملك كابل — من افغانستان اليوم — الذى أبى أن يؤدى الجزية . وكان معظم رعايا هذا الملك وغيره من ملوك آسيا الوسطى ايرانيين أما الأسر المالكة فكانوا من الأتراك وربما كان الزنابلة ايرانيين أيضا . وأعد الحجاج جيشا كبيرا من البصريين والكوفيين لهذا الغرض وجهزه أحسن تجهيز حتى سمى « جيش الطواويس » وذلك لحسن استعداد الجند وظهورهم بمظهر رائع . وعهد بقيادة هذا الجيش الى عبد الرحمن بن الاشعث

وكان ابن الأشعث يتبع فى فتح البلاد سياسة تقوم على الروية والتريث وعدم التفريط فى أرواح الجند كما تقول المراجع ، ولكن الحجاج عد ذلك منه ضعفا وتراخيا وأمره بالاسراع فى الفتح والتوغل فى أرض الأعداء .

وتأثر ابن الأشعث من ذلك وجمع أمراء جنده واستشارهم فى الأمر بعد أن تأكد من أنهم يبغضون الحجاج بقدر ما يبغضون هذه الحرب فى تلك البلاد الموحشة ، فأظهروا رغبتهم فى مبايعة ابن الاشعث فى الحال على أن يسير بهم الى أوطانهم لقتال الحجاج . وهكذا عقد ابن الاشعث الصلح مع زنبيل وتوجه بجنوده نحو الغرب . وفى الطريق انضمت اليه الحاميات التى فى بلاد فارس ولما وصل الى العراق انضم اليه الكثيرون بحيث أصبحت جموع ابن الاشعث نحو مائة ألف مقاتل . ولم يكتف أصحابه بخلع امرة الحجاج بل ازداد جموحهم وفسروا المسألة بأن الثائر على الحجاج هو الثائر على الخليفة ، وسرعان ما أعلنوا خلعهم عبد الملك . وكان أهل العراق يكرهون الأمويين ويكرهون الحجاج ، وكانوا لا يرغبون فى حرب شاقة فى أرض بعيدة ، ويرحبون بكل فرصة تخولهم العودة الى بلادهم . وذكر البلاذرى فى أنساب الاشراف أنه كان من قولهم : « اننا لن نطيع عدو الله الذى يرغمنا كفرعون على حملة بعيدة ويبقينا بعيدا لا نستطيع أن نرى زوجاتنا وأولادنا وهو الكاسب دوما فان ظفرنا وغنمنا أكل البلاد وحاز المال وان هلكنا تخلص منا » .

ولا شك أن مثل هذا القول يبين كيف استسلم العراقيون لحياة الدعة والكسل وابتعدوا عن حياة الجهاد . وقد بايعوا كلهم ابن الأشعث على أن ينحى الحجاج وكان أكثرهم حماسة اليمنيون من أهل الكوفة الذين ينتمى اليهم ابن الأشعث . والواقع أن فتنة ابن الأشعث أصبحت فى قوة تيار المحيط وكما يظهر من المراجع القديمة أصبح ابن الأشعث منقادا فى هذه الفتنة أكثر منه قائدا بعدما أشعل من حماسة فى الثائرين ولو أراد أن يوقف هذا التيار لما استطاع اذ كان الثائرون مثلهم « مثل السيل المنحدر من عل الذى لا يستطاع رده » ولا أدل على قوة هذا التيار من أن الحجاج نفسه باصراره وقوته واخلاصه وعزمه هزم أمامهم فى بداية الأمر واحتل الثوار البصرة ؛ ولكن الحجاج استطاع بعد ذلك أن يحتفظ بسلطانه على الضواحى ، ومن هناك استطاع أن يرد الثوار على أعقابهم فانقلبوا قاصدين الكوفة . ولا أدل على قوة تلك الفتنة من اضطراب الخلافة الأموية نفسها ، اذ اضطرب عبد الملك واضطر أن ينجد الحجاج بالجنود الشامية بقيادة ابنه عبد الله وأخيه محمد ، بل ان عبد الملك عهد الى أخيه وابنه أن يفاوضا ابن الأشعث أولا وأن يعرضا عليه حتى عزل الحجاج ان هو خضع . ولكن ابن الأشعث ومعه جنوده لم يخضعوا وأصروا على عدم اظهار الطاعة للخليفة ، ويذكر الطبرى أن محمد بن مروان وعبد الله بن عبد الملك رجعا الى الحجاج « فقالا : شأنك بعسكرك فاعمل برأيك فانا قد أمرنا أن نسمع لك ونطيع فقال : قد قلت

لكما انه لا يراد بهذا الأمر غيركما ثم قال : انما أقاتل لكما وانما سلطاني سلطانكما . فكانا اذا لقياه سلما عليه بالامرة »[1] .

واستطاع الحجاج بعد جهد أن ينتصر على ثوار ابن الأشعث، وفرّ ابن الأشعث نفسه الى الشرق ولكن أعوان الحجاج تبعوه وأرسلت رأس ابن الأشعث للحجاج .

وكانت فتنة ابن الأشعث تمثل روح السخط من جانب الشيعة والخوارج والموالى ضد الأمويين . وظهر فى هذه الفتنة كره القبائل العراقية للحرب فى البلاد النائية كذلك اشترك القراء فى الفتنة لاعلان الثورة ضد الحكام الأمويين ، وكان القراء أو فريق المتدينين يؤكدون على المظاهر الدينية وعلى الجانب الانتخابى فى الخلافة . وكذلك تجلت فى هذه الفتنة محاولة العراقيين رفع نير جند الشام عنهم أولئكم الذين أبقاهم الحجاج فى العراق ليقاوم أعداءه فى الداخل فكانت هذه الفتنة مظهرا من مظاهر النزاع بين عرب العراق وعرب الشام .

* * *

والحق ان الحجاج كان شديد الاخلاص للدولة العربية . ولم يكن الحجاج رجل حرب فقط كما ذكرنا بل كانت له اصلاحات عمرانية مختلفة التفت اليها بوجه خاص بعد أن نجح فى القضاء على الفتن والثورات فى العراق . ومن أهم هذه الاصلاحات والانشاءات تشييد مدينة على ضفة دجلة الغربية سنة ٨٣ هـ

---

(١) الطبرى : تاريخ : ج ٨ ص ١٦ .

(٧٠٢ م) سماها مدينة « واسط » ، لتوسطها بين البصرة والكوفة اللتين كانتا فى ثورة دائمة ، وجعلها مقرا لحكمه وأسكن أهل الشام فيها ، وكان الحجاج يثق بجند الشام ثقة كبيرة ويعتمد عليهم فى اقماع الفتن والثورات واخضاع البلاد . وتعلل الحجاج بأنه أراد بنقل جند الشام الى واسط أن يمنعهم من اساءة معاملة السكان فى ربوع الكوفة والبصرة . ولا شك أن السبب الحقيقى هو رغبته فى عزل جند الشام عن العراقيين وذلك ليكونوا أداة طيعة بين يديه . وكان يسكن واسط بالاضافة الى الجند العربى الشامى اتراك ما وراء النهر الذين قدموا البصرة أسرى حرب أو منفيين فى أغلب الأحوال أو من تلقاء أنفسهم أحيانا وبعد وفاة الحجاج سمح للآراميين والفرس بالاستقرار هناك . ولا تزال آثار واسط موجودة للآن فى مدينة « الحىّ » فى العراق .

واستطاع الحجاج فى عهد الوليد بن عبد الملك أن يجنى ثمار العمل الشاق الذى قام به فى عهد عبد الملك ، ذلك لأن الوليد كان يثق بالحجاج ثقة تامة وفضلا عن ذلك فانه كان يشعر بأنه مدين للحجاج بالشىء الكثير بعد أن نصره فى مسألة الخلافة على عمّه عبد العزيز بن مروان . وكان الوليد يقره على من يقترحه من نوابه ويثبت كل من يعينهم من موظفيه . وبينما كان الخليفة عبد الملك يظهر سيادته على الحجاج برغم خدماته العديدة ، نرى الوليد يطلق يده ويستشيره فى رغباته . ومرّ بنا كيف استطاع الحجاج أن يعزل عمر بن عبد العزيز عن ولاية المدينة بعد أن أصبح الحجاز ملجئا للسياسيين العراقيين .

واستطاع الحجاج فى عهد عبد الملك وفى عهد الوليد أن يوطد الأمن وأن ينظم البلاد فهدأ المشرق بعد تلك الثورات والاضطرابات التى أشرنا اليها وتمكن الحجاج من أن يرسل جيوشا للغزو والتوسع فى الشرق كما سنرى وكانت له اليد الطولى فى فتح السند والهند وبلاد ما وراء النهر حتى حدود الصين على يد القواد الذين كان يرسلهم ويمدهم بالمال والسلاح والرجال فضلا عما يزودهم به من آراء وارشادات . وقد وجه الحجاج همته الى العمل على انعاش البلاد التى أنهكتها الحروب فاهتم باصلاح القنوات التى تخرج من دجلة والفرات وأعاد فتح القنوات ، أو الأقنية القديمة المردومة وشق أقنية جديدة كما اهتم باصلاح السدود وتجفيف المستنقعات واحياء الأرض الموات أو الأرض البور .

ونسترعى النظر الى أن من مشكلات العراق وجود الفيضانات الخطرة لنهرى دجلة والفرات ، وكانت تنشأ عن الفيضانات ما تسميه المراجع القديمة « البثوق » وخاصة فى جنوب العراق ، أى انسياب مياه النهر من مجراه ، أو انكسار سدة النهر أو ساحله ، مما يتسبب عنه ملء الأراضى المجاورة لهذه الانكسارات بالمياه الضحلة وحدوث المستنقعات ، التى تسميها المراجع العربية باسم البطائح . وعنى الأمويون بسد هذه البثوق « واستخراج بعض الأراضى » ، أى استصلاح بعض الأراضى التى كانت تغمرها المياه . ويذكر البلاذرى أن البثوق انبثقت أيام الحجاج « فكتب الحجاج الى الوليد بن عبد الملك يعلمه أنه

قدر لسدها ثلاثة آلاف ألف درهم فاستكثرها الوليد فقال له مسلمة بن عبد الملك : أنا أنفق عليها على أن تقطعنى الأرضين المنخفضة التى يبقى فيها الماء بعد انفاق ثلاثة آلاف ألف درهم يتولى انفاقها ثقتك ونصيحك الحجاج فأجابه الى ذلك فحصلت له أرضون من طساسيج[1] متصلة »[2] .

ويجدر بنا الاشارة الى أن « واسط » مدينة الحجاج كانت فى وسط الأراضى المستنقعة الرئيسية .

ولا شك أن الحروب والثورات أنهكت العراق كثيرا ولكن الحجاج لم يغفل عن الاصلاح ولم يحجم أبدا عن مواجهة المشاكل المختلفة فى جميع النواحى الادارية والمالية .

وكانت مشكلة المشاكل التى واجهها الحجاج هى هجرة الفلاحين من الأعاجم — الذين كانوا يعرفون أحيانا باسم الانباط — من البطائح والقرى الى البصرة والمدن الكبيرة . وأضرت هذه الهجرة بالزراعة بصورة عامة اذ حرمت الأرض الزراعية من كثير من الأيدى العاملة وزادت الأعباء على من ظل فى القرى من الفلاحين . وكانت هذه الأعباء تدفعهم بالتالى الى مغادرة أراضيهم أو تحمل حياة مضنية شاقة . وكان هذا من الأسباب التى أدت الى نقص الدخل العام ، كما أدت الى استعمال أساليب قاسية فى الجباية ظلت حتى العصر العباسى وأشار اليها الامام أبو يوسف

---

(١) الطساسيج : جمع طسوج وهو المنطقة الزراعية .

(٢) انظر : البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣٠٢ (الطبعة الأولى بالقاهرة ١٣١٩ هـ ـ ١٩٠١ م) .

فى كتابه المعروف باسم كتاب « الخراج » الذى قدمه الى الخليفة هارون الرشيد . ووصلت هذه المشاكل الى حد خطر فى امارة الحجاج على المشرق ولكننا نرى الحجاج صاحب اليد الحديدية والعزيمة الصادقة يأمر بارجاع الفلاحين الى قراهم ، بل انه أمر أن يختم على يد كل منهم اسم قريته ليعاد اليها ويقال ان الحجاج حظر على الفلاحين قتل البقر كى يستخدمه الفلاحون فى الفلاحة . ومع ذلك فان عمل الحجاج هذا استلزم جهودا كبيرة لتطبيقه وذلك لصعوبة تطبيقه أحيانا اذ تغيرت بعض القرى فغمر بعضها بالمياه وصار بطائح ، وانقطع عن البعض الارواء ، هذا بالاضافة الى تذمر الفلاحين . ولكن الحجاج واجه كل هذه الصعوبات بعزيمة لا تفل وصمم دائما على أن يتبع القول العمل

وهناك مشكلة رئيسية واجهت الحجاج لم تكن أقل خطرا من المشكلة السابقة ، تلك هى مشكلة الجزية والخراج . ذلك ان عمر ابن الخطاب اتبع بعد الفتوحات الاسلامية سياسة عدم تقسيم الاراضى بين الفاتحين فى العراق والشـام ومصر لأنه لم يرد أن يشغل جنده بالارض والزرع بينما الجهاد يناديهم فى كل مكان ، كما ان العرب فى جملتهم لم يكونوا أمة زراعية . ومن جهة أخرى رأى عمر بن الخطاب الا يثير عليه سخط أهل البلاد المفتوحة حتى يعاونوه على تثبيت سلطان العرب . ولعل أبلغ مثل يرينا سياسة عمر ازاء الأراضى المفتوحة من حيث عدم تقسيمها بين الفاتحين ذلك الكتاب الذى بعث به الى سـعد بن أبى وقاص حين فتح العراق يقول فيه « أما بعد فقد بلغنى كتابك تذكر فيه ان الناس

سألوك أن تقسم بينهم مغانمهم وما أفاء الله عليهم ، فاذا أتاك كتابى هذا فانظر ما أجلب الناس عليك به الى المعسكر من كراع [1] ومال فاقسمه بين من حضر من المسلمين واترك الأرضين والأنهار لعمالها ليكون ذلك فى اعطيات المسلمين فانك ان قسمتها بين من حضر لم يكن لمن بعدهم شيء [2] » .

فالفكرة الاساسية الاولى فى حكومة الامبراطورية العربية كانت تنطوى على أن تكون الدولة العربية حربية تديرها الاستقراطية العربية وتقوم بأودها الشعوب المحكومة من أهل الذمة الذين يحميهم العرب والذين يقومون فى مقابل ذلك بالعمل وتوفير أسباب العيش والراحة للأرستقراطية العربية . وكانت الضريبة الأساسية التى يدفعها أهل الذمة هى ضريبة الأرض التى عرفت بالخراج ، وضريبة الرأس التى عرفت بالجزية . وكانت ضريبتا الخراج والجزية هما عماد الخزينة المركزية فى الامبراطورية العربية . وينبغى ملاحظة أننا نجد فى المراجع القديمة خلطا بين هاتين الضريبتين فأحيانا تعنى الجزية ضريبة الرأس وضريبة الأرض معا كما أن الخراج كان يقصد به أحيانا الضريبة العقارية وجزية الرءوس أى أن الاصطلاحين كان لهما فى البداية فى معظم الأحيان معنى واحد هو الضريبة

---

(١) الكراع : اسم يطلق على الخيل والبغال والحمير .

(٢) انظر : ابو يوسف فى كتاب الخراج ص ١٣ ـ ١٤ (بولاق ١٣٠٢ هـ) ، يحيى بن آدم القرشى : كتاب الخراج ص ١٣ (ليدن ١٨٩٥ ـ ١٨٩٦) ، والبلاذرى فتوح البلدان ص ٢٦٥ ـ ٢٦٦ (ليدن ١٨٦٦ م) .

بالمدلول العام . والواقع أن التفرقة بين الجزية كضريبة على الشخص والخراج كضريبة على الأرض لم تتضح الا منذ ولاية الحجاج على المشرق أو قبل ذلك بقليل .

ونلاحظ أيضا أنه وجدت أراضى امتلكها العرب منذ بداية الفتح اذ أن حكومة العرب استولت على الأراضى التى كانت ملكا خاصا للأكاسرة فى الشرق وللأباطرة فى الغرب ، أو التى هرب أهلها أو ماتوا زمن الفتح ، وكانت تعرف هذه الأرض فى المشرق باسم أرض الصوافى . فيروى اليعقوبى أن خراج العراق وما يضاف اليه مما كان فى مملكة الفرس استقر فى أيام معاوية على ستمائة وخمسة وخمسين مليون درهم « بعد أن أخرج معاوية من كل بلد ما كانت ملوك الفرس تستصفيه لأنفسها من الضياع العامرة وجعله صافية لنفسه فأقطعه جماعة من أهل بيته»[١] كذلك أشار البلاذرى الى بعض أراضى البطيحة التى استخرجها مصعب بن الزبير لنفسه والى العراق من قبل عبد الله بن الزبير ، ثم انتقلت الى الخليفة عبد الملك بن مروان بعد تغلبه على مصعب فى العراق « فأقطعها عبد الملك الناس »[٢] .

وقد مرّ بنا أن الوليد بن عبد الملك أقطع مسلمة بن عبد الملك أراضى واسعة فى السواد أى فى جنوب العراق[٣] . وفى مصر أقطع الخليفة عمر بن الخطاب ابن سندر ، أحد الصحابة ، منية

---

(١) اليعقوبى : تاريخ ج ٢ ص ٢٠٨ .
(٢) البلاذرى : انساب الاشراف ج ٥ ص ٢٨١ (القدس ١٩٣٦).
(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣٠٢ (طبع القاهرة) .

الأصبغ (1) بمصر فحاز لنفسه منها ألف فدان ولم تزل له الى أن مات واشتراها بعد ذلك الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان من ورثته وكانت أفضل وأقدم قطيعة بمصر (2) . أي أن حكومة العرب كانت تتبع فى الانتفاع بالضياع والصوافى التى استولت عليها طريقة الاقطاع . وزادت هذه الضياع التابعة للحكومة زيادة كبيرة بما أضيف اليها من الموات أو الأرض المهجورة أو أرض البطائح فى السواد أثناء الحكم العربى نفسه .

ولم يكن المسلمون يدفعـون خـراجا عن الأراضى التى امتلكوها انما كانوا يدفعون عنها العشر زكاة كما يزكى المسلم عن أنواع الأموال الأخرى . كذلك كان من يحيى الأرض الموات يدفع العشر ولا يؤدى عنها خراجا : وما لبث العرب أن أقبلوا على شراء الأرض الخراجية ولكنهم كانوا يدفعون عنها العشر بعـد شرائها بدلا من الخراج .

ونلاحظ أن الدولة الأموية كانت تمر بمرحلة تطور هامة فى النواحى المالية والاقتصادية وذلك لاسلام عدد كبير من أهـل الذمة ولتنافس العرب بعد عهد عمر بن الخطاب فى شراء الأرض الخراجية ، فكان يتبع ذلك اعفاء المسلمين الجدد من الجـزية وتحويل أرضهم الخراجيـة الى أرض عشرية ، كما أن امتلاك

---

(1) منية الأصبغ كانت شمال القاهرة قرب ضاحية الدمرداش .

(2) ابن عبد الحكم: فتوح مصر واخبارها.ص ١٣٧ ـ ١٣٨ (طبعة تورى ١٩٢٢) ، المقريزى : الخطط ج ١ ص ٩٦ (بولاق ١٢٧٠ هـ).

العرب للأرض الخراجية حوّل تلك الأرض الى أرض عشرية . ولا شك أن هذا التصرف كان سليما من الوجهة النظرية ولكن من الوجهة العملية كان من الصعب تطبيقه اذ أدت هذه السياسة الى خلخلة وارتباك ميزانية الدولة والى نقصان ايراداتها نقصانا كبيرا . ولم يكن من المعقول أن يواجه النقص فى خزانة الدولة ، ازدياد حاجة الدولة الى المال فى العصر الأموى وذلك للسيطرة على الشئون الداخلية ولتشعب الادارة وزيادة نفقاتها ولارسال الحروب وحملات الفتح وللانفاق على بلاط فى مجتمع حضرى متطور فى الشام .

وكان الحجاج بن يوسف الثقفى أول من حاول معالجة هذه المشاكل الصعبة بطريقة عملية جدية ولا سيما أنْ جاءه النذير من عماله بأن « الخراج قد انكسر وان أهل الذمة قد أسلموا ولحقوا بالامصار »[1] ولذا نرى الحجاج يحاول جهده حل المسألة المالية وتثبيت دخل الدولة فى المشرق ، ولم يراع فى سياسته رغبات العرب أو الموالى وانما اهتم بمصلحة الدولة العربية وقوتها ، ففرض الخراج على العرب الذين امتلكوا أراضى خراجية ، وفرض الجزية والخراج على الأعاجم الذين أسلموا وبقوا فى قراهم . وقد رأينا أنه لما حاول الأعاجم هجر قراهم الى المدن فرارا من سياسة الحجاج المالية أمر بارجاعهم الى قراهم . وسببت سياسة الحجاج ضجة بين الموالى والعرب على السواء ونادوا بأنها منافية

---

(١) الطبرى : تاريخ ج ٨ ص ٣٥ .

للاسلام ، ولكن الحجاج لم يأبه لكلامهم وأخذ فى تنفيذ سياسته التى ما لبثت أن طبقت فى جميع أنحاء العالم العربى .

والواقع أن هذه العمليـة يمكن الدفاع عنها من وجهـة النظر المالية والاقتصادية لأن دخـل الحكومة وماليتها يجب أن يكونا مسـتقلين الى حـد كبير عن الظـروف الخاصـة غير المنظورة كاعتناق الأشخاص الدين الاسلامى أو شراء العـرب للأراضى الخراجية وما الى ذلك مما يصعب على الحكومة تقدير أثره فى ماليتها .

* * *

ولم تقف اصلاحات الحجاج وأعماله عند تثبيت مالية الدولة وتشجيع الزراعة والعناية بها بل ان الحجاج طمأن التجار وذلك باصلاح النقد ونظام الموازين والمكاييل والمقاييس ، كما عنى بالتجارة الداخلية والخارجية عناية كبيرة .

وتذكر الروايات أن الحجاج عنى بعلامات الاعجام فى الخط العربى للتمييز بين الحروف المتشابهة فى الرسم ، كالباء والتـاء والثاء وكالدال والذال ، كما عنى بنقل صور الحركات — أى الضم والفتح والكسر — عن السريانية ، وذلك لمعالجة اللحن الذى انتشر بين القراء .

وتذهب الروايات الى أن الحجاج عنى باعجام القرآن ، أى بوضع الشكل والنقط لأن عدم وجود الشكل والنقط كان يعطى المجال بمرور الزمن للاختلافات فى القراءة وخاصة فى حالة المعلوم والمبنى للمجهول ، وفى حالة الحروف التى لا تميزها النقـط .

ولعل من جملة الأسباب التى حملته على ذلك سببا سياسيا . لأن حفظة القرآن كانوا منذ أيام عثمان بن عفان على استعداد لاثارة مشاعر الناس ضد الحكومة .

وشايع جرير الشاعر ، الحجاج فترة من الزمن ، واستخدمه الحجاج للاشادة بمجده والكشف عن خصوم الحكم الأموى . وكان مثله فى ذلك مثل الخليفة عبد الملك بن مروان الذى اصطنع الشاعر النصرانى الأخطل فى نضاله ضد معارضيه . وعلى أية حال فقد كان جرير والفرزدق والأخطل ثالوث الشعر فى العصر الأموى . وبقى الحجاج عشرين سنة فى عمله فى العراق والمشرق ثم توفى كما تمنى ، أى قبل وفاة الخليفة الوليد بن عبد الملك (سنة ٩٥ هـ = ٧١٤ م) وكان عمره حين وفاته ثلاثة وخمسين أو أربعة وخمسين عاما .

وليس من شك فى أن الحجاج ترك ذكرا قليل المثال فى التاريخ الاسلامى . وقد صوره المؤرخون الذين كتبوا فى ظل الحكم العباسى مستبدا طاغية ، وسماه خصومه العراقيون «عبد ثقيف» . والواقع أن الظروف كانت أكبر دافع للحجاج على الحرب وسفك الدماء والتدخل فى الشئون الادارية والمالية . ولا شك أن سياسة الحجاج كانت من مصلحة العراق والدولة العربية كما أنها كانت أكبر مثبت لأركان الحكم الأموى . وليس من شك فى أن العباسيين كانوا يحسدون الأمويين على ولاتهم أمثال زياد بن أبيه والحجاج بن يوسف الثقفى . وقد خدم الحجاج عبد الملك ابن مروان ومن بعده الوليد باخلاص تام جعله يكسب ثقتهما

فمنحاه سلطانا عظيما تمتع به طول حياته دون أن يأبه للرأى العام . وكان الحجاج يعتنق مبدأ اجبار أهل العراق على القيام بما يريده منهم دون أن يجرب استعمال أساليب اللين فى اقناع الناس بصواب رأيه . وما من شك فى أن الوسائل الصارمة التى اتبعها الحجاج أقرت النظام فى المشرق ، ولم تخن الحجاج شجاعته فى أى موقف من المواقف ، ولم يصل الحجاج الى القمة الا بعد أن عاش حياة كلها عمل فى سبيل خدمة الدولة الأموية ، وفى سبيل نصرة العروبة . ولم يكن الحجاج بالرجل المستغل أو الذى يعمل لخدمة أغراضه الشخصية أو لاثراء نفسه فلم يترك أمير المشرق العظيم وراءه غير القرآن وسلاحه وبضع مئين من العملة الفضية. وكأن سياسة الدولة العربية فى هذا العهد كانت صورة من سياسة الحجاج فقد كتب اليه الوليد يطلب منه أن يكتب اليه بسيرته فكتب اليه : « انى أيقظت رأيى وأنمت هواى ، وأدنيت السيد المطاع فى قومه . ووليت الحرب الحازم فى أمره ، وقلدت الخراج الموفر لأمانته ، وقسمت لكل خصم من نفسى قسما أعطيته حظا من لطيف عنايتى ونظرى ، وصرفت سيفى الى النطف المسىء ، والثواب الى المحسن البرىء ، فخاف المريب صولة العقاب ، وتمسك المحسن بحظه من الثواب » .

الفصل الخامس

قرة بن شريك فى ضوء أوراق البردى

قبل استعمال الورق الحالى صنع المصريون القدماء الورق من نبات البردى الذى كان ينمو بكثرة فى الفيوم وفى مستنقعات الدلتا . وطالما كان الناس يستعملون البردى للكتابة كانوا يعتمدون على مصر التى كانت تكاد تحتكر هذه الصناعة ، وقد انتهت صناعة اعداد ورق البردى للكتابة فى مصر حوالى القرن العاشر الميلادى أى الرابع الهجرى .

واتجهت العناية الى دراسة الأوراق البردية الاسلامية منذ عثر بعض الفلاحين فى مصر فى أوائل القرن التاسع عشر سنة ١٨٢٤ م على جرة صغيرة فيها ورقتان من البردى مكتوبتان باللغة العربية . وفى النصف الثانى من القرن الماضى ازداد العثور — ولاسيما فى اقليم الفيوم — على الأوراق البردية المكتوبة باليونانية والقبطية والعربية . وبيع معظم هذه الأوراق الى الاوربيين فتفرق فى المكتبات والمتاحف والمجموعات الاثرية ولا سيما فى ڤينا وبرلين ولندن وباريس ، ولكن دار الكتب المصرية لا تزال تحتفظ بمجموعة ثمينة من أوراق البردى العربية التى كشفت فى الفيوم أو فى غيرها من البلاد المصرية مثل اخميم وسقارة والاشمونين

وميت رهينة واهناسـية وادفو . ومن الوثائق البردية النفيسة ما عثر عليه فى قرية كوم اشقاو التى كانت تعرف فى العصر اليونانى باسم افروديتو ، ومعظمها محفوظ الآن فى المتحف البريطانى وفى متحف المعهد الشرقى بجامعة شـيكاغو كما تحتفظ دار الكتب المصرية بمجموعة منها .

وتكشف اوراق كوم اشقاو البردية عن بيانات طيبة عن المجتمع المصرى والادارة والنظام المالى فى عهد قرة بن شريك الذى كان واليا على مصر من قبل الخليفة الوليد بن عبد الملك بين سنتى ٩٠و ٩٦ هـ (٧٠٩ — ٧١٥ م) . والمعروف أنه بعد وفاة أمير مصر عبد العزيز بن مروان ، تولى امارة مصر عبد الله بن عبد الملك بن مروان فى جمادى الآخرة سنة ٨٦ هـ . ولم تمض بضعة أشهر حتى توفى الخليفة عبد الملك بن مروان وبويع بعده بالخلافة ابنه الوليد بن عبد الملك ، فأقر الوليد ، اخاه عبد الله على ولاية مصر حتى سنة ٩٠ هـ . ونعرف من المصادر القديمة ان عبد الله زاد الخراج عـلى المصريين ، وتكاتفت الطبيعة مع سياسة عبد الله ، اذ زاد الغلاء فى مصر على اثر انخفاض النيل فى سنة ٨٧ هـ مما سبب أزمة مالية عامة فى مصر ، فأسلم نفر من المصريين ليتخلص من الأعباء المالية . ومن ناحية أخرى قامت حركة مقاومة سلبية ضد سياسة هذا الوالى المالية من جانب الذين ضايقتهم الأعباء المالية والذين لم يريدوا تغيير دينهم بسبب تلك الأعباء . وكان هناك مخرج للاقباط فى مصر من الأعباء المالية وهو الاعتصام بالأديرة ، فالرهبنة والديرية كانت منتشرة فى مصر منذ الحكم الرومانى فيها ، وكانت الأديرة معفاة

من الضرائب فى عهد الرومان والبيزنطيين وظلت كذلك بعد فتح العرب لمصر . لكن والى مصر عبد العزيز بن مروان حين احتاج الى المال ليسد العجز فى ميزانية الدولة لجأ الى الأديرة التى أصبحت تملك ثروات ضخمة ففرض على رهبانها جزية سنوية . واذ لم يجد الاقباط لهم ملجأ يحتمون فيه من دفع الضرائب بعد فرض الضرائب على الأديرة والرهبان ، نرى بعضهم فى ولاية عبد الله بن عبد الملك يلجأ الى المقاومة السلبية وذلك بالهجرة من منطقة الى أخرى فى مصر حتى يتعذر على الحكومة ضبط عملية جباية الاموال . لكن حكومة عبد الله بن عبد الملك تشددت فى مراقبة هذه الحركة التى كانت تثير الفوضى فى البلاد فضلا عن تأثيرها فى مالية الدولة . فنرى عبد الله بن عبد الملك يأمر بوسم الغرباء الذين وجدوا فى الأقاليم المختلفة ، على أيديهم وجباههم وارسالهم الى مواضع مختلفة .

وولى مصر بعد عزل عبد الله بن عبد الملك فى سنة ٩٠ هـ قرة بن شريك العبسى ، وظل على ولايتها الى ان مات بها فى سنة ٩٦ هـ . ويذكر المؤرخ المصرى المسيحى ساويرس بن المقفع أسقف مدينة الاشمونين فى كتابه « سير الآباء البطاركة » الذى كتبه فى أواخر القرن الرابع الهجرى وأواخر العاشر الميلادى ، أن قرة أنزل بلايا عظيمة بالمسلمين والنصارى على السواء . كما كتب المؤرخ المصرى المقريزى الذى توفى فى القرن التاسع الهجرى والخامس عشر الميلادى ، أن قرة «أنزل بالنصارى شدائد لم يبتلوا قبلها بمثلها ». وتكثر النصوص والروايات من التحدث عن ظلم قرة بن شريك

وعسفه ، فنرى المؤرخ المصرى أبا المحاسن الذى توفى فى القرن التاسع الهجرى بعد المقريزى ، يذكر فى كتابه « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » ان قرة كان « سيىء التدبير خبيثا ظالما غشوما فاسقا متهتكا » . وتذكر الروايات أن عمر بن العزيز ذكر عنده ظلم الحجاج وغيره من ولاة الأمصار أيام الوليد بن عبد الملك فقال : « الحجاج بالعراق ! والوليد بالشام ! وقرة بن شريك بمصر ! وعثمان بالمدينة ! وخالد بمكة ! اللهم قد امتلأت الدنيا ظلما وجورا فأرح الناس » .

ولكن أوراق بردى كوم اشقاو التى عثر عليها فى سنة ١٩٠١ تشهد بأن هذه الروايات غير صحيحة فى مجملها فان قرة لم يكن بالرجل الظالم أو الفاسق . ولاشك أن أوراق البردى التى ترجع الى ولايته لتصحح الكثير من أخطاء المؤرخين المتأخرين وتوضح أشياء كثيرة من العسير علينا أن نصل اليها وسط الآراء المتضاربة للمؤرخين والفقهاء المسلمين . وأنه لمن حسن الحظ أن نعثر على تلك الوثائق البردية التى يرجع معظمها الى مصر أثناء خلافة الوليد بن عبد الملك ، اذ أن لهذه الوثائق شأنا كبيرا فى دراسة الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والمالية . فمن بينها أوراق بردية تتعلق نصوصها بالجزية والخراج واسناد المناصب وأنظمة الادارة وطرق التجارة وبناء العمائر والمساجد وانشاء الأساطيل وأثمان البضائع والبيوت والأرض فضلا عن عقود الزواج والبيع والشراء وما الى ذلك من المكاتبات الخاصة التى تكشف عن بعض العادات والنظم الاجتماعية .

ونحن نعرف من المراجع القديمة أن الجزية كانت من أهم الضرائب فى مصر بعد فتح العرب لها ، وقد أشار المؤرخون الى المعاهدة التى تمت بين العرب وأهل مصر فقالوا « فاجتمعوا على عهد بينهم واصطلحوا على أن يفرض على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها[1] من القبط ديناران عن كل نفس شريفهم ووضيعهم ومن بلغ الحلم منهم، ليس على الشيخ الفانى ولا على الصغير الذى لم يبلغ الحلم ولا على النساء شيء .... وأحصوا عدد القبط يومئذ خاصة من بلغ منهم الجزية وفرض عليهم الديناران ، رفع ذلك عرفاؤهم [1] بالأيمان المؤكدة » [2] . ويذكر المؤرخ البلاذرى فى رواية له عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه وضع على كل حالم ديناران جزية الا أن يكون فقيرا . ولا نفهم من هذا النص اذا كان الفقراء قد أعفوا من الجزية أم قدرت عليهم جزية أقل من غيرهم . أى أنه اذا استثنينا النص الذى ذكره البلاذرى وهو أن الفقراء لم يدفعوا الدينارين نفهم مما ذكره المؤرخون أن المصريين تساووا فى دفع الجزية . ولكن لو كان العرب عاملوا أهل الذمة فى مصر على هذا الأساس لثار عليهم المصريون من أول فتح ولكان العرب قد عادوا بذلك الى تعسف الحكم الرومانى والبيزنطى الذى كان يعفى

---

(١) أعلاها أى الوجه القبلى وأسفلها أى الوجه البحرى .

(٢) العريف : العالم بالشيء ومن يعرف أصحابه ، والجمع عرفاء.

(٣) انظر : ابن عبد الحكم : فتوح مصر (طبعة المعهد الفرنسى بالقاهرة) ص ٦٣ ــ ٦٤ ، المقريزى : المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار ج ١ ص ٢٩٢ ــ ٢٩٣ (طبعة بولاق سنة ١٢٧٠ هـ).

ذوى الثراء والنفوذ من الأعباء المالية أو من أغلبها ، بينما يقع عبؤها على الطبقات الفقيرة من السكان . كما أن هذا لا يتفق والاسلام الذى يدعو الى الانصاف والعدل ، كما لايتفق وسياسة العرب الحكيمة التى كانت ترمى الى التحبب الى أهل البلاد والى توطيد سلطانهم فيها ليس بقوة السيف وانما بحسن السياسة .

وقد أثبتت أوراق البردى فساد الرأى الذى يقول بمساواة الذميين فى دفع الجزية وأثبتت أن الجزية كانت تتناسب مع ثروة الشخص .

ففى كتاب من قرة بن شريك الى صاحب كورة أشقوه ، نجده يأمر بأن يرسل كشفا بالأماكن المختلفة لمعرفة عدد الرجال فى كل مكان ، والجزية الواجب عليهم أداؤها ، وما يملكه كل رجل من الأراضى ، وما يقوم به من الأعمال ، ويطلب قرة من صاحب الكورة ألا يوجد أى مجال للشكوى أو الاستياء منه ، ويذكره بأنه مصمم على مكافأة من يسير سيرا حسنا ومعاقبة من يتنكب عن طريق العدل (١) .

ونحن نرى من هذا الكتاب أنه لو كان كل فرد يدفع جزية مساوية لما يدفعه الآخر ، لما طلب والى مصر كشفا بما يملكه كل شخص ، وما يقوم به من عمل ، وبالجزية الواجبة على كل فرد ، ولما طلب من صاحب الكورة أن يكون عادلا فى عمله ، ولما هدده

---

(١) Bell : H. I. Translations of the Greek Aphrodito Papyri in the British museum (Der Islam. Band II. Strassburg 1911) p. 272.

اذا هو لم يتبع طريق الحق ، أو أوجد أى مجال للشـــكوى أو الاستياء من جانب أهل كورته ، ولاكتفى الوالى بمعرفة عدد رجال كورته وبذلك يعرف الجزية الواجبة عليهم .

وفى كتاب آخر بعث به قرة بن شريك نراه يطلب من صاحب الكورة أن يعدل فى تقدير الضرائب الواجبة على كل فرد وأن يسهل عليهم الاتصال به كى يسمع ما يقولون[1] .

وأما الفقهاء المسلمون فيجمعون على أن الجزية كانت على ثلاث فئات ، فكان يؤخذ من الموسر ثمانية وأربعون درهما ، ومن الوسط أربعة وعشرون ، ومن دون الوسط اثنا عشر درهما [2] .

وطبيعى أن كلام الفقهاء يوحى الينا — بعكس كلام المؤرخين — بأن تقدير الجزية كان فيه شيء من العدل وان لم يكن العدل كله فقد نستطيع تقسيم فئات الشعب الى ثلاث طبقات بصفة عامة ، ولكن من الطبيعى أن هناك اختلافات وفروقا كثيرة فى الثروة والامكانيات بين أفراد الطبقة الواحدة . وعلى أية حال فان كلام الفقهاء كان فى معظم الأحيان نظريا لا يعدو أن يكون أمانى وآمالا فى السير نحو المثل العليا ، فالفقهاء هنا يؤيدون فكرة تقدير الجزية حسب ثروة الشخص بصفة عامة .

والواقع أن العرب لم يحددوا فى المعاهدة التى تمت بينهم

---

(١) Bell : Op. Cit. pp. 281-282.

(٢) ابو يوسف : كتاب الخراج ص ٦٩ (بولاق ١٣٠٢ هـ) ، ويحيى بن آدم القرشى: كتاب الخراج ص ٥١ (ليدن ١٨٩٥ ـ ١٨٩٦)، والماوردى : الاحكام السلطانية ص ١٣٨ (القاهرة ١٢٩٨ هـ) .

وبين المصريين حين الفتح ، قيمة الجزية على أهل الذمة فى مصر وانما اكتفوا بفرضها عليهم . ويذكر المؤرخون أن صاحب اخنا قدم على عمرو بن العاص وقال له : « أخبرنا ما على أحدنا من الجزية .... فقال عمرو وهو يشير الى ركن الكنيسة : لو أعطيتنى من الأرض الى السقف ما أخبرتك ما عليك انما أنتم خزانة لنا ان كثر علينا كثرنا عليكم وان خفف عنا خففنا عنكم »(١) أى أن تقدير الجزية فى مصر ترك للوالى أو الخليفة . كذلك روعى فى الجزية تناسبها مع ثروة الشخص كما أثبتت أوراق البردى التى ترجع الى هذا العصر .

وكانت الجزية فى مصر تدفع نقدا بالدنانير وكسور الدنانير . وكما كانت الجزية تجبى من أهل الذمة كان يجبى من المسلمين الزكاة أو الصدقة . ويقول المقريزى (٢) ان أول من جبى الزكاة بمصر السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب . ولكن أوراق البردى أثبتت غير ذلك ، اذ تبين منها أن الولاة فى مصر كانوا يقومون بجباية الزكاة ويتسلم الأهالى ايصالا ، أو براءة ، بعد تأدية ما يجبى عليهم من الزكاة بمقتضى الشريعة الاسلامية (٣) .

* * *

وبالاضافة الى ضريبة الجزية كانت هناك ضريبة الخراج وكان

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ١٥٣ ـ ١٥٤ (طبعة تورى) .

(٢) المقريزى : الخطط ج ١ ص ١٠٨ .

(٣) انظر : دكتورة سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام (القاهرة ١٩٤٧) ص ٤١ ، وما ذكرته من مراجع .

الخراج من الضرائب الهامة فى الدولة العربية . والمعروف أن مصر فتحت عنوة ولكن العرب أبقوا أرضها على حالها ولم يتعرضوا لها .

وهناك فرق بين الأرض التى تفتح صلحا والتى تفتح عنوة . أما الأرض التى تفتح صلحا ، أى بدون قتال ، وبمقتضى عهد ، فيتفق أهلها مع الفاتحين على مقدار الجزية والخراج الذى يؤخذ منهم دون أن يمس الفاتحون الأرض أو يأخذوها عنوة وقهرا . وأما الأرض التى تفتح عنوة فتكون فى حكم الغنيمة ، وتقسم بين الفاتحين طبقا للآية الكريمة (واعلموا انما غنمتم من شىء فان لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل)[1] . ويفسر الفقهاء المسلمون ذلك بأن الخمس الذى لله عز وجل مردود من الله تعالى على الذين سمى الله (للرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) لا يوضع فى غيرهم ، ويوزع الرسول أو الامام ذلك بين من يحضر من هؤلاء بعد أن يجتهد ويتحرى العدل . أما أربعة الأخماس فيقسمها الامام بين المسلمين الغانمين الفاتحين .

والواقع أن العرب أبقوا أرض مصر والعراق والشام على حالها ولم يقسموا الأرض بين الجند . وكان الجند العربى يتمتع بالعطاء والأرزاق بدلا من امتلاك أرض أهل البلاد المفتوحة . ونعرف مما ورد فى أوراق البردى ، ومما ذكره المؤرخون أن الخراج فى مصر كان يجبى عينا ونقدا . ففى كتاب من قرة بن

(١) سورة الأنفال آية ٤١ .

شريك سنة ٩١ هـ الى أهل شبرا بسيرو من كورة أشقوه ، نجده يطلب منهم دفع متأخرات الجزية عليهم بالدنانير ودفع ضريبة الطعام قمحا(١) . وتعنى ضريبة الطعام التى ذكرت فى الأوراق البردية ، الخراج أو جزءا منه . وفى كتاب آخر من قرة بن شريك الى صاحب أشقوه نجده يطلب منه أن يرسل اليه القمح المفروض على أهل كورته ، ويخبره أنه اذا وجد الأهالى صعوبة فى دفع الضريبة غلة فلا بأس من دفعها نقدا ، ويحدد له ما يعادل عددا معينا من الأرادب نقدا ، ولكنه يطلب منه أن يعمل على ارسال القمح لا النقود (٢) .

كذلك يجمع المؤرخون القدماء مثل البلاذرى واليعقوبى على أن أهل مصر كانوا يدفعون الجزية نقدا ، بينما كانوا يدفعون الخراج عينا ونقدا . وكان يطلق على الضريبة التى تدفع عينا فى أوراق البردى العربية اسم « ضريبة الطعام » ، ويجدر أن نشير هنا الى أن القمح كان أهم ما يجبى من ضريبة الطعام ، ولكن هذه الضريبة كانت تشمل أحيانا غير الغلال ، الزيت والعسل وأنواع الطعام الأخرى . وكان يصرف من المال الذى يجبى عطاء الجند المرابط فى مصر ، كما أن أرزاق الجند فى مصر كانت تعتمد على ضريبة الطعام .

---

(١) Becker, C. H. : Neue Arabische Papyri des Aphroditofundes (Der Islam. II. Strassburg 1911) p. 267, Grohmann, A. : Arabic Papyri in the Egyptian. Library, vol. III. p. 48.

(٢) Bell : Translations. (Der Islam. Band III. 1913) p. 271.

وكان الخراج فى مصر يجبى على أساس مساحة الأراضى التى يمتلكها الشخص كما كان الحال فى عهد الرومان والبيزنطيين . على أنه كان يراعى فى تقدير الخراج حالة فيضان النيل فى كل عام لارتباطه بالزراعة . كذلك كان يراعى فى تقدير الخراج كمية المحصول التى تنتجها الأرض وحالة الأرض نفسها .

وقد ذكرنا فى كلامنا عن الحجاج أنه وجدت فى الدولة العربية منذ الفتح العربى أراض امتلكتها حكومة العرب ، وكانت حكومة العرب تتبع فى الانتفاع بالأراضى التى استولت عليها طريقة الاقطاع . ونلاحظ أن نظام اقطاع الأرض بدأ فى مصر بعد الفتح العربى لها ولكن بدءه وتطوره يختلفان عن نظام الاقطاع فى الغرب لأن من العوامل الأساسية فى نشأة الاقطاع فى الغرب وفى أسباب منحه رغبة الأمير أو الملك فى أن يحصل على عون حربى ممن دونه من الأمراء والأشراف ، بينما لم يدخل العنصر الحربى فى نظام الاقطاع الاسلامى فى مصر الا فى نهاية العصور الوسطى على يد الأيوبيين ثم المماليك ، ودخل بأسلوب آخر يتلخص فى انتفاع الجند بدخل الاقطاعات المختلفة بغير منحهم الأراضى للاقامة فيها وزراعتها ، كذلك لم يوجد فى الاقطاع الحربى بمصر حق الوراثة الذى كان يتمتع به أصحاب الاقطاع فى أوربا .

أما الاقطاع الذى وجد فى مصر وفى غيرها من البلاد التى فتحها العرب فكان يمتلكه من يؤول اليه الاقطاع كما يرثه ورثته من بعده . ولهذا نرى أن أرض مصر لم تكن أرض خراج فحسب بل نشأت فيها أرض العشر مثل بقية الدولة العربية ، اما قطيعة

منحت لبعض المسلمين أو أرضا حصلوا عليها من الحكومة أو القبط بطريق الشراء أو أرض موات احتلوها . وقد عرفنا فى كلامنا عن الحجاج أن الأراضى التى امتلكها المسلمون كان يدفع عنها العشر زكاة لها ، ومن الوجهة النظرية كان القبطى الذى يعتنق الاسلام تصبح أرضه عشرية . ولا شك أن الحكومة رأت فى ذلك جل الخطر على مالية القطر فأصبح نوع الضريبة متصلا بالأرض نفسها وأصبح القبطى اذا اعتنق الاسلام لا تعفى أرضه من الخراج بل ان العربى أصبح يدفع الخراج على الأرض بدلا من العشر .

وقد مرّ بنا فى كلامنا عن الحجاج كيف اتخذ هذا الأمير خطوات جريئة لاقرار النظام المالى والاقتصادى فى المشرق . ولم تلبث سياسة الحجاج أن عمت فى مختلف البلاد العربية فأصبحت ضريبة الخراج تفرض على الأرض سواء أسلم مالكها أم بقى على دينه ، وسواء أكان المالك عربيا أم من أهل البلاد المفتوحة . وليس من شك فى أن هذه الخطوة كانت خطوة عملية أيضا فى سبيل تعريب البلاد المختلفة وازالة الفوارق بين الفاتحين العرب وأهل البلاد المفتوحة .

أما فرض الجزية على الذين يسلمون حديثا فأصبح مبدءا تتخذه البلاد العربية المختلفة فى ظروف مالية مختلفة بعد أن أوجد الحجاج هذا المبدأ وعمل به فى المشرق . ويذكر المؤرخون أن عبد الملك بن مروان كتب الى عبد العزيز بن مروان والى مصر من قبله أن يضع الجزية على من أسلم من أهل الذمة فكلمه ابن

حجيرة فى ذلك وقال : « أعيذك بالله أيها الأمير أن تكون أول من سن ذلك بمصر فوالله ان أهل الذمة ليتحملون جزية من ترهب منهم فكيف تضعها على من أسلم منهم ؟ » فتركهم عند ذلك[1] .

ولكن يبدو لنا أنه بعد وفاة عبد العزيز بن مروان والى مصر، وبعد وفاة الخليفة عبد الملك بن مروان وتولية الوليد بن عبد الملك الخلافة كانت الجزية تفرض على الذين يسلمون حديثا وخاصة اذا دعت الحالة الاقتصادية الى ذلك لا فى مصر وحدها بل فى كافة البلاد العربية بدليل أن قرار أى خليفة برفع الجزية عمن أسلم كان يشجع الكثيرين على اعتناق الدين الاسلامى[2] .

وكان قرة بن شريك — يهتم بعدالة حكام الاقليم المختلفة وعدم الاجحاف بأهل الذمة . ويتضح لنا من دراسة الأوراق البردية المختلفة أن قرة كان يأمر عماله فى الأقاليم ألا يقدروا على أهل الذمة ضرائب فوق طاقتهم أو أقل مما يستطيعون أداءه . كما كان يهدد عماله بعقابهم أشد العقاب اذا ظلموا الأهالى فى تقدير الضرائب المفروضة عليهم . كذلك كان يحذر عماله من قبول الرشوة من الأهالى . وفضلا عن ذلك فقد كان قرة بن شريك يتدخل فى كل كبيرة وصغيرة ويراقب الأمور فى البلاد مراقبة شديدة ، ويجتهد فى المحافظة على نشر الأمن فى البلاد والعدل بين الرعية . كذلك كان قرة يهتم بمراقبة التموين فى البلاد ، فنراه

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها ص ١٥٦ (طبعة تورى) ، خطط المقريزى ج ١ ص ٧٧ ـ ٧٨ .

(٢) انظر: دكتورة سيدة كاشف: مصر فى فجر الاسلام ص ٢٣١.

يجتهد فى منع غلاء الطعام بالفسطاط ، ونجده يتجاوز أحيانا عن بعض ما كان يدفع كل عام من الجزية فيقبل من أهل الذمة أقل مما اعتادوا دفعه كل عام رفقا بهم . ومع ذلك نراه يشدد فى طلب المتأخر من الجزية التى لم تدفع منذ عهد الوالى الذى سبقه . ونراه يأمر عماله على الأقاليم بأن يقدموا له سجلات بأسماء القرى والبلدان المختلفة ، واحصاء الرجال والجزية الواجبة عليهم وما يملكه كل رجل من الأراضى ، والخدمات التى يؤديها كل منهم . وكذلك نرى قرة يفرض أحيانا ضرائب غير عادية . وكان جباة الضرائب من أهل الذمة كما كان حكام الكورات المختلفة منهم . والواقع أن حكومة العرب بصفة عامة وحكومة قرة بصفة خاصة تركت معظم وظائف الدولة فى أيدى الذميين .

* * *

واستمرت فى عهد قرة حركة الهرب التى بدأت فى ولاية عبد الله بن عبد الملك ، بل انها اتخذت فى عهد قرة شكلا واسعا فكانت أسرات بأسرها رجالا ونساء وأطفالا تهرب من مكان الى مكان ، لا تستقر فى مكان معين وذلك فرارا من دفع الضرائب . ولم يكن هذا جديدا فى التاريخ المصرى فكثيرا ما كان الفلاحون يهجرون قراهم فى العصر البيزنطى فرارا من دفع الضرائب . واضطر قرة ازاء هذا الى انشاء هيئة خاصة لوقف تلك الحركة واعادة كل شخص الى موضعه .

وتلقى أوراق بردى كوم أشقاو شعاعا من النور على هذه

الحركة التى كان محورها الزراع أو الجالية [1] . وكان الوالى يأمر باعادتهم الى قراهم الأصلية . فنراه يكتب الى صاحب اشقوه أنه علم بوجود جالية بأرضه ويطلب منه أن يرد الجالية — أى الهاربين — الى أرضهم الأصلية . ونراه يرسل مندوبين للنظر فى حركة الهرب ويطلب من صاحب الكورة أن ييسر مهمتهم وأن يرسل معهم رجالا ثقات يعرفون الكتابة ليقـوموا فى حضرتهم بكتابة أسماء الهاربين وألقابهم وليبينوا أيضا من أين هرب كل شخص والى أى جهة ذهب ، وذلك لحصر الذين عادوا الى قراهم ، والذين سمح لهم بالاستقرار على أن يؤدوا الضرائب ، وليقوموا على وجه الاجمال بالاستفسار عن كل ما يجب أن يعرف . ثم يعود قرة فيطلب من صاحب الكورة أن يأمر هؤلاء الرجال بالعمل فى هذه المسألة بجد ونشاط ، والا يقبل أحد منهم هدية أو رشوة من أى شخص والا فسيحل العقاب بصاحب الكورة كما سيحل بالرجل المذنب . وفى كتاب آخـر لقرة نراه يطلب من صاحب اشقوه أن يرسل اليه الهاربين مع عائلاتهم وكل ما معهم من متاع ، وأن يعد سجلا يكتب فيه أسماء الأشخاص الذين أرسلوا ، وفى أى موضع من كورته هربوا ، وأملاك كل شخص ، والوقت الذى أمضاه كل شخص فى كورته ، وكل شىء يعرفه عن الهاربين دون

---

(١) قيل لأهل الذمة الجالية لأن عمر بن الخطاب أجـلاهم عن جزيرة العرب ولزمهم هذا الاسم أينما حلوا ، ثم لزم كل من لزمتـه الجزية من أهل الكتاب بكل بلد وان لم يجلوا عن أوطانهم . ويقـال استعمل فلان على الجالية أى على جزية أهل الذمة .

كذب أو محاباة ، وأن يرسل كل الأشخاص وهذه المعلومات مع المندوب الذى أرسله قرة لهذا الغرض ، ويهدده بأشد العقاب الجسمانى والمالى ان هو توانى عن النظر فى هذه المسألة وتغافل عن أحد الهاربين ، كما يهدد الأشخاص الذين يوجد بينهم أحد الهاربين بغرامة مالية كبيرة فوق مقدورهم .

وظل قرة يتابع تلك الحركة بنشاط وهمة كى يقضى عليها الى أن توفى سنة ٩٦ هـ .

* * *

ولم تقتصر الضرائب فى مصر بعد فتح العرب لها حتى عهد الوليد بن عبد الملك على ضريبتى الجزية والخراج فكانت هناك ضرائب أخرى ، اذ فرض العرب منذ الفتح ضرائب على الصناع والأجراء ، وكانت هذه الضرائب تقدر عليهم بقدر احتمالهم .

كذلك فرض العرب على التجارة الداخلية فى مصر منذ الفتح العربى لها ضرائب عرفت باسم المكوس (١) . وكان مقر ادارة هذه الضرائب فى الجهة التى عرفت باسم المقس وهى قرية أم دنين التى كانت تقع شمالى الفسطاط ، وانما سميت المقس لأن صاحب المكس كان مقره هناك فقيل المكس وقلب فقيل المقس.

كذلك فرض العرب ضرائب على التجارة الخارجية التى تمر بثغورها أو التى ترد اليها ، أو تصدر منها ، فكانت المكوس تجبى

(١) المكس : فى اللغة الجباية ، يقال مكسه يمكسه مكسا . ويقال للماكس أو صاحب المكس العشار أو العاشر ، وعشر القوم معناه أخذ عشر أموالهم ، والعشار هو قابض العشر .

من التجار فى الثغور المصرية وهى دمياط وتنيس ورشيد وعيذاب وأسوان والاسكندرية .

والمكس قبل الاسلام كان عبارة عن حق فرض الضرائب على الأسواق ، أو حق فرض الضرائب التى تجبى فى الموانى والبلاد التى على الحدود المصرية . ولما جاء العرب حافظوا على هذا الحق وقربوه من نظام الزكاة أو العشور .

وورد فى نصوص أوراق البردى ذكر لضرائب غير عادية فنرى قرة بن شريك يطالب فى رسائله الى صاحب اشقوه بجمع تلك الضرائب غير العادية أو بجبايتها من الناس بالعدل . وربما كانت حكومة العرب تفرض هذه الضرائب تبعا لازدياد مصروفات الدولة عن ايراداتها .

* * *

ووجدت أنواع من الضرائب فى العهد العربى يمكننا أن نسميها الالتزامات . وهذا النوع من الضرائب كان موجودا قبل الفتح العربى . وعرف نظام الالتزامات فى العالم القديم باسم الليتورجيا Leiturgia ومعناه التزام الشخص أو الجماعة بعض الخدمات للدولة ، ففى أثينا فى بلاد اليونان كان كل مواطن يمتلك نصيبا معينا من الأملاك يقدم الى الدولة بعض الخدمات الشخصية . ولكن هذا النظام لم يكن فى العصر الاسلامى عاما كما كان عند الاغريق القدماء ، بمعنى أنه كان ظاهرا فى الضرائب وما يتصل بها . فكانت الكورة تلزم بأداء نوع من الخدمة للدولة، أو بدفع مبلغ فى مقابل اعفائها من ذلك . وفى بعض الأحيان كان

الوالى يوصى عماله على الكورات بجمع الأشخاص أو المواد اللازمة لهذه الخدمات وبعدم قبول المال مقابل الاعفاء من آدائها.

ومن أهم أنواع الالتزامات أو الليتورجيا فى مصر بعد فتح العرب لها والتى استطعنا أن نقف عليها مما ذكره المؤرخون القدماء ومن الأوراق البردية التى ترجع الى عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك ما يأتى :

١ — ايواء الجند وضيافتهم ، فقد اشترط على القبط بعد فتح العرب لمصر آن من نزل عليه ضيف واحد أو أكثر من المسلمين وجبت عليه الضيافة ثلاثة أيام لضيوفه . ولعل السبب الذى حدا بالعرب الى ذلك هو أنهم فى أول عهدهم بمصر كانوا جنودا وكانت اقامتهم مقصورة على العاصمة التى بنوها لأنفسهم أو فى الثغور لحمايتها من الأعداء . وقد أخذ العرب واجب الضيافة هذا من الرومان والبيزنطيين فى مصر .

٢ — تقديم العمال والأدوات اللازمة لتشييد الطرق وحفر الترع أو كريها .

٣ — تقديم مواد غذائية مختلفة مما تشتهر بانتاجه الكورات.

٤ — تقديم الموظفين ذوى الخبرة لبعض الأعمال الحكومية .

٥ — تقديم المواد والأيدى العاملة اللازمة لتشييد المبانى العامة فى مصر بل ولعمارة المساجد فى الشام وبلاد الحجاز .

٦ — تقديم البحارة ومواد بناء السفن .

* * *

واتبع العرب فى جباية الضرائب النظام الذى اتبعه البيزنطيون

من قبل فكانت كل قرية مسئولة بالتضامن عن الضرائب المفروضة عليها . ففى كتاب من قرة بن شريك فى سنة ٩١ هـ الى صاحب شبرا بسيرو من كورة اشقوه يذكر فيه أن على قريته من جزية سنة ٨٨ هـ ، ١٠٤ ٢/٣ من الدنانير ، ومن ضريبة الطعام ١١ ١/٣ من الأرادب من القمح . وفى كتاب آخر أرسله سنة ٩١ هـ الى أهل « شبرا أجيه بنوتيه » من كورة أشقوه يذكر أنه أصابهم من جزية سنة ٨٨ هـ ، ٣٧ دينارا . وفى كتاب ثالث أرسله سنة ٩١ لأهل « هروس ابيرميوطس » من كورة أشقوه ذكر أنه أصابهم من جزية سنة ٨٨ هـ ، ٢٨ ١/٦ من الدنانير (١) .

وكما كان الحاكم العام فى مصر فى عهد الرومان يقدر الضرائب التى تفرض على مختلف نواحى البلاد على أساس المعلومات التى يقدمها اليه الحكام المحليون ، كذلك نجد العرب يتبعون نظاما يشبه النظام السالف ، فنرى قرة بن شريك يرسل الى صاحب كورة اشقوه تعليمات خاصة بجباية الضرائب فيأمره بجمع رؤساء كل قرية وذوى النفوذ فيها كى يختاروا رجالا أمناء أذكياء ليكلفهم بتقدير ما على كل قرية من الضرائب بقدر استطاعتهم ، وبعد أن يقوموا بمهمتهم هذه تحت اشراف صاحب الكورة ، يطلب منه أن يرسل اليه نتيجة عملهم بعد أن يحتفظ بنسخة لنفسه ، ويطلب منه أيضا أن يكتب أسماء وأ[illegible] محل اقامة هؤلاء الذين قاموا بتقدير الضرائب ، وينذر عا[illegible]ا وجد أن قرية حملت

(١) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٥٩ ، وما ذكرته من مراجع .

أكثر مما تحتمل من الضرائب أو أقل فانه سيعاقب هؤلاء الذين قاموا بتقدير الضرائب وصاحب الكورة أيضا ، أشد عقاب .

ونلاحظ أن ما جاء فى الأوراق البردية يؤيد ما ذكره المؤرخون من أنه لما استوثق الأمر لعمرو بن العاص « أقر قبطها على جباية الروم ، وكانت جبايتهم بالتعديل ، اذا عمرت القرية وكثر أهلها زيد عليهم ، وان قل أهلها وخربت نقصوا فيجتمع عرفاء كل قرية ومازوتها ورؤساء أهلها فيتناظرون فى العمارة والخراب حتى اذا أقروا من القسم بالزيادة انصرفوا بتلك القسمة الى الكورة ، ثم اجتمعوا هم ورؤساء القرى فوزعوا ذلك على احتمال القرى وسعة المزارع »[1] . ومن هذا نرى أن صاحب الكورة هو الذى كان يتصل بالوالى أو عامل الخراج لتأدية الضرائب الواجبة على كورته وعلى القرى التى تدخل فى دائرة هذه الكورة ، وكان يشرف على تقدير هذه الضرائب رؤساء القرى وذوو النفوذ فيها تحت اشراف صاحب الكورة .

وكانت الضرائب فى مصر تجبى كل سـنة قمـرية . وكان المصريون قبل الفتح يعتمدون فى الزراعة والحصاد وجباية الخراج على السنين الشمسية والشهور القبطيـة ، ولذا نرى العـرب يحولون السنة الخراجية القبطية الى السنة الهلالية العربية فكانوا يسقطون سنة عند رأس [illegible] اثنتين وثلاثين سنة قمرية ، وسموا

---

(١) ابن عبد الحكم : [illegible] واخبـارها ص ١٥٢ ـ ١٥٣ ، خطط المقريزى ج ١ ص ٧٧ . السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٦٣ (القاهرة ١٣٢٧ هـ) .

ذلك الازدلاق لأن لكل ثلاث وثلاثين سنة قمرية اثنتين وثلاثين سنة شمسية بالتقريب . وكان الأهالى الذين يقومون بدفع ما عليهم من الضرائب يتسلمون ايصالات عرفت فى أوراق البردى العربية باسم « براءة » . وكان فى مصر ديوان للخراج والأموال ، وكان يشرف على هذا الديوان الوالى أو عامل الخراج كما كان يشرف على كل فرع من فروع ديوان الخراج والأموال فى الأقاليم موظف يسمى جسطال . وكانت الضرائب النقدية ترسل الى ديوان الخراج والأموال عن طريق فروعه فى الأقاليم أما الضرائب العينية فكانت ترسل الى أهراء العاصمة .

وكان والى مصر أو أميرها يقيم فى دار الامارة فى العاصمة . وكان الوالى يؤم المسلمين فى المسجد الجامع فى صلاة الجمع والأعياد بوصفه نائبا عن الخليفة ولذا يطلق عليه أمير الصلاة ، ويقال عن ولايته ولاية الصلاة . واذ كان المسلمون يعتبرون أن امامة الصلاة مما يختص به الخلفاء ويطلقون على الخليفة لفظ امام ، كانت امامة الوالى فى الصلاة نيابة عن الخليفة تدل على عظم سلطة الوالى وعلى رياسته العليا السياسية فى الدولة . ولم يكن الوالى مسئولا أمام أحد عن عمله الا أمام الخليفة . واذا أسند الخليفة ادارة المالية المعبر عنها بالخراج الى الوالى أصبح الوالى مطلق التصرف فى الدولة كما كان قرة بن شريك فى مصر والحجاج بن يوسف الثقفى فى العراق والمشرق . أما اذا أسند الخليفة عمل الخراج الى شخص آخر فان صاحب الخراج يكون مسئولا أمام الخليفة مباشرة لا أمام الوالى .

وكان بيد الوالى أيضا الحرب أى الرياسة على الجيش فى الولاية ولأهمية ذلك كان يقال أحيانا : ولى فلان الحرب كناية عن ولايته لمصر ، فوالى مصر كان يشرف على شئون الحامية الموجودة فى مصر . ونرى قرة بن شريك يطلب من صاحب كورة كوم أشقاو أن يعجل فى ارسال المال المفروض على كورته ليأمر للجند بعطائهم . ونجده أيضا يهتم بالاشراف على الأدوات اللازمة لتنظيف وتجهيز مراكب الأسطول ويهتم بالمؤن التى يحتاجها بحارة الأسطول كما يشرف على أجور البحارة الذين يخرجون مع الأسطول للغزو .

وكان للوالى أيضا الاشراف على الشرطة ، وكان صاحب الشرطة بمصر بمثابة نائب للوالى يؤم الناس فى الصلاة اذا مرض الوالى ويحكم الولاية اذا خرج الوالى من مقر ولايته ولابد أن والى مصر كان يعهد الى صاحب الشرطة بتنفيذ العقوبات التأديبية التى يفرضها كما يعهد اليه بنشر الأمن فى البلاد .

ونستنتج مما ذكره المؤرخون القدامى ومما عثرنا عليه من الأوراق البردية التى ترجع الى عهد الوليد بن عبد الملك ، أن الخلفاء الأمويين أعطوا لعملهم على الولايات قسطا كبيرا من الحرية ولذا ظهر فى الدولة الأموية شخصيات بارزة مثل عمرو بن العاص وعبد العزيز بن مروان وقرة بن شريك وموسى بن نصير وزياد بن أبيه والحجاج بن يوسف الثقفى . كذلك أبقى العرب على النظم التى وجدوها فى البلاد التى فتحوها بل أبقوا على أسماء الوظائف والبلاد كما كانت من قبلهم ولم يعط الولاة فرصة لعمال الأقاليم

للتمكين لأنفسهم وللاستقلال محليا بأمور أقاليمهم . وفى ولاية قرة نرى أن الحكم فى مصر كان مركزيا الى أقصى حد وكما كان الوالى تحت سلطة الخليفة مباشرة ، نرى الوالى بدوره يضع رؤساء الأقاليم المختلفة تحت سلطته مباشرة . وقد عرفنا من الأوراق البردية التى ترجع الى حكم قرة بن شريك (٩٠—٩٦ هـ) فى خلافة الوليد بن عبد الملك ، الى أى حد كانت تمتد سلطة الوالى فى الأقاليم فنراه يرسل كتبا كثيرة الى عماله يطلب منهم ما تجمع من الضرائب ، وفى الوقت نفسه يطلب من صاحب الكورة أن يعدل بين الناس ولا يفعل شيئا يكرهونه . ثم نرى الوالى يرسل الى صاحب الكورة يذكر له أن صاحب البريد أخبره بأنه أوقع الغرامة على بعض القرى ويطلب من صاحب الكورة أن يرد ما كان قد أخذه حتى يكلمه فى هذا الأمر . وهنا نرى أنه كما كان للخليفة صاحب بريد يخبره بأعمال الوالى ، كان للوالى أيضا صاحب بريد يخبره بأعمال عمال الأقاليم فى مصر .

وفى كتاب آخر نجد قرة بن شريك يرسل الى صاحب كورة أشقوه بشأن أحد الأفراد الذى أعطى مالا لآخر ، ويطلب منه أن ينظر فى أمر تسديد الدين الذى لأحدهما على الآخر . ونجد أيضا كتابا لقرة يأمر فيه بالقبض على أحد المجرمين . وفى كتاب آخر نراه يحدد أجور الصناع الذين يعملون فى بناء السفن ولا يترك تحديد ذلك لصاحب الكورة التى منها الصناع .

وهذه الأمثلة ترينا الى أى حد تغلغلت سلطة الوالى فى شئون البلاد المختلفة . وحتى فى أمور القضاء الذى كان يعتبر مستقلا ،

كان الوالى فى معظم الأحيان هو الذى يعين القاضى أما الخليفة فيصدق على هذا التعيين .

كذلك كان والى مصر منذ الفتح العربي يشرف على عمال برقة والمغرب وعلى الجيوش المرسلة الى هناك ، على أن هذا الاشراف لم يمنع من أن يكون لبرقة والمغرب عمالهما وولاتهما ، وان كانت برقة والمغرب تضمان أحيانا تحت سلطة والى مصر مباشرة .

* * *

واحتاج والى مصر الى كتبة كثيرين ليستعين بهم فى تحرير رسائله الى مختلف الجهات فى مصر والى الخليفة نفسه ، ولذلك نرى فى آخر الكتب التى كان يرسلها قرة أسماء الكتبة الذين كانوا يحررونها .

* * *

والواقع أن حكم قرة بن شريك يعطينا صورة تكاد تكون متكاملة عن حكم الوليد بن عبد الملك فى هذا الجزء من العالم العربى . كما أن ولاية قرة بن شريك فى مصر ، وولاية الحجاج ابن يوسف الثقفى فى العراق ترسم لنا صورة صادقة لسلطان الولاة فى العصر الأموى عامة وفى عهد الوليد بن عبد الملك خاصة فضلا عن أن حكم هذين الواليين يوضح كثيرا من النظم الادارية والمالية فى هذا العصر ، تلك النظم التى أثبتت كفاءة العرب ومرونتهم وتطورهم مع الأحداث والزمن . وبدون معرفة هذه النظم لا نستطيع فهم النظم التى سار عليها الخلفاء العباسيون فيما بعد والتى أفاض مؤرخو العصر العباسى وفقهاؤهم فى الكتابة عنها .

الفصل السادس

الوليد بن عبد الملك فوق المنازعات القبلية

اعتمد الامويون على جند الشام فى حكمهم للدولة الاسلامية، واعتمد الحجاج بن يوسف الثقفى على جند الشام فى تثبيت الحكم الأموى فى المشرق وفى القضاء على الحركات الخارجة عليه . وليس من شك فى أن عرب الشام ادركوا أن وقوفهم الى جانب الأمويين فيه احتفاظ بمكانتهم . وليس من شك أيضا فى أن حوادث المشرق التى كانت أبرز حوادث التاريخ الاسلامى فى تلك الفترة تبين لنا أن مصلحة عرب الشام فى احتفاظهم بالخلافة الأموية أثارت فيهم شعورا بالتضامن وبالوحدة قضى على كل خلاف داخلى بينهم . واستطاع جند الشام وهم جيوش الخليفة أن يقاتلوا الأعداء الداخليين للدولة العربية ثم الأعداء الخارجيين . وسنرى أنه حين يندك أساس هذا العون ، أى حين يستفحل أمر العصبية القبلية فى الشام ويحدث الشقاق بين أهله يكون ذلك نذيرا بالقضاء على حكم الدولة العربية وقيام الدولة العباسية . والواقع أن الخطر على دولة بنى أمية لم يكمن فى حركات الشيعة والخوارج والموالى فقط ، أو فى العصبية الاقليمية التى ظهرت بشكل واضح بين العراق والشام ، انما كان هناك خطر العصبية القبلية . اذ خرج

العرب من شبه الجزيرة العربية الى البلاد التى فتحوها وهم يحملون بين جنباتهم تلك العصبية القبلية التى تأصلت فيهم من آلاف السنين . وحين اختط العرب الأمصار خططوها حسب القبائل ، وحين سكنوا المدن المختلفة أقاموا فى الأحياء المختلفة تبعا لرابطتهم القبلية .

وكان شعور الاعتداد بالقبيلة هو الشعور السائد فى فجر الاسلام ولا أدل على ذلك من أنه حين ولى مروان بن الحكم ابنه عبد العزيز بن مروان على مصر فى سنة ٦٥ هـ قال عبد العزيز : « يا أمير المؤمنين ! كيف المقام ببلد ليس به أحد من بنى أبى ؟! » وكان قول عبد العزيز هذا راجعا الى أن أغلبية العرب فى مصر فى ذلك الحين كانوا من عرب اليمنية أو عرب الجنوب ، أما قيس أو عرب الشمال عامة الذين منهم قريش فكانوا أقلية .

والمعروف أن الخلافة لم تستقر للأمويين بصفة عامة ، وللفرع المروانى بصفة خاصة الا بعد موقعة مرج راهط فى الشام ، اذ أيد اليمنية (أو عرب قحطان أو عرب الجنوب) مروان بن الحكم ، جدّ الوليد فى تلك الموقعة ، وانتصر اليمنية انتصارا ساحقا على القيسية (أو عرب عدنان أو عرب الشمال) . لكن معركة مرج راهط وان كانت قد أسفرت عن تثبيت الخلافة للمروانيين الا أنها بعثت روح العصبية القبلية بين اليمنية وبين القيسية ، وتركت أثرا عميقا فى قلوب القبائل ويتجلى ذلك فى قصائد شعراء الفريقين ومن أشعارهم قول أحد القيسيين :

أريني ســلاحي لا أبا لك انني
أرى الحــرب لا تزداد الا تمــاديا
فلا صلحَ حتى تنخط الخيلُ بالقنا
وتثــأر من نســوان كلب نسائيا
فقد ينبت المرعى عــلى دِمَن الثرى
وتبقى حزازات النفوس كما هيــا

والمعروف أن القبيلة كانت فى بلاد العرب قبل الاسلام وحدة المجتمع فكانت القبيلة كل شيء فى البادية كما كانت أساس المجتمع فى الأجزاء نصف المتحضرة وفى الأجزاء المتحضرة تماما فى شبه الجزيرة .وكانت القبيلة قبل الاسلام تتألف من عشائر يربطها النسب وكانت تشترك جميعا فى الماء والمرعى والأرض الصالحة للزرع ، كما أنها تتضامن فى تحمل المسئولية والتعرض للثأر اذا اعتدى أحد أفرادها على قبيلة أخرى .

وتألفت من القبائل مجموعات على أساس رابطــة النسب كاليمنية أو القحطانية فى الجنوب والعدنانيين فى الحجاز وربيعة فى شرقى الجزيرة العربية . وكان للأنساب أهمية كبيرة عند العرب ولكنها تأثرت فى بعض الأحيان بالأحوال السياسية والاجتماعية فأصبحت القبائل فى صدر الاسلام تحرص على أن تصل نسبها بقبيلة قريش ، كما كانت قبيلة قريش أساسا لتقدير عطاء الجند فى عهد عمر بن الخطاب .

وعرض ابن خلدون فى مقدمته الى الانساب وقال انها أمر وهمى . ومع تسليمنا بأن الأنساب العربية لا تقوم على أساس

علمى صحيح فان ملاحظتها ضرورية لفهم كثير من الأدب العربى ومن الأحداث السياسية لأن العرب أنفسهم كانوا يؤمنون بها .

وكان هذا النظام القبلى بين العرب أساسا لقيام العصبية ، وأساسها الوفاء المطلق لأبناء العشيرة والقبيلة ، واعتبارها وحدة اجتماعية يتضاءل كل شيء عداها ، ويحل لها — فى حدود العرف — غزو غيرها من العشائر .

ولما جاء الاسلام لم يكن ليستطيع أن يغفل قوة العصبية فسار أولو الأمر على تقسيم جيوش المسلمين الى وحدات على أساس القبائل كما قسموا المدن التى أنشأوها الى خطط لكل قبيلة خطة .

وحسبنا لنعرف أهمية العصبية فى تاريخ العرب أن نذكر شعارهم القديم « انصر أخاك ظالما أو مظلوما » . فالعصبية بالنسبة للقبيلة كانت أشبه شيء بالقومية والوطنية بالنسبة للأمم فى التاريخ الحديث . بل ان العصبية القبلية كانت أقوى من القومية والوطنية الحديثة لأن أبناء القبيلة الواحدة كانوا يشعرون بأنه يجرى فى عروقهم دم واحد هو دم الجدّ الذى تنتسب اليه القبيلة . وكتب ابن خلدون فى مقدمته فصولا ممتعة عن العصبية ذهب فيها الى أن العصبية آتية من فكرة القرابة وصلب النسب الحقيقى أو ما يجرى مجراه من ولاء الحلف أو الجوار أو ولاء العتق .

ولم يكن للعصبية القبلية القوة الكافية لتوجيه الحوادث حين كانت بلاد العرب قبل الاسلام لا ترتبط فيما بينها برباط الوحدة والاتحاد ، أما وقد انبعثت العصبية بعد مرج راهط بشكل قوى فان الخطر بدا ماثلا للعيان اذ أن العرب هم عماد الدولة العربية

الفتية وهم الذين لهم ولاية الأمور فى الدولة وبيدهم توجيه الحوادث .

والحق أن العصبية القبلية نشرت ظلها على الحياة العربية فى العصر الأموى ، وظهر النزاع بين عرب الشمال وعرب الجنوب بصورة غامضة منذ عهد معاوية بن أبى سفيان فكانت قبائل عرب الشمال القيسية التى نزل بعضها فى شمال الشام وفى الجزيرة والعراق لا تشعر بالارتياح ازاء محاباة معاوية بن أبى سفيان لقبيلة كلب اليمانية ، وكانت قبيلة كلب أقوى القبائل فى سورية بل ان معاوية تزوج من سيدة من قبيلة كلب وأنجب منها ولده يزيد . لكن مثل هذه العصبيات لم تكن تظهر بشكل خطر ما دام سلطان الحكومة قويا وما دام الخليفة يضع نفسه فوق هذه الخصومات والحزازات ولا يكون طرفا فى الصراع القبلى . وبعد وفاة يزيد بن معاوية رفضت قبيلة قيس مبايعة خلفه ، وبايعت عبد الله بن الزبير بالخلافة ، ولكن تمكن الأمويون بمساعدة قبيلة كلب اليمانية من التغلب على القيسيين فى موقعة مرج راهط . واستطاع الخليفة عبد الملك بن مروان أن يضع نفسه فوق المنازعات القبلية حتى لا يقود الدولة العربية بنفسه الى الهلاك فتراه يجمع حوله «قيس » من عرب الشمال و « كلب» من عرب الجنوب ، بل ان عبد الملك كان متزوجا من سيدة قيسية من بنى عبس اسمها ولادة ، وهى أم الخليفة الوليد بن عبد الملك . وتصور بعض المراجع المتأخرة حكم الوليد على أنه حكم قيسى ارتفع فيه شأن القيسيين وذلك لأن الوليد ابن سيدة قيسية ، ولأن الحجاج ابن يوسف الثقفى ساعده الأيمن ، كان قيسيا . على أن قدماء

المؤرخين لم يذكروا لنا شيئا من هذا . ومن الصعب أن تتصور أن مثل الوليد ينزلق الى تلك المنازعات العصبية ويصبح رئيسا لحزب ضد حزب آخر . والواقع أن الوليد لم يكن بحاجة الى مثل هـذا التعصب القبلى اذ كان سلطانه قويا ، وحكومته مهابة ، فضلا عن أنه سار على هدى سياسة أبيه الذى وضع نفسه فوق جميع القبائل العربية .

ومن الخطأ أن تتصور أن الخليفة عبد الملك بن مروان ومن بعده ابنه الوليد قد منحا الحجاج كل ثقتهما لأنه ينتسب الى ثقيف التى تعد فرعا من فروع قيس ، أو لميوله نحو القيسيين ، ولكن الثقة فى الحجاج كانت لحسن ادارته ولاخلاصه الشديد للخلافة وللدولة العربية ، ولنبوغه وكفاءته فضلا عن تفوقه الحربى . ولا شك أن الحجاج كان يختار رجاله ممن يثق فيهم من عشيرته وأهله ، ولئن كان يدعى القيسيون أن الحجاج منهم ولهم الا انه يجب ألا يتطرق الى أذهاننا أن الحجاج كان زعيم القيسيين .

والواقع أن عبـد الملك بن مروان ومن بعده الوليـد بن عبد الملك استطاعا أن يسيرا دفة الدولة العربية بعيدا عن العواصف التى قد تذهب بوحدة الدولة العربية وبعيدا عن تيارات العصبية القبلية . ولكن العصبية بين كلب وقيس ما لبث أن استعر أوارها بعد وفاة الوليد حين جرى الخلفاء على الاعتماد على هذا الحزب أو ذاك . بل ان الخلافة حطت من قيمتها حين خرق البيت الأموى حياده وحين أصبح فريقا فى الصراع القبلى ، وكان ذلك من أقوى العوامل التى ساعدت على دك الأساس الذى قامت عليه الدولة الأموية العربية .

الفصل السابع

دولة عربية مترامية الأطراف

توطدت دعائم الخلافة العربية للمرة الثانية فى العهد الأموى على يد عبد الملك بن مروان . وجنى الوليد ثمرة مجهودات أبيه فى توطيد الحكم العربى والقضاء على الفتن الأهلية والثورات ، ولذا نراه يستأنف عهد الجهاد ونشر النفوذ العربى الاسلامى فى مناطق جديدة لم تصلها جيوش العرب من قبل أو لم تثبت أقدامهم فيها بعد .

وكان عصر الوليد بن عبد الملك هو عصر الدور الثالث للفتوحات العربية ، فان فتح العراق وفارس والشام ومصر وجزء من شمال افريقية فى عهد أبى بكر وعمر وعثمان ، ختم الدور الأول من تاريخ الفتوحات العربية ، أما الدور الثانى للفتوحات فكان أيام معاوية بن أبى سيفان وعبد الملك بن مروان حين استطاع كل منهما أن يقضى على الفتن والحروب الأهلية فامتد سلطان العرب الى خراسان وآسيا الوسطى شرقا والى شمال افريقية غربا . وفى عهد عبد الملك بن مروان سيطرت الدولة على عمان على ساحل الخليج العربى وتوثق سلطان الدولة على طول الساحل الشرقى لشبه جزيرة العرب ، وكانت عمان الى ذلك الحين ذات كيان مستقل

اذ دخلت فى حوزة الاسلام منذ أيام الرسول عليه الصلاة والسلام ولكن بالاسم فقط .

أما فى ميدان آسيا الصغرى فلم يفلح العرب فى تثبيت أقدامهم على الرغم من محاولاتهم العديدة .

* * *

كان عصر الوليد بن عبدالملك هو عصر الدور الثالث للفتوحات العربية كما ذكرنا . وقد بسط العرب سلطانهم فى عهده على أكبر بقعة من العالم القديم حينذاك . وكان اتساع العرب فى أيام الوليد هو أعظم اتساع بلغته الفتوحات العربية فأضاف العرب الى دولتهم اقليم ما وراء النهر وحوض السند ووصل العرب الى حدود الصين ، وكذلك ثبت العرب أقدامهم فى شمال افريقية وفتحوا اسبانيا ، وحاولت الدولة العربية الوصول الى القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية من ناحية الشرق ومن ناحية الغرب . وكانت رغبة العرب فى نشر الدين الاسلامى بالاضافة الى رغبتهم فى توسيع نفوذهم السياسى واعلاء كلمة العرب من أكبر العوامل التى ساعدت على هذا التوسع وجعلت العرب يلاقون نجاحا اثر نجاح . والراجح أن الأمويين كانوا يعتقدون أن نشر الدين الاسلامى ، وتوسيع نفوذهم السياسى شيئان لا يتعارضان بل هما مرتبطان أشد الارتباط فكان عصر الدولة الأموية هو عصر سيادة العروبة وسيادة الاسلام ، وكان عصر الوليد بن عبد الملك هو عصر امبراطورية العرب الواسعة ، اذ تضاعفت فى السنوات العشر

من حكم الوليد مساحة الدولة العربية كما دخل تحت سلطان الاسلام شعوب جديدة من ترك وهنود وبربر واسپان .

١ ـ فتوح بلاد ماوراء النهر ومحاولة فتح الصين ٨٦ ـ ٩٦ هـ (٧٠٥ ـ ٧١٥ م)

تعرف البلاد التى تقع شمال نهر جيحون (oxus) (نهر آموداريا الآن) عند العرب باسم اقليم ما وراء النهر . أما بطل فتح هذا الاقليم فهو القائد العظيم قتيبة بن مسلم الباهلى أو ناپليون باهله، كما يسميه بعض المؤرخين . وكان الحجاج بن يوسف الثقفى قد أشار على الخليفة عبد الملك بن مروان فى سنة ٨٥ هـ (٧٠٤ م) بتعيين قتيبة هذا واليا على خراسان . فاتخذ قتيبة مدينة مرو قاعدة له قاد منها فى نحو عشر سنوات عددا من الحملات الحربية الموفقة فى خراسان وفيما وراء النهر .

ويرى بعض المؤرخين أن اقليم ما وراء النهر كان سكانه أتراكا ويرى البعض الآخر أن سكانه من الايرانيين . والواقع أن سكان هذا الاقليم كانوا من العناصر الايرانية ومن الترك الذين طبعوا بطابع المدنية الايرانية . كذلك لم يكن هذا الاقليم موحّد السلطة فكان مقسما الى مناطق كل منطقة قائمة بذاتها .

وكان من حسنات الحجاج أن حمل أهل العراق على الاشتراك فى فتح تلك البلاد الشرقية تحت قيادة قتيبة . ويذكر البلاذرى والطبرى أنه كان فى جيش قتيبة أربعون ألف مقاتل عربى من البصرة وسبعة آلاف من الكوفة وسبعة آلاف من

الموالى . كذلك يذكر المؤرخون أنه وصل الى خراسان وما ورائها أقدام العرب الفاتحين فى حروبهم الأولى أيام عثمان بن عفان ولكن المسألة لم تتعد حد الغارة والغـزو اذ ما لبثت الفتوحات أن توقفت بعد قيام الفتنة فى خلافة عثمان . أما الخلفاء الأمويون والوليد فقد استأنفوا الحروب فى تلك الأصقاع النائية بغرض الفتح المنظم ونشر الاسلام واعلاء كلمة العرب وتوسيع حدود الدولة العربية ونشر تقاليدها ، وحماية حدود دولة العرب ورد هجمات المعتدين عليها فضلا عن استثمار البلاد . وتمكن قتيبة بن مسلم الباهلى بعد عدة حملات من استرجاع طخارستان وعاصمتها بلخ فى الشمال الشرقى من خراسـان وكان ذلك فى سنة ٨٦ هـ (٧٠٥ م) وكان ممن سبى قتيبة فى بلخ امرأة برمك ، أبى خالد بن برمك ، وكان برمك جد البرامكة الذين نبغوا فى العصر العباسى ، سادنا لمعبـد النوبهار ، أكبر بيوت النـار المجوسية زمن الملوك الساسانيين .

* * *

وكان قتيبة يشجع جنده على الاقدام فى الحرب والفتح فى تلك البلاد القاصية الضروس . ويمكننا أن نستبين الدوافع التى جعلت المسلمين يقدمون على مثل تلك الفتوحات العظيمة مما نقله المؤرخ الطبرى عن قتيبة حين استعرض جنده فى خراسان ليحثهم على الجهاد فقال : « فخطب الناس قتيبة وحثهم على الجهاد وقال : ان الله أحلكم هذا المحل ليعز دينه ، ويذب بكم عن الحرمات ،

ويزيد بكم المال استفاضة ، والعدو وقما ، ووعد نبيه صلى الله عليه النصر بحديث صادق وكتاب ناطق ، فقال (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) ووعد المجاهدين فى سبيله أحسن الثواب وأعظم الذخر عنده فقال(ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله) .. ثم أخبر عمن قتل فى سبيله انه حيّ مرزوق فقال (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون) .. »[1] .

* * *

وبعد أن ثبت قتيبة أقدام العرب فى خراسان وقدم له عظماؤها ودهاقينها الولاء والطاعة ، عبر قتيبة نهر جيحون فتلقاه ملك الصغانيان فى ما وراء النهر وأهدى اليه كثيرا من الهدايا وسلم اليه بلاده ثم قفل قتيبة راجعا الى مرو وتقدم جنده فسبقهم الى مرو .

وكان الحجاج بن يوسف الثقفى أمير العراق والمشرق كله ، يشرف على الفتوح أولا بأول ويدلى برأيه فى كل الأمور التى تحتاج الى رأى ، ويشجع قتيبة اذا وجد صعوبة ومقاومة من أهل هذه البلاد النائية ، ويلومه اذا علم أنه لا يتصرف كما يجب . ويذكر الطبرى أنه لما عاد قتيبة الى مرو تاركا جنده وراءه كتب

---

(١) الطبرى : تاريخ ج ٨ ص ٥٩ .

اليه الحجاج يلومه ويعجز رأيه فى تخليفه الجند ، كتب اليه : « اذا غزوت فكن فى مقدم الناس واذا قفلت فكن فى أخرياتهم»[1].

ثم جهز قتيبة حملة ثانية وعبر نهر جيحون وغزا بيكند فى سنة ٨٧ هـ فتجمع لمحاربته التركمان وقطعوا عليه خط الرجعة ، وانقطعت أخباره عن الحجاج ، ولم يصل منه رسول مدة شهرين فأشفق الحجاج على الجند وأمر الناس بالدعاء لهم فى المساجد طالبين من الله أن ينصرهم على أعدائهم . وبعد شهرين جاء الخبر من قتيبة يعلن نصره المبين . وأصـاب المسلمون من بيكند من الذهب والفضة ما لا يحصى ولم يظفر المسلمون فى خراسان بغنائم مثل تلك التى ظفروا بها فى بيكند ؛ ثم عاد المسلمون مع قائدهم الى مرو واشتروا السلاح والخيل ، وجلبت لهم الدواب وتنافسوا فى حسن الهيئة والعدة . ولما أقبل الربيع عبر قتيبة النهر مع جنده وخرج لغزو بخارى . وكان قتيبة يقود حملاته اذا أقبل الربيع الى ما وراء نهر جيحون ثم ينسحب فى الخريف الى مدينة مرو قاعدة خراسان حيث يقضى أشهر الشتاء .

عبر قتيبة نهر جيحون لفتح بخـارى وكانت من أكبر بلاد الصغد ، ولما قاومت تركها قتيبة فكتب اليه الحجـاج يأمره أن يصورها له ، فبعث اليه قتيبة بصورتها وكان أن رد الحجاج يلوم قتيبة ويأمره بتجديد الهجوم من أمكنة حددها له ، ففعل قتيبة واستولى عليها بمساعدة بنى تميم ، وأبدت نساء العرب شجاعة

---

(١) الطبرى : تاريخ ج ٨ ص ٦٠ .

فائقة فى الهاب حماس الرجال فانهن ضربن وجوه الخيل وبكين حتى كر الناس راجعين الى الحرب . وكان فتح بخارى على اثر سلسلة من الحملات المتتابعة وألزم قتيبة أهل بخارى بعد فتحها لأول مرة كما ألزم غيرها من أهالى البلاد المفتوحة أن يمدوه بقوة اضافية من الجيوش المحلية تتراوح عادة بين ١٠٫٠٠٠ و ٢٠٫٠٠٠ رجل يقومون بالخدمة مع الجيوش العربية .

وأسس قتيبة فى بخارى جامعا عرف باسم « جامع قتيبة » لا يزال باقيا الى يومنا هذا . كذلك دمّر العرب بيت النار فى بخارى . وتقدمت جيوش ابن باهلة فى بلاد الصغد وأخذ قتيبة يفتتح مدنها المختلفة ففتح سمرقند كذلك فتح خوارزم (المعروفة باسم خيوا) وهناك وصلته الأخبار بأن أهل سمرقند انتقضوا وثاروا فذهب قتيبة اليهم ونصب حول مدينتهم المجانيق . وحدث بين العرب وبين أهل سمرقند قتال شديد يشهد باستماتة العرب فى جهادهم ثم أعز الله قتيبة بفتح سمرقند فدخلها ظافرا منتصرا وفرض على أهلها غرامة كبيرة . وكانت سمرقند مليئة بالمعابد وكانت الأعاجم تقول ان من ينتهك حرمتها يهلك فلما أحرقها قتيبة ولم ينله أذى أسلم منهم خلق كثير . وكان لقتيبة الفضل فى انشاء أول مسجد فى سمرقند .

وقد وطد قتيبة مركزه فى بلاد ما وراء النهر بهذه الانتصارات والفتوح الباهرة . وعانت بلاد الصغد كثيرا من المحن من جراء هذه الحروب المستمرة حتى ان أحد شعراء ذلك الزمان أشاد بفتوحات قتيبة فى بلاد الصغد قائلا :

بَاهِـلى قد ألبس التـاج حتى
شاب منه مفـارق كُنَّ سـودا
دوخ الصـغد بالكتـائب حتى
ترك الصـغد بالعراء قعـودا (١)

* * *

وانتدب قتيبة لهذه البلاد المفتوحة حكاما من العرب لإدارة الشئون الحربية وجباية الأموال ، أما الادارة المدنية فقد تركها الى حكام من أهل البلاد نفسها .

ثم غزا قتيبة الأقاليم المحيطة بنهر سيحون وخاصـة الشاش (طشقند اليـوم) وفرغانة وذلك بين سـنتى ٩٤ — ٩٦ هـ (٧١٣ — ٧١٥ م) فبلغ خجندة وكاشان مدينتى فرغانة .

وكان نهر سيحون ، وليس نهر جيحون ، هو الحد الطبيعى الذى يفصل بين ايران وطوران ، أى بين الشعوب الناطقة بالايرانية والشعوب الناطقة بالتركية والمغولية ، ولذا فان عبور قتيبة لنهر سيحون كان أول تحد مباشر من العرب للشعوب الطورانيـة والمغولية .

وكان قتيبة يغزو الشاش فى سنة ٩٥ هـ حين أتاه خبر موت الحجاج فغمه ذلك وقفل راجعا الى مرو وتمثل قائلا :

فان تحى لا أملل حياتى وان تمت
فما فى حياة بعـد موتك طـائل

(١) انظر : ابن الأثير : الكـامل فى التـاريخ ج ٤ ص ٢٣٦ (بولاق ١٢٧٤ هـ) .

لكن الخليفة الوليد بن عبد الملك لم يرد أن تثبط عزيمة ذلك البطل العربى الذى ملأت شجاعته صفحات مشرفة للبطولة العربية وللعزيمة التى تتحدى اليأس والتى لا تعرف الكلل أو الملل ، فكتب اليه الخليفة يقول : « قد عرف أمير المؤمنين بلاءك وجدك فى جهاد أعداء المسلمين ، وأمير المؤمنين رافعك ، وصانع بك كالذى يجب لك فالمم مغازيك وانتظر ثواب ربك ، ولا تغيب عن أمير المؤمنين كتبك حتى كأنى أنظر الى بلادك والثغر الذى أنت به »[1] .

ولم يخيب قتيبة ظن الخليفة فشمر عن ساعد الجد والجهاد واستمر فى حروبه ففتح كاشغر فى التركستان الصينية ، وكانت أقرب المدن الى الصين وذلك فى سنة ٩٦ هـ (٧١٥ م) . وأرسل الى امبراطور الصين « يوانغ جونغ » وفدا مع رسالة يطلب منه الطاعة والجزية [2] . وذكرت المصادر العربية أن ملك الصين قال لهبيرة بن المشمرج الكلابى زعيم الوفد العربى « انصرفوا الى صاحبكم فقولوا له ينصرف فانى قد عرفت حرصه وقلة أصحابه والا بعثت عليكم من يهلككم ويهلكه » فأجاب هبيرة : « كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله فى بلادك وآخرها فى منابت الزيتون ؟ وكيف يكون حريصا من خلف الدنيا قادرا عليها وغزاك ؟! وأما تخويفك ايانا بالقتل فان لنا آجالا اذا حضرت

(١) الطبرى : تاريخ : ج ٨ ص ٩٦ .

(٢) الأستاذ الصينى المسلم « بدر الدين حى الصينى » : العلاقات بين العرب والصين (مكتبة النهضة المصرية ـ الطبعة الأولى ١٩٥٠) ص ٢٧ .

فأكرمها القتل !! فلسنا نكرهه ، ولا نخافه » قال : « فما الذى يرضى صاحبك ؟ قال : « انه قد حلف أن لا ينصرف حتى يطأ أرضكم ويختم ملوككم ويعطى الجزية » قال : « فانا نخرجه من يمينه ، نبعث اليه بتراب من تراب أرضنا فيطأه ، ونبعث ببعض أبنائنا فيختمهم ، ونبعث اليه بجزية يرضاها » فدعا بصحاف من ذهب فيها تراب ، وبعث بحرير وذهب وأربعة غلمان من أبنــاء ملوكهم ، ثم أجازهم فأحسن جوائزهم ، فساروا فقدموا بما بعث به ؛ فقبل قتيبة الجزية وختم الغلمة وردهم ووطىء التراب »(١).

* * *

والواقع أن مجهودات قتيبة بن مسلم الباهلى العظيمة ومن جاء بعده من القواد العرب زمن الأمويين ، جعلت اقليم ما وراء النهر يندمج بدولة العرب ، وكان ذلك فاتحة لاتصال العــالم الاسلامى بأواسط آسيا وبالجنس التركى الذى أتيح له بعد ذلك أن يكون ذا شأن عظيم فى شئون الدولة الاسلامية وخاصة فى العصر العباسى . كذلك كان لقتيبة بن مسلم ومجهوداته الفضل فى أن تصبح بخارى وسمرقند واقليم خوارزم مراكز للثقافة العربية ولنشر الاسلام فى آسيا الوسطى كما كانت مرو ونيسابور فى خراسان .

كذلك زادت فتوحات قتيبة بن مسلم من الاتصال بين الدولة

---

(١) الطبرى : تاريخ : ج ٨ ص ١٠٠ ــ ١٠١ .

الاسلامية وبين الصين فى أشكالها المختلفة سواء آكان سياسيا أم تجاريا أم دينيا أم فنيا أم ثقافيا .

والمعروف أن العرب حين فتحوا فرغانة فى اقليم ما وراء النهر وجدوا فيها شيئا كثيرا من بدائع التحف الصينية . ولا غرو فان هذه الأقاليم تقع على مقربة من حدود الصين . وكان أهلها متصلين بالصين منذ العصور القديمة ، كما أن صناعا من الصينيين كانوا بين الأسرى الذين وقعوا فى يد العرب حين فتحوا تلك الأصقاع[1] .

وقد ذكرت المراجع التاريخية أن قتيبة بن مسلم الباهلى رضى بهدية امبراطور الصين ، اذ وصل اليه حينئذ خبر وفاة الخليفة الوليد بن عبد الملك وبيعة أمراء دمشق لسليمان بن عبد الملك .

وكان سليمان بن عبد الملك يحقد على قتيبة وغيره من الزعماء الذين استشارهم الخليفة الوليد فى عزله عن ولاية العهد فوافقوا الخليفة على عزله . وقد تحقق ظن قتيبة اذ أرسل الخليفة سليمان ابن عبد الملك يعزل قتيبة وما لبث قتيبة أن قتل .

وتوقفت فتوحات العرب الى الشرق الأقصى بعد وفاة الوليد ابن عبد الملك وبعد مقتل قتيبة ، وتخلصت الصين بذلك من غزو العرب لها . لكن الصين لم تستطع مقاومة نفوذ الدين الاسلامى الذى كان ينتشر بسرعة الى أواسط آسيا مع الفتوحات . ومن الراجح أن بعض أهالى تركستان الصينية قد اعتنقوا الاسلام زمن قتيبة .

(١) الدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ص ١٩ (القاهرة ١٩٤١) .

٢ ـ الفتوح فى الهند

فى أثناء فتح بلاد ما وراء النهر كان هناك جيش آخر يحارب فى الجبهة الشرقية متجها نحو الجنوب ، نحو عالم آخر زاخر بعلوم وثقافة وتقاليد قديمة هو عالم الهند . اذ جهز الحجاج جيشا بقيادة صهره محمد بن القاسم الثقفى وكان حاكما لمقاطعة مكران (فى جنوب ايران) وذلك لفتح بلاد الهند . وكانت هذه البلاد تشبه من الناحية السياسية بلاد ما وراء النهر ، فلم يكن هناك حكومة مبسوطة السلطان عليها وانما كانت كل منطقة أو كل مدينة كبيرة مستقلة عن الأخرى ويحكمها ملك .

ويذكر المؤرخون ان هذا الاقليم مثل اقليم خراسان وما وراء النهر ، وصلت اليه أقدام العرب فى الدور الأول للفتوحات .

ففى خلافة عمر بن الخطاب ركب العرب البحر ووصلوا من عمان والبحرين على الخليج العربى فى شرقى شبه الجزيرة العربية الى شواطىء الهند الغربية . ولما ولى عثمان بن عفان الخلافة ، أمر واليه على العراق ، عبد الله بن عامر ، أن يوجه الى الهند رجلا يستطلع أخبارها ويصفها له ، وفعلا نفذ والى العراق أمر الخليفة. ولكن العرب لم يفتحوا هذه البلاد .

وفى سنة ٣٩ هـ وجه اليها على بن أبى طالب حملة بقيادة الحارث بن مرة فغنم كثيرا من الغنائم والأسرى ولكنه مالبث أن قتل سنة ٤٢ هـ فى بلاد السند .

وفى عهد معاوية بن أبى سفيان غزا بلاد السند المهلب بن أبى صفرة فى سنة ٤٤ هـ وامتدت فتوحه الى الأراضى الواقعة بين

كابل والملتان ولكن كل هذه الغزوات لم تكن منظمة مثلما كانت على يدى الوليد بن عبد الملك والحجاج بن يوسف الثقفى وقواده. ففى سنة ٨٩ هـ (٧٠٨ م) تقدم محمد بن القاسم الثقفى بجيش مكون من ستة آلاف مقاتل من أهل الشام واجتاز حدود ايران ووصل الى بلاد السند وحاصر مدينة الديبل ، وهى مرفأ عند مصب نهر السند (الأندس) وتبعد اليوم نحو ٤٥ ميلا شرقى جنوبى كراتشى ، ورماها بالمنجنيق ، ورمى هيكل بوذا (البُد) فأصابه . وذعر أهلها لما أصاب هيكلهم وهرب ملكهم ، ودخلها محمد الثقفى . وتقدم البطل العربى لمحاربة الملك فيما وراء السند والتقى بجيشه وحاربه وتغلب عليه وتوغل فى البلاد . ومن المدن التى فتحها محمد بن القاسم النيرون وهى حيدرآباد اليوم .

وقد امتدت الفتوحات سنة ٩٦ هـ (٧١٣ م) شمالا الى ملتان فى جنوبى البنجاب وهى مركز دينى شهير لبوذا . وهكذا نرى أنه فى سنوات قلائل بين ٨٩ هـ و ٩٦ هـ أخضع اقليم السند وجنوبى البنجاب .

والمعروف أن محمد بن القاسم الثقفى استولى على جزء كبير من هذه الأراضى صلحا على ألا يتعرض لهياكل البوذيين وأن يبقى معابد النار للمجوس ، أى أن يعامل البوذيين والمجوس معاملة أهل الذمة من النصارى واليهود والصابئة .

وهنا نقف لحظة لنشير الى أن العرب فى عهد الوليد بن عبد الملك فتحوا بلادا تدين بالوثنية والمجوسية ، وحاربوا شعوبا ليست من أهل الكتاب ، فلم يتعرضوا لدياناتهم ولا لمعابدهم

وهياكلهم طالما كان هناك بينهم وبين أهل تلك البلاد مصالحة على هذا ، ودفع الجزية ، التى كان يدفعها أهل الذمة من اليهود والنصارى والصابئة . أما البلاد التى فتحوها عنوة فانهم فرضوا فيها ارادتهم فهدموا المعابد الوثنية وحرقوا الأصنام ، مثلما فعل قتيبة بن مسلم فى بلاد ما وراء النهر .

وهكذا نرى أنه تمت على حدود الهند أول الصلات المتينة بين الاسلام وبين الهند البوذية ، كما اتصل الاسلام بالديانات والثقافات الايرانية والتركية والمغولية والصينية فى بلاد ما وراء النهر .

وكان الحجاج قد وعد قائديه محمد بن القاسم الثقفى ، وقتيبة ابن مسلم الباهلى بجائزة هى الامارة على الصين لمن يصل اليها قبل الآخر . ولكن حدود الصين لم يجتازها هذا أو ذاك . ولا شك أنه كان لوفاة الحجاج والوليد أكبر الأثر فى عدم اتمام ذلك المشروع اذ تغيرت الظروف بوفاتهما وباعتلاء سليمان بن عبد الملك الخلافة . وهكذا بقيت السند جنوبا ، وكاشغر وتاشكند شمالا أقصى حد بلغته الخلافة فى الشرق .

وبعد أن فتح محمد بن القاسم حوض السند ، أنفذ الى العراق عددا كبيرا من الهنود (الزط والسيابجة) ، وكان لهؤلاء الهنود شأن فى حوادث التاريخ الاسلامى خصوصا فى عهد الخليفة المعتصم العباسى . كذلك نقل محمد الثقفى الى العراق آلافا من الجاموس الهندى .

ولا شك أن المسلمين استغلوا هذه الأيدى العاملة كما استخدموا الجاموس لتنمية الزراعة وللاستغلال الاقتصادى .

وكانت نهاية محمد بن القاسم الثقفى محزنة كنهاية قتيبة اذ أن الخليفة الجديد سليمان بن عبد الملك أمر بعزله لأنه كان من حزب الوليد ومن أقارب الحجاج (ابن أخته وصهره) .

وكان سليمان يبغض الحجاج لاشتراكه مع الوليد فيما اعتزمه من عزل سليمان من ولاية العهد وتولية ابنه عبد العزيز .

وهكذا سحب محمد الثقفى من السند وسجن فى واسط ثم انتهت حياة هذا البطل قتلا فى السجن .

٣ ـ الفتوح فى شمال افريقية

لم تكن انتصارات موسى بن نصير ، وطارق بن زياد فى الجبهة الغربية أقل أهمية ونجاحا من انتصارات الحجاج وقواده فى الجبهة الشرقية .

والمعروف أن مصر بعد فتحها على يد العرب فى سنة ٢٠ هـ وما بعدها (٦٤٠ م وما بعدها) أصبحت قاعدة لفتوحات افريقية . وبعد أن بنى عقبة بن نافع الفهرى والى افريقية من قبل معاوية ابن أبى سفيان مدينة القيروان (فى تونس الحالية) سنة ٥٠ هـ (٦٧٠ م) استخدمها قاعدة لحملاته . ومع ذلك فان سيطرة العرب على شمال افريقية لم تكن قوية بعد ، اذ اتحد الروم ، والبربر ، أهل البلاد ، ضد عقبة بزعامة كسيلة وقتل عقبة وانهزم جيشه سنة ٦٤ هـ (٦٨٣ م) واضطر العرب الى التخلى عن كل فتوحاتهم غربى برقة ، وارتد عن الاسلام معظم البربر الذين كانوا أسلموا قبل ذلك . ولم يستطع العرب أن يبادروا الى اعادة

سلطانهم ثانية اذ شغلتهم الفتن الأهلية التى قامت بعد وفاة يزيد ابن معاوية من أجل الخلافة . وانتهز عبد الملك بن مروان فترة هدوء فأرسل الى افريقية جيشا سيره أخوه وواليه على مصر عبد العزيز بن مروان ، وكان قائد هذا الجيش زهير بن قيس البلوى . واستطاع العرب أن يهزموا جيوش الروم والبربر سنة ٧٠ هـ (٦٨٩ م) وقتل فى هذه المعركة كسيلة زعيم البربر ، وترك زهير بن قيس حامية بالقيروان وقفل راجعا الى مصر ، ولكنه فوجىء فى برقة بحملة أنزلها الروم من البحر فقاتلوه هو ومن معه ، وكان النصر للبيزنطيين وقتل زهير ومعظم جنوده .

ولم ينته أمر النفوذ الرومى (البيزنطى) على شمال افريقية ولا المقاومة التى لاقاها العرب من البربر حتى امارة حسان بن النعمان الغسانى نحو ٧٣ — ٧٩ هـ (٦٩٣ — ٦٩٩ م) أى فى عهد عبد الملك بن مروان اذ استعان حسان بالأسطول الاسلامى على طرد الروم من قرطاجة سنة ٧٨ هـ (٦٩٨ م) وغيرها من مدن الساحل . كذلك استطاع حسان أن يحارب البربر ويضيق الخناق عليهم ، وكان يتولى أمرهم كاهنة فذة لها سلطة وتأثير عظيم عليهم فصمدت له وهزمته وتقهقر حسان الى برقة الا أن حسانا غزاها ثانية فقهرها وقتلها فى مكان يعرف اليوم ببئر الكاهنة . وهكذا استرجع حسان افريقية للعرب ونشر لواء الأمن فى ربوعها ، ثم تسلم مقاليد الحكم بعده موسى بن نصير .

وتختلف الرواية فى تاريخ ولاية موسى بن نصير لافريقية اختلافا بيّنا فالبعض يقول انها كانت فى سنة ٧٨ هـ أو ٧٩ هـ فى

عهد عبد الملك بن مروان ، ويقول البعض الآخر انها كانت فى سنة ٨٦ هـ أو ٨٩ هـ فى عهد ابنه الوليد . ونحن نرجح الأخذ بالقول الثانى لأنه أكثر اتفاقا مع سير الحوادث فى افريقية ولأن معظم الروايات تجمع على أن حسان بن النعمان والى افريقية لبث على ولايتها حتى وفاة الخليفة عبد الملك بن مروان ؛ ولما ولى عبد الله بن عبد الملك مصر ، عزل حسان بن النعمان عن ولاية افريقية واختار لولايتها موسى بن نصير .

أما موسى بن نصير فهو من أعظم الزعماء والقادة المسلمين ، ولا نعرف شيئا كثيرا عن حياته قبل ولايته لحكم افريقية، ومع ذلك فاننا نعرف أنه من التابعين (أى الطبقة الثانية التى تأتى بعد الصحابة) وأنه ولد فى سنة ١٩ هـ فى خلافة عمر بن الخطاب فى قرية من قرى الجزيرة على قول ، أو بوادى القرى فى شمال الحجاز على قول آخر . وتقول الرواية انه ينتسب الى بكر بن وائل (من القبائل العدنانية) وان أباه نصيرا كان من النصارى الذين رآهم خالد بن الوليد عندما فتح العراق يقرأون الانجيل فى كنيسة فى عين التمر (قرب شفاثا الحالية فى العراق) فسباهم فى سنة ١٢ هـ . وقيل انه ينتسب بطريق الولاء الى بنى لخم وان أباه نصيرا كان على حرس معاوية بن أبى سفيان ، ثم كان وصيفا لعبد العزيز بن مروان فأعتقه (١) .

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان . ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧ ، الطبرى : تاريخ ج ٤ ص ٢٢ ، وابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٧٦ وما بعدها (طبعة القاهرة ١٢٩٩ هـ) .

وتقلب موسى بن نصير فى بعض المناصب الحربية والادارية الهامة قبل أن يعهد اليه بحكم افريقية فقاد بعض الحملات البحرية فى خلافة معاوية بن أبى سفيان ، وتولى قيادة الجند فى مصر أيام ولاية عبد العزيز بن مروان عليها . وقيل ان عبد الملك بن مروان حينما ولى أخاه بشر بن مروان على العراق سنة ٧٣ هـ ندب موسى بن نصير من مصر لمعاونته . ولما ولى الحجاج حكم العراق سنة ٧٥ هـ عاد موسى الى مصر فى خدمة أميرها عبد العزيز . وأرسله عبد العزيز بن مروان فى سنة ٨٤ هـ الى برقة وهناك اختبر مفاوز افريقية وقام بفتوحات كما سبى من أهلها جموعا غفيرة .

أما الوليد بن عبد الملك فانه جعل موسى بن نصير واليا على افريقية على أن يحكمها من القيروان ويتبع الخليفة مباشرة . وأصبحت افريقية منذ ذلك الحين ولاية مستقلة فى حكمها عن مصر بعد أن كانت منذ بدء الفتوح العربية تتبع مصر فى الادارة وتتلقى منها الجيوش الفاتحة .

وما كاد موسى يلى حكم افريقية حتى عاد أهل البلاد الى الثورة من جديد ، ولكن موسى بن نصير مزق جموع الثوار بيد من حديد ودوخ قبائل البربر القوية مثل هوارة وزناتة وكتامة وصنهاجة ، ثم سار الى طنجة وهى آخر معقل اعتصم به الثوار ولم يكن قد غزاها العرب بعد فافتتحها وولى عليها جنديا عظيما هو طارق ابن زياد الليثى .

وكان الروم يهددون سلطان العرب فى افريقية عن طريق البحر المتوسط الذى كان العرب يسمونه بحر الروم ولذا نرى موسى

ابن نصير يبنى دارا عظيمة للصناعة (بناء السفن) على مقربة من أطلال قرطاجة وأنشأ أسطولا ضخما لحماية الثغور . وسير موسى ابنه عبد الله فى السفن الى الجزر القريبة فغزا جزائر البليار ، وكانت تابعة لملك أسبانيا القوطى ، وافتتح منها ميورقة ومنورقة. وسارت حملات بحرية أخرى الى صقلية وسردانية (سردينيا) وعادت مثقلة بالغنائم والسبى . وهكذا بسط العرب سلطانهم على شمال افريقية كله فى البر والبحر ، ولم يبق من ثغوره بيد النصارى بعد افتتاح طنجة سوى ثغر سبته الواقع فى نهاية البحر المتوسط شرقى طنجة وعلى مجاز الزقاق (مضيق جبل طارق فيما بعد) .

واستمال موسى بن نصير اليه وجوه القبائل فى شمال افريقية واهتم بنشر الاسلام بين البربر اهتماما عظيما . وكان معظم البربر الذين سكنوا الساحل الضيق الخصيب على البحر قد اعتنقوا النصرانية قبل الفتح الاسلامى بقليل وفيما عدا هذا فلم تؤثر فى البربر الحضارة الرومانية أو البيزنطية وذلك لعدم اختلاط الرومان والبيزنطيين بهم . أما العرب فقد استطاعوا بعد أن استقروا هناك أن ينشئوا صلات وثيقة معهم ، ثم استطاعوا أن يجندوا منهم جندا جددا ، اذ حشد موسى فى جيشه آلافا من البربر المسلمين الذين تسابقوا فى مضمار الفتوحات التالية .

وكان موسى بن نصير يتوق الى افتتاح ثغر سبتة الحصين ، على أن مشاريعه فى الفتح لم تكن تقف عند سبتة بل كانت تجاوزها الى ما وراء ذلك البحر الذى سيطر العرب على شواطئه

الشرقية والجنوبية وعلى جزره القريبة ولكنهم لم يعرفوا بعد شيئا أو لم يعرفوا سوى القليل عن شواطئه الشمالية والغربية .

٤ ـ فتح الأندلس

تطلع موسى بن نصير الى الاستيلاء على ثغر سبتة والى غزو شبه جزيرة أيبريا ، أو اسپانيا ، وهى مدخل أوربا الجنوبى الغربى . أما أهل اسپانيا فكانوا قديما من الكلت القدماء (Celts) ثم وصلها الاستعمار اليونانى وبعد ذلك استعمرها الفينيقيون وضموها الى قرطاجة فى شمال افريقية . ومن اسپانيا ذهب القائد الفينيقى العظيم هانيبال ليفتح ايطاليا . وبعد سقوط قرطاجة على يد الرومان ، دخلت اسپانيا تحت حكم الرومان . وسكن اسپانيا جماعات مختلفة من البرابرة الذين انتشروا آنئذ فى أنحاء الامبراطورية الرومانية مثل القوط الشرقيين والسويف والآلان وكذلك الوندال (الڤاندال) الذين سيطروا على شرقى الجزيرة ووسطها . ثم سيطر القوط الغربيون الذين يقيمون فى جنوبى غالة (فرنسا الحالية) على المتبربرين فى اسپانيا وحاول الوندال المقاومة ولكن القوط الغربيين تغلبوا عليهم وأجبروهم على التقهقر نحو الجنوب . وما لبث زعيم الوندال أن اضطر الى العبور الى افريقية فى القرن الخامس الميلادى أمام ضغط القوط الغربيين، وعرف جنوب اسپانيا منذ ذلك الحين باسم ڤاندالوسيا أو اقليم الڤاندال وعنه أخذ العرب لفظ « الأندلس » الذى أطلقوه فيما بعد على شبه الجزيرة كلها .

وقد كون القوط الغربيون دولة قوية فى اسپانيا ، غير أن أمرهم ما لبث أن ضعف بمرور الزمن الى أن حكمهم غيطشة (وتيزا Witiza) . وتذكر الروايات أن أحد الأمراء واسمه روديكو Roderic أو لذريق ، ثار وعزل غيطشة وقتله وانتخب ملكا فى سنة ٧١٠ م (٩١ هـ) وفر أبناء غيطشة من اسپانيا الى افريقية ، وصادر لذريق أملاكهم معتبرا اياهم ثائرين على العرش. وقد انضموا بعد ذلك الى العرب وعاونوهم على فتح البلاد . وكان الكونت يثليان (جوليان) حاكم مدينة سبتة من أعداء لذريق ومن حزب أبناء الملك غيطشة .

أما العرب فانهم كانوا فى ذلك الحين يتطلعون الى فتح اسپانيا . والواقع أن أهداف فتح اسپانيا سارت مع الأهداف العامة للفتوح الاسلامية ، التى كان من أهمها نشر لواء العروبة والاسلام . ويذكر بعض المؤرخين أن الأندلس غزيت من جهة البحر فى خلافة عثمان بن عفان فى سنة ٢٧ هـ [1] . على أن المؤرخين يتفقون جميعا على أن فتح اسپانيا واستقرار المسلمين فيها كان فى خلافة الوليد بن عبد الملك .

والواقع أن الفتوح العربية كانت تتدافع كأمواج البحر ، موجة فى اثر موجة ، فنرى العرب يفتحون العراق ثم ايران حتى يصلوا الى السند والهند والى ما وراء النهر حتى حدود الصين ، ونراهم يفتحون الشام ثم مصر وبعدها شمال افريقية حتى يصبح

---

(١) ابن عذارى المراكشى : البيان المغرب فى اخبار المغرب ج ٢ ص ٥ (مكتبة صادر ـ بيروت) .

بينهم وبين الأندلس ذلك المضيق الضيق ، أو الزقاق ، الذى عرف فيما بعد باسم مضيق جبل طارق .

وكان طارق بن زياد ، ومن معه من جند العرب والبربر على الساحل المغربى عند طنجة وما حولها ، يتطلعون الى ميدان جديد يفتح الله فيه عليهم . ولا شك أن أنظار طارق حينئذ بدأت تتجه نحو حصن سبتة الذى عجز المسلمون عن الاستيلاء عليه مرتين : فى المرة الأولى كان يقودهم عقبة بن نافع وفى المرة الثانية موسى ابن نصير .

وكان صاحب سبتة وما حواليها فى ذلك الوقت هو يليان . ونستدل من أبحاث المستشرق الهولندى دوزى Dozy والمستشرق الاسپانى ساقدرا Saavedr أن اقليم سبتة كان تابعا فى ذلك الحين للدولة البيزنطية وليس لاسپانيا القوطية كما هو معروف وشائع[1]. وبدأ يليان ولايته فى سن صغيرة وأقام فى هذه الناحية زمانا طويلا ، ولما كان هذا الاقليم بعيدا عن بيزنطة ، وكان العرب قد نجحوا حتى ذلك الحين فى القضاء على معظم المستعمرات البيزنطية وفى القضاء على الحكم البيزنطى فى شمال افريقية وكانت أمور بيزنطة آنذاك مضطربة اضطرابا لا يمكنها من الاشراف على ولاياتها القريبة فضلا عن البعيدة ، فقد تحرر الكونت يليان من نفوذ وسلطان الدولة البيزنطية وأصبح حاكما مستقلا . ولما انقطعت عنه الامدادات من الدولة البيزنطية بدأ يوثق علاقاته بمن جاوره من قبائل البربر ليكسب ودها واختلط

(١) راجع: فجر الاندلس للدكتور حسين مؤنس (القاهرة ١٩٥٩)

الأمر على الناس وحسبوه بربريا ، ويصفه ابن خلدون بأنه رومى، وزعم البعض مثل ابن عـذارى أنه قوطى . ويذكر المؤرخ ابن الأثير أن عقبة بن نافع لقى يليان سنة ٦٣ هـ (٦٨٣ م) كذلك تذكر الروايات أن موسى بن نصير عرف يليان عند وصوله الى اقليم طنجة سنة ٨٩ هـ (٧٠٩ م) ولما انصرف موسى الى القـيروان وخلف طارقا على طنجة وما جاورها أحس يليان خطر المسلمين وضغطهم عليه وبدأ يصانعهم . ونعرف أن طارقا حاول الاستيلاء على سبتة فلم يستطع فاكتفى بمودة صاحبها .

وتجمع المراجع العربية كلها على أن يليان هو الذى دعا موسى ابن نصير لغزو الأندلس ، وكشف له عن ضعفها وهون عليه من أمرها . وتجعل الروايات سبب ذلك قصة ملخصها أن يليان كان قد أرسل ابنته الى قصر لذريق لتتأدب وتنشأ فيه أسوة ببنات كبار القوط ، ولكن لذريق طمع فى الفتاة ونال منها ، فكتبت الى أبيها بخبرها . وأحفظ ذلك قلب يليان وفكر فى الانتقام منه فاتصل بطارق وأخذ يزين له فتح الأندلس ويحرضه عليه حتى وفق لما أراد ، ثم جعل نفسه وأتباعه أدلاء للعـرب فى الأندلس يدلونهم على طرقها وبلادها ومواضع الضعف فيها . ويقال أيضا ان يليان كان يمت بصلة النسب الى أسرة الملك المخلوع غيطشة ، واتصل أبناء غيطشة بالكونت يليان لكى يعمل على أن يمدهم العرب بقوة ترد لهم ملكهم فى نظير أن يؤدوا للعـرب أموالا يتفق عليها .

والواقع أن كل هذه القصص وكل ما نسج من أساطير حول

فتح الأندلس لا يمنع تعليل فتح العرب للأندلس تعليلا معقولا ، اذ كان دخول العرب الأندلس هو الأمر المنتظر اذا استعرضنا الظروف التى سادت المغرب خلال السنوات التى سبقت الفتح . فقد كان طارق يقيم على الزقاق ومعه عدد عظيم من الجند العربى والبربرى ويتطلع معظمهم الى الفتح والجهاد . ولم يكن يليان مطمئنا فى بلاده بعد أن حاول المسلمون أكثر من مرة فتح معقل سبتة الحصين كما كان جند طارق من البربر يعلمون عن الأندلس شيئا كثيرا ولا بد أن نفوسهم كانت تنازعهم الى خيراته ، فضلا عن أن فتح الأندلس كان خطوة لابد منها بعد فتح شمال افريقية والمغرب . على أن الذى لا شك فيه أن يليان كان يدرك تمام الادراك أن العرب صاروا قوة لا يمكنه الوقوف أمامها محتفظا بولايته . وتذكر الروايات العربية أن يليان لم يكتف بمخاطبة طارق فى الأمر ، بل تكلف مشقة الذهاب للقاء موسى فى القيروان ليقنعه بسهولة فتح اسپانيا . وقد رحب موسى بيليان وبعرضه ولكنه شك فى معلوماته فطلب اليه أن يقوم بسرية (غزوة) فى جنوبى الأندلس ليتأكد من عدائه للملك لذريق وأنه لا يخشى الاغارة على بلاده وليرى بعينيه رد الفعل الذى يحدثه مثل ذلك العمل . وفعلا قام يليان بغارة سريعة على الأندلس عاد بعدها محملا بالغنائم والسبى فكان ذلك أكبر حافز لموسى على الاقدام على الفتح .

وكتب موسى بن نصير الى الخليفة الوليد بن عبد الملك يستأذنه فى الفتح فكتب اليه الخليفة ألا يزج بالمسلمين فى أهوال

البحر . فلما ردّ موسى بأنه مضيق يرى شاطئه الآخر ، نصحه الخليفة بأن يكون حذرا وأن يختبر بلاد الأندلس بسرية صغيرة قبل أن يغامر بجيش كبير .

نفذ موسى تعليمات الوليد فأرسل الى الأندلس سرية بقيادة مولى له يدعى أبو زرعة طريف بن مالك وهو من البربر ، ويقال أيضا انه عربى . وكانت حملة طريف للاستطلاع والاستكشاف ، وكانت عدتها أربعمائة راجل ومائة فارس . وعبر المسلمون البحر من سبتة فى أربع سفن قدمها يوليان ونزلوا فى جزيرة صغيرة تسمى پالوماس Palomas وهى التى عرفت منذ ذلك الحين باسم جزيرة طريف أو رأس طريف أو تريفا عند الاسپان Tarifa وساعدت المسلمين قوة من أنصار يليان وأبناء غيطشة فقامت بحراسة المعبر حتى تم نزولهم على الأرض الاسپانية وكان ذلك فى رمضان سنة ٩١ هـ (يوليو — تموز ٧١٠ م) . ومن جزيرة طريف ، قام طريف وأصحابه بسلسلة من الغارات السريعة على الساحل وغنم المسلمون غنائم كثيرة وأخذوا سبيا عديدا وشهدوا كثيرا من دلائل خصب الجزيرة وغناها ثم عادت الحملة فى سلام .

ولما رأى موسى بن نصير الغنائم وانتصار طريف ، ولمس النزاع بين رجال الحكم فى مملكة اسپانيا القوطية ، أخذ يعد العدة لارسال حملة عظيمة تقوم بالفتح الحقيقى . واختار لقيادة هذه الحملة مولاه طارق بن زياد الذى كان يحكم طنجة فى ذلك الحين .

ولا تحدثنا الرواية الاسلامية عن فاتح الأندلس بشىء قبل

ولايته لطنجة . وتختلف الرواية فى أصله ونسبته فيقال انه فارسى من همذان ، كان مولى لموسى بن نصير ، وقيل انه من سبى البربر، وقيل انه بربرى من بطن من بطون نفزة (نفرة) . ويبدو أن أباه زيادا أسلم أيام عقبة بن نافع وخلفه ابنه طارق فدخل فى خدمة ولاة المسلمين .

وكان عدة جيش طارق اثنى عشر ألفا وكان الجيش يكاد يكون من البربر فقط ويقال ان موسى أرسل مع طارق أيضا عددا من كبار الجند العرب وموالى الأمويين .

ونزل طارق بالبقعة التى ما زالت تحمل اسمه الى اليوم ، أعنى جبل طارق كما عرف المضيق باسم مضيق جبل طارق ثم سار طارق صوب طليطلة عاصمة القوط وفى الطريق هزم القوط الذين تصدوا له ، والتقى طارق بجيش لذريق فى موقعة حاسمة فى سهل شريش Xeres على مقربة من قادس شمالى شذونة . ولم يأت اليوم السابع من اللقاء حتى تم النصر لطارق وجنده وهزم القوط شر هزيمة (رمضان سنة ٩٢ هـ — يوليو — تموز ٧١١ م) وتعرف هذه المعركة باسم معركة شريش أو وادى لكة لأنها كانت على بحيرة على نهر عرف باسم وادى لكة أو بكة (الجواداليت Guadalete) . وكان الجيش الاسپانى قبل نشوب معركة شريش أضعاف جيش طارق فبعث طارق يطلب المدد من موسى فعجل موسى بارسال خمسة آلاف من خيرة جنده يقودهم طريف بن مالك فأدركوا طارقا قبيل المعركة وقويت بهم نفسه ونفوس من معه . ومع ذلك فانه حتى بعد وصول المدد الى طارق كان الجيش

الاسپانى أضعاف جيش طارق ولكن كانت تنقصه الروح المعنوية فكان به كثير من العبيد والأرقاء كما كان به نفر من الأسرة المالكة القديمة أو من أنصارها . وتذكر الروايات أن طارق بن زياد خطب فى جنده قبيل نشوب المعركة الحاسمة خطبة تعتبر نموذجا بديعا من الحماسة الحربية والفصاحة وقد جاء فيها : « أيها الناس ! أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم . وليس لكم والله الا الصدق والصبر . واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام . وقد استقبلكم عدوكم بجيوشه وأسلحته وأقواته موفورة ، وأنتم لا وزر لكم الا سيوفكم ، ولا أقوات لكم الا ما تستخلصونه من أيدى عدوكم .. » الى آخر ما جاء فى هذه الخطبة من بث روح الحماس والاستبسال بين الجنود[1].

وذكر بعض المؤرخين أن طارقا أمر باحراق السفن التى عبر عليها جيشه بعد وصوله الى الشاطىء الأندلسى وذلك ليدفع جنده الى الاستبسال فى سبيل النصر . وهذه الواقعة ليست من الأمور المستحيلة على قائد عظيم مثل طارق . ومع ذلك فنحن نعرف من الروايات المختلفة أن السفن التى عبر عليها المسلمون كانت قليلة ، كما أنها لم تكن ملكا لهم وانما كانت ملكا للكونت يليان .

ويذكر المؤرخون العرب أن لذريق قتل فى معركة شريش ، أو غرق ولم يعثر على جثته . أما المؤرخون الاسپان مثل ساقدرا فيقولون ان لذريق أفلت ليقاتل بعد ذلك فى ظروف أكثر ملاءمة ،

---

(١) انظر : المقرى : نفح الطيب ج ٢ ص ١٥٠ ـ ١٥٣ (مطبعة عيسى البابى الحلبى بمصر) .

وأنه بعد معركة شريش بسنتين انقض على جيش موسى فى موقعة لم يذكرها من المؤرخين المسلمين الا المؤلف المجهـول صاحب « أخبار مجموعة فى فتح الأندلس » وهى موقعة السـوانى أو السواقى على مقربة من تمامس Tamames . ولكن المسلمين وثبوا على لذريق وجيشه وأفنوهم عن آخرهم وقتل لذريق بيد مروان بن موسى بن نصير . وكانت هـذه الموقعـة التى يكاد المؤرخون يهملونها تماما هى الأساس الذى دارت حوله الملاحم الاسپانية التى نشأت فيما بعد حول لذريق آخر ملوك القـوط وحول دفاعه عن بلاده .

ويذهب بعض المؤرخين الى أن المسلمين لم يطلبوا فى البداية الا الغنيمة والعودة الى افريقية ، وان فتحهم للأندلس أخذ طابعا آخر بعد انتصار طارق الحاسم فى معركة شريش . لكننا اذا تذكرنا ما فعله موسى قبل ارسال طارق الى الأندلس وهو التأكد مما ذكره يليان ، ثم استئذان الخليفة ، ثم ارسال طريف ، بدا لنا أن فكرة الغزو والرجوع الى افريقية فكرة بعيدة الاحتمال . كذلك جرى العرب فى فتح اسپانيا على أسلوبهم فى الفتوحات السابقة وهو ارسال قوات صغيرة تعقبها الامدادات .

وعلى اثر موقعة شريش الحاسمة ساد الرعب بين القـوط فامتنعوا بالحصون والجبال وأخذ طارق يتقدم فى الفتح . ولم يكد خبر نصره يصل الى افريقية حتى فاض سـيل البربر على الأندلس وتبع ذلك تضخم جيش المسلمين مما جعل طارقا يفرقهم فى بعوث صغيرة الى مختلف النواحى . وكان جيش المسلمين يزداد

عددا بمن كانوا ساخطين على لذريق وعهده . وفى الطريق الى طليطلة فتح المسلمون بلادا كثيرة ثم دخل طارق طليطلة عاصمة القوط وأخذ يتابع زحفه شمالا حتى عبر جبال اشتوريش (استورية) واستمر فى سيره حتى أشرف على خليج بسكونية (غسقونية) ثم عاد الى طليطلة حيث تلقى أوامر موسى بن نصير بألا يبرح مكانه . وهكذا استطاع طـارق وقد قصد الأندلس فى ربيع سنة ٩٢ هـ (٧١١ م) أن يحتل فى صيف السنة نفسها أكثر من نصف اسپانيا وأن يقضى على مملكة القوط هناك .

وبعد أن فتح المسلمون طليطلة عاصمة اسپانيا ، تقدم أبناء غيطشة الى طارق يطلبون اليه الوفاء بما وعدهم به من حسن الجزاء . ويبدو أنهم كانوا يؤملون أن ينسـحب طارق وجنـد المسلمين معه من البلاد مكتفين بما أصابوا من الغنيمة ويعـود آل غيطشة الى ما كانوا فيه من الملك والسلطان . ولكن طارقا خيب رجاءهم وأظهر أنه أقبل الى البـلاد للفتح الثابت ونشر الاسلام ، ووجد أنهم لا يستحقون أكثر من ضياع أبيهم الكثيرة فأعطاها لهم . والظاهر أنهم طمعوا فى المزيد ، ولما لم يستطع طارق اجابتهم الى ما سألوا ، استأذنوه فى المسير الى موسى بن نصير فى افريقية وسألوه الكتابة اليه بشأنهم وما أعطاهم من عهـد ففعل . ولما ذهبوا الى موسى أقر طارقا على ما فعل بعد أن استوثق من صدق معاونتهم للمسلمين . ويبدو أنهم ألحوا على موسى فى الزيادة فأحالهم على الخليفة نفسه ، ولكن الوليد بن عبد الملك أقر عهد موسى وطارق .

وتقول الروايات ان موسى بن نصير لما علم بانتصارات طارق الباهرة أخذته الغيرة من مولاه الذى نال الغنائم الكثيرة وكان له شرف النصر والفتح فطلب من طارق أن يتوقف وألا يبرح مكانه حتى يلحق به . والحق أننا نستبعد مثل هذه الروايات لأن مسئولية الفتح وتبعته تقع على عاتق موسى أمام الخليفة ، كذلك يظهر من الحوادث والروايات المختلفة ان طارقا كان رجلا متواضعا وأنه فتح الفتوح كلها باسم مولاه وباسم الخلافة . والمعقول أن يكون موسى قد شعر بأن المسلمين استرسلوا فى الفتح أكثر مما ينبغى وأن خطوط مواصلاتهم فى شبه الجزيرة الواسعة قد كانت فى خطر ، فخاف أن يندفع الجيش فتقطع عليه خطوط رجعته وامداده . وقد حدث هذا بالفعل فى التاريخ الحديث لجيش نابليون فى إسبانيا بالذات . ويذكر ابن قتيبة فى كتابه « الامامة والسياسة » ، أن موسى عبر الأندلس بناء على استغاثة طارق بن زياد . وبالرغم من انفراد صاحب الامامة والسياسة بهذه الرواية الا أنها رواية معقولة تفسر لنا الأحداث حينذاك ، فلو كان موسى يريد أن يعبر الأندلس ليطلع على نتيجة ما وصل اليه طارق لعبر مع عدد قليل من الجند ، ولكن موسى بن نصير عبر بجيش تزيد عدته على جيش طارق بكثير . وكانت الظروف كلها تحتم على موسى الاسراع الى الأندلس لمساعدة طارق ، اذ كان المسلمون قد ساروا فى البلاد شوطا بعيدا دون أن يستوثقوا من سلامة خطوط مواصلاتهم ، ولم يكن بيدهم من المعاقل الكبيرة سوى قرطبة ، وكانت هناك طوائف من القوط مفرقة فى البلاد تستطيع

أن تنقض على جماعات المسلمين القليلة المتفرقة على طول الخط الطويل من جبل طارق الى طليطلة وما يليها . والظاهر أن القوط كانوا يتجمعون فى تلك الأثناء ويدبرون شيئا ويبدو أن طارقا أحس بخطورة الموقف ودعاه ذلك الى الاستنجاد بموسى . أما يليان فكان يقيم معظم الوقت فى الجزيرة الخضراء فى الأندلس يؤمن ظهور المسلمين . وعبر موسى الى الأندلس على رأس جيش كبير من العرب والبربر فى سنة ٩٣ هـ (٧١٢ م) وخف يليان للقائه وعقد معه مجلسا للتشاور . ولو كان موسى قد جاء ليلقى طارقا وليحاسبه على ما فعل كما تذهب الروايات لسار الى طليطلة ؛ لكن موسى سار نحو اشبيلية حتى لا يترك هذا المعقل الخطر فى أظهر المسلمين دون فتح[1] . وتم لموسى فتح اشبيلية بعد أن حاصرها عدة أشهر ، وكانت اشبيلية من أكبر مدن الأندلس وأرقى المراكز الفكرية فيها وكانت فوق ذلك قاعدة اسبانيا قبل تغلب القوط عليها .

ثم سار موسى نحو طليطلة فالتقى بطارق على مقربة منها . وهنا يذكر المؤرخون رواية عن مغيث الرومى ، مولى الوليد ، الذى كان يحنق على موسى وينكر فضله فى الفتح ، اذ يذكر أن موسى بالغ فى اهانة طارق وزجه فى السجن بتهمة الخروج والعصيان وقيل بل هم بقتله أيضا . وقيل ان طارقا استطاع وهو فى سجنه أن يبث شكواه الى الخليفة الوليد فكتب الخليفة الى

---

(١) الدكتور حسين مؤنس : فجر الأندلس : ص ٩٠ (القاهرة ١٩٥٩) .

موسى باطلاقه ورده الى عمله فعفا عنه موسى وسار الاثنان لافتتاح ما بقى من اسپانيا .

ومثل هذه الرواية لا يمكننا الأخذ بها لأن موسى بن نصير فى كبر سنه وعلو شأنه لا يمكن أن تأخذه الغيرة من مولاه الذى ولاه الفتح بنفسه ، كذلك كانت تبعة الفتح تقع على عاتق موسى أمام الخليفة ، وكان موسى هو الذى يدبر خطط الفتح قبل عبوره الى الأندلس .

وقد يكون حدث عتاب أو جفوة بين موسى وطارق لأن طارقا كان قد تقدم فى الفتح أكثر مما ينبغى ولما تثبت أقدام المسلمين فى البلاد بعد متحديا بذلك أوامر مولاه ، لكن موسى كان من الحكمة بحيث انه سرعان ما اتفق مع طارق واشترك الرجلان اشتراكا كاملا فى العمل . ويذكر المقرى رواية تنفى ما قيل عن حسد موسى لطارق ، فيقول : « ولما سمع موسى بن نصير بما حصل من النصرة لطارق عبر الجزيرة بمن معه ولحق بمولاه طارق فقال له : يا طارق انه لن يجازيك الوليد بن عبد الملك على بلائك بأكثر من أن يمنحك الأندلس ، فاستبحه هنيئا مريئا . فقال له طارق : أيها الأمير والله لا أرجع عن قصدى هذا ما لم أنته الى البحر المحيط أخوض فيه بفرسى[1] » .

ويذكر المؤرخون أن جيش موسى بن نصير كان يضم ثمانية عشر ألفا من خيرة جنده ، وكان معظم هذا الجيش من

---

(١) المقرى : نفح الطيب . ج ٢ ص ١٥٥ .

العرب ومعهم اتباعهم ومواليهم . وكان العرب الذين ذهبوا مع موسى هم أول جماعة كبيرة من مهاجرى العرب الى الاندلس ويعرفون عند المؤرخين باسم « طالعة موسى » وسيكون لهؤلاء الجماعة الصدارة بين مسلمى الأندلس زمنا طويلا واثر عظيم فى مجريات الأمور .

وقد فتح موسى البلدان التى لم يفتحها طارق ، وساعده ابنه عبد العزيز فى عمليات الفتح . وفى تلك الاثناء قام نفر من بقايا القوط وانصارهم فى طليطلة بثورة ضد المسلمين منتهزين فرصة خروج طارق وجنده منها فاضطر موسى الى فتحها من جديد ، كذلك قامت ثورة فى اشبيلية أخضعها عبد العزيز بن موسى بن نصير .

ثم بعث موسى برسولين الى الخليفة الوليد ليطلعاه على آخر ما وصل اليه الفتح العظيم ، وكان هذان الرسولان هما التابعى على بن رباح ، ومغيث الرومى .

وقسم موسى جيش المسلمين قسمين : قسم بقيادته هو وقسم بقيادة طارق وسار طارق نحو جبال كنتبرية واستولى على أمايا واشترقه وليون . أما موسى فقد أكمل فتوحه فى اقليم قشتالة وقضى على المقاومة التى لقيها فى المقاطعة التى سماها العرب بلد الوليد (ڤاليا دوليد الحالية) ثم أكمل سيره شمالا حتى بلغ خيخون Gijon فى أقصى الشمال ثم بعث سرية من فرسانه أدركت البحر عند صخرة پلاى Pena de Pelayo .

وهكذا تم فتح اسپانيا عدا الأقاليم الجبلية فى الشمال الغربى

فى نواحى أشـتريس وجليقية التى التجأ اليهـا أشراف القوط وكبراؤهم .

وأطلق العرب اسم الأندلس على المناطق التى كانوا يسيطرون عليها كما سموا بلاد الأندلس باسم الجـزيرة . ولا زال اسـم الأندلس يطلق على الجزء الجنوبى من شبه جزيرة ايبريا .

ولم تقف أطماع موسى بن نصير عند حـد جبـال البرت (البرانس أو البرنيه) بل عزم على فتح بلاد غالة أو فرنسا الحالية على أن يتجه شرقا حتى يصل الى القسطنطينية عاصمة الروم التى عجز العرب عن فتحها ثم يستمر فى فتوحه حتى يلحق بحاضرة الخلافة وبذلك يجعل البحر المتوسط بحيرة عربية .

لكن الخليفة الوليد بن عبد الملك كتب الى موسى بن نصير يحذره من التوغل بالمسلمين فى دروب مجهولة ويأمره بالعودة . وما لبث أن وصل اليه كتاب آخر من دمشق يستدعيه وطارقا ويأمرهما بالتعجيل فى العودة .

ولعل أقوى البواعث التى حملت الوليد على هذا الاستدعاء ما نما اليه من خلاف موسى وطارق ، وخوفه ان صح هذا القول، أن ينتهى هذا الخلاف بتفرق كلمة المسلمين ونكبتهم فى تلك البلاد الجديدة المجهولة التى افتتحوها .

وربما كان من هذه البواعث أيضا ما بلغ الوليـد عن وفرة الأموال والتحف التى غنمها المسلمون وخوفه أن تمتد اليهـا يد التبديد .

وقبل أن يعود موسى الى دمشق نظم حكومة الأندلس بقدر

استطاعته ، واختار اشبيلية حاضرة لها ، وعيّن ولده عبد العزيز واليا عليها ، واستخلف على المغرب الأقصى ولده عبد الملك ، كما استخلف على افريقية عبد الله أكبر أولاده . ثم غادر موسى بن نصير الأندلس ، وبصحبته طـارق بن زياد وكبار الجنـد فى ذى القعدة سنة ٩٥ هـ (٧١٤ م) ويقال ان يليان كان معهم .

وكان موكب موسى الى دمشق من الموضوعات التى أفاض فى وصفها الرواة والاخباريون العرب وتقلها المؤرخون مثـل ابن عبد الحكم وابن قتيبة وابن القوطية والمراكشى وابن عذارى وابن خلكان والمقرى وابن الأثير . ويقال ان موكب موسى اشتمل فيما عدا حاشيته الخاصة على أربعمائة من أفراد الأسرة المالكة القوطية وأسر النبلاء تزين رءوسهم التيجان وتطوق أوساطهم الأحزمة الذهبية ، ومعهم جموع من العبيد والأسرى يحملون نفائس الغنائم . ووصل موسى الى دمشق فى جمادى الأولى سنة ٩٦ هـ (فبراير — شباط ٧١٥ م) قبل وفاة الخليفة الوليـد بنحـو أربعين يوما . واستقبله الوليد استقبالا رائعا . وأذهل موسى الناس بما أتى به من الخيرات والمغانم والأسرى . وكان موكب النصر هذا موكبا مشهودا فى تاريخ العروبة والاسلام ، اذ لم ير الناس من قبل مثل هذا العدد من أمراء الغرب والأسرى الأوربيين وقد جاءوا يقدمون الولاء والطاعة لأمير المؤمنين . وكان من أبرز ما قدمه موسى الى الخليفة الوليد من الغنائم التذكارية النفيسة مائدة تفوق قيمتها كل تقدير كان طارق قد غنمها من كاتدرائية طليطلة ، وكان القوط قد تفننوا فى صنعها فنسبها العرب الى

سليمان بن داود وسموها « مائدة سليمان » . وكان مما قدم للخليفة الدر والياقوت آكيالا ، والسيوف المحلاة بالجواهر ، والتيجان المرصعة بالحجارة الثمينة ، وآنية الذهب والفضة وغير ذلك مما لا يحيط به وصف .

ولم يلبث الوليد أن توفى وولى الخلافة سليمان بن عبد الملك وكان قلبه متغيرا على موسى ، ذلك ان سليمان بن عبد الملك لما أحس باقتراب منية أخيه كتب الى موسى يأمره بأن يتريث حتى يصل بعد وفاة الوليد فتؤول الذخائر والنفائس التى كان يحملها موسى الى سليمان . ولكن موسى لم يتريث بل سار سيره العادى حتى لقى الوليد . وكان طبيعيا ألا ينتظر موسى خيرا كثيرا بعد وفاة الوليد . وكان مصير موسى لا يتناسب مع أعماله اذ جرده الخليفة سليمان من سلطته وصادر أمواله بل ان الانسان يكاد لا يصدق ما ترويه المصادر المختلفة عن تعذيب الخليفة سليمان ابن عبد الملك لبطل فتح الأندلس . والراجح أن الخليفة سليمان أهمل موسى وتركه فى زوايا النسيان وان كنا لا نستبعد أعمال القسوة والعنف ونكران الجزاء من خليفة مثل سليمان الذى قضى على القواد العظام أصحاب الفضل فى انشاء الامبراطورية العربية ، لا لشىء سوى ارضاء أحقاده الشخصية ..

ولا شك أن موسى هو الذى وضع أساس ما بلغه المسلمون من حضارة وقوة فى غربى البحر المتوسط هذا الى ما كان للفتح الأندلسى من آثار بعيدة المدى . وليس من شك فى أن موسى كان

يريد مواصلة الفتح اذا عاد ، فكان عدم عودته للأندلس حرمانا لمسلمى الأندلس من هذه القوة الدافعة . ومن ناحية أخرى وجد بقايا القوط الفرصة ليستريحوا بعد هذه الحروب وليستعدوا لصراعهم الطويل مع المسلمين من جديد . وتذكر المراجع ان موسى توفى سنة ٩٧ هـ أو ٩٩ هـ وهو فى طريقه الى الحج فى رفقة سليمان وكان قد جاوز الثمانين من عمره .

أما طارق بن زياد فقد انتهت حياته فى غموض ولا تذكر لنا الرواية الاسلامية أين ومتى توفى . ويقال ان مغيث الرومى وشى به هو الآخر وخوف الخليفة منه وكان الخليفة سليمان بن عبد الملك يريد أن يوليه الأندلس ولكنه عدل عن ذلك . ولكن اهمال المؤرخين لطارق لم يحرمه نصيبه من الخلود فقد شاءت المقادير أن تحمل اسمه أول بقعة فى الأندلس وطئتها قدماه وهى جبل طارق ، كما سمى الزقاق مضيق جبل طارق ، وانتقلت هذه التسمية الى اللغات الأوربية جميعا بصيغتها العربية محرفة تحريفا بسيطا . وقد شاءت الظروف أن يكون جبل طارق من المواضع التى يذكرها الناس على مر العصور لأسباب مختلفة لم تكن تدخل فى حساب طارق بن زياد .

ولم تشر الرواية الاسلامية الى مصير الكونت يليان الذى مهد لفتح الاندلس . وتذكر بعض الروايات أنه عاد الى سبتة واقطع ما حولها من الأراضى وظل أميرا على سبتة نظير خدماته ولكنه بقى نصرانيا هو وبنوه الأقربون ، أما ذريته بعد ذلك فقد

دخلت الاسلام . أما أبناء غيطشة فقد أقطعوا ما كان لأبيهم كما عين أخ غيطشة حاكما لطليطلة [1] .

* * *

وهكذا نرى كيف امتـدت الامبراطورية العربية امتـدادا عريضا ، وكيف كان الخليفة الوليد بن عبد الملك الملهم والقائد الأعظم لهذه الفتوح الرائعة التى حملت معها العروبة والاسلام ، والتى خطت بأهل البلاد المفتوحة قرونا الى الأمام ، والتى نتج عنها انتشار الحضارة العربية الاسلامية الفذة التى غذت أوربا فى عصور ظلامها . ولسنا نبالغ اذا قلنا ان عصر الوليد يمثل الأوج الذى بلغه مجد الأمويين وسلطان العرب .

---

(١) انظر : محمد عبد الله عنان : دولة الاســلام فى الاندلس ص ٥٧ ـ ٥٨ (القاهرة ١٩٤٣ م) .

الفصل الثامن

العرب والروم

١ ـ العرب والغزو فى البحر

لم يهمل العرب فى خلافة الوليد بن عبد الملك أمر الجبهة الشمالية ، أى الجبهة البيزنطية أو جبهة الروم ، فى غضون الأعمال العسكرية الجسيمة التى قاموا بها فى الشرق والغرب .

ولم يكن البحر يركب للغزو فى حياة الرسول عليه الصلاة والسلام ، أو فى خلافة أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب . وقيل ان أول من ركب البحر للغزو فى الاسلام ، العلاء بن الحضرمى ، وذلك فى خلافة عمر بن الخطاب ، اذ ندب أهل البحرين ، وكان أميرا عليها ، الى غزو فارس عن طريق البحر بغير اذن الخليفة فغرقت سفن المسلمين ، وغضب عمر على العلاء وأمر بتأمير سعد ابن أبى وقاص عليه[١] .

وتحدثنا الروايات التاريخية المختلفة عن خوف عمر بن الخطاب من البحر وأنه كان لا يحب أن يفصل الماء بينه وبين جنوده . ولا شك أن تلك الروايات لها ما يؤكدها اذ أن العرب اختاروا حواضر البلاد المفتوحة بعيدا عن البحار .

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ٤ ص ٢١٢ ـ ٢١٣ .

وقيل ان معاوية بن أبى سفيان حين كان أميرا على الشام ، كتب الى الخليفة عمر بن الخطاب كتابا فى غزو البحر يرغبه فيه ويقول : « يا أمير المؤمنين ان بالشام قرية يسمع أهلها نباح كلاب الروم وصياح ديوكهم ، وهم تلقاء ساحل من سواحل حمص » ولكن عمر بن الخطاب لم يستجب لذلك النداء بل كتب الى عمرو ابن العاص « أن صف لى البحر ثم اكتب الىّ بخبره فكتب اليه : يا أمير المؤمنين ! انى رأيت خلقا عظيما يركبه خلق صغير ، ليس الا السماء والماء ، وانما هم كدود على عود ، ان مال غرق وان نجا برق »[1] .

ولما جاء الخليفة كتاب عمرو بن العاص كتب الى معاوية بن أبى سفيان : « والذى بعث محمدا بالحق لا أحمل فيه مسلما أبدا » وليس هناك من شك فى أن الخليفة عمر بن الخطاب كان يمثل سكان مكة ومعظم شبه الجزيرة العربية فى تخوفه من ركوب البحر ومن الغزوات البحرية .

لكن ما لبث العرب أن غيروا سياستهم هذه اذ أملت عليهم الحكمة والسياسة والضرورة ، ارتياد البحر والغزو والمغامرة فيه الى جانب الغزو فى البر . ذلك أن الأراضى التى بسط العرب سلطانهم عليها لم تكن تتلاقى عندها الطرق البرية التى تربط بين آسية وافريقية وأوربة فحسب ، وانما كانت تشرف على البحر المتوسط والمحيط الأطلسى والبحر الأحمر والخليج العربى والمحيط الهندى.

---

(١) الطبرى : تاريخ : ج ٥ ص ٥١ ــ ٥٢ .

ولم يكن من المعقول أن يعزل العرب البلاد التى تقع على شواطىء البحار عند منافذها الطبيعية . على أن أهم ما دفع العرب الى التحول نحو البحر هو حاجتهم للدفاع عن الممتلكات الجديدة التى كسبوها . حقا ان العرب نجحوا نجاحا عظيما فى بسط سلطانهم وفى امتلاك البر الا أن البحر كان لا يزال فى قبضة أعدائهم ، لذلك رأى العرب أن لابد لهم من الاتجاه صوب البحر ، وكان هذا طبيعيا بعد ما اتسعت امبراطوريتهم وشملت شعوبا وأمما بحرية ، وعندما اضطروا الى محاربة شعوب بحرية. ولم يترك البيزنطيون للعرب فرصة طويلة للتردد فى اقتحام البحر، فسرعان ما أغاروا على الاسكندرية من البحر ولما يمض على فتح العرب لها سوى أربعة أعوام . اذ أرسل الامبراطور قنسطانز الثانى فى سنة ٢٥ هـ (٦٤٥ م) أسطولا كبيرا هدفه اجلاء العرب عن مصر اجلاء تاما ، وفعلا تم استيلاء جيش الروم على الاسكندرية وزحف من بعدها الى ما يليها من بلاد الوجه البحرى . وتحرج مركز العرب فى مصر ، وكان واليها من قبل الخليفة عثمان بن عفان حينذاك هو عبد الله بن سعد بن أبى سرح، وأرسل أهل مصر يسألون عثمان أن يرسل عمرو بن العاص لمحاربة الروم لأن له معرفة وخبرة بحربهم ، وفعلا تم اجلاء البيزنطيين أو الروم عن مصر على يديه . ولا شك أن تلك الظروف هى التى جعلت معاوية بن أبى سفيان يفكر فى انشاء أسطول فى الشام . اذ أدرك معاوية ضعف سلطانه على سواحل الشام أمام قوة أسطول الروم القريب من شواطئها . ورأى معاوية

كيف استطاعت أرواد — تلك الجزيرة الصغيرة التى تقع شمالى طرابلس الشام — أن تصمد للمقاومة والا تسلم لمعاوية الا بعد وقت طويل من خضوع بقية الشام . ولذا نرى معـــاوية بن أبى سفيان ، الذى يعتبر بحق أمير البحر الأول فى الاسلام ، يتجه الى تنظيم أسطول بحرى ، ويحاول للمرة الثانية أن ينتزع موافقة الخليفة وهو آنذاك عثمان بن عفان ، للخروج بالعرب للغزو فى البحر المتوسط والمسير الى قبرص . وأذن له عثمـــان فى تردد وبشروط ، اذ كتب اليه فى ذلك : « لا تنتخب الناس ، ولا تقرع بينهم ، خيرهم فمن اختار الغزو طائعا فاحمله وأعنه »[1] .

وجمع معاوية عددا كبيرا من سفن مدن الشام الساحلية ومن مصر . ويذكر المؤرخ الواقدى أن فرق مصر المحاربة كان عليها عبد الله بن سعد بن أبى سرح فلما التقوا بمعاوية أصبح الجميع تحت قيادته . وكان غزو قبرص فى سنة ٢٨ هـ (٦٤٨ م) . ويذكر مؤرخو العرب أن الأســـطول العربى الذى هاجـم قبرص بلغ ١٧٠٠ سفينة وأنه استولى على الجزيرة بسهولة ، كما استولى على غنائم كثيرة ، وفرض على أهلها جزية بلغت ٧٠٠٠ أو ٧٢٠٠ دينار تدفع الى المسلمين. والواقع أن غزو قبرص التابعة لدولة الروم كان غارة بحرية كما كان عملا دفاعيا .

والحق ان العرب بدأوا معاركهم البحرية الأولى منذ خلافة عثمان بن عفان (٢٤ — ٣٥ هـ = ٦٤٤ — ٦٥٥ م) وهم مترددون من أهوال البحر ومخاطره . وكانت غزوة قبرص فاتحة لسياسة

---

(١) الطبرى : تاريخ : ج ٥ ص ٥٢ .

الفتح العربية البحرية . وما لبث أن نمت هذه السياسة البحرية بسبب اشتباك البيزنطيين مع العرب فى الموقعة البحرية الذائعة الصيت التى أسماها العرب معركة ذى الصـــوارى . ذلك أن البيزنطيين قدموا لغزو الاسكندرية سنة ٣٤ هـ (٦٥٥ م) فى عدد ضخم من المراكب بقيادة امبراطورهم قنسطانز . وخرج الأسطول المصرى لمقابلتهم بقيادة أمير البحر الثانى فى الاسلام وهو عبد الله ابن سعد بن أبى سرح . وأرسل معاوية ، أمير الشام حينئذ ، أسطولا للاشتراك مع الأسطول المصرى فى صد الروم . وحدث فى هذه الموقعة ما يشبه المعجزة اذ انتصر العرب انتصارا باهرا على البيزنطيين رغم قلة سفنهم ورغم حداثتهم فى حرب البحار . والحق ان هذه المعركة كانت نصرا بحريا كبيرا للسلمين ، ووصفها المؤرخ اليونانى ثيوفانس Theophanes بأنها كانت يرموكا ثانيا على الروم . وسميت هذه المعركة باســم ذى الصوارى لكثرة صوارى السفن التى التحمت فى القتال فيها ، وتسمى فى الكتب الأوربية واقعة فونيكة Phoenicus وربما كان ذلك لوقوعها بالقرب من ثغر فونيكه غــربى الاســكندرية . ولكن معظـم المستشرقين يرون أن هذه الواقعة البحرية حدثت جنوبى آسيا الصغرى بجوار ثغر فونيكس Phoenix [1] .

وهكذا نرى أنه كان لتوفيق العرب فى قبرص ثم لانتصارهم فى ذى الصوارى آثار بعيدة المدى ، اذ أيقظت هــذه العمليات

---

(١) دكتورة سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٩٤ ــ ٩٦ وما ذكرته من مراجع .

البحرية روح المخاطرة فى البحر لدى العرب ، وجعلتهم يواجهون الروم ليس فى البر فقط ولكن فى البحر أيضا ، وبدأت بذلك مرحلة من النشاط البحرى للعرب الى جانب نشاطهم البرى .

٢ ـ الصناعة :

وكان طبيعيا أن يستخدم العرب فى غزواتهم البحرية شعوب البلاد التى فتحوها ، والتى مرنت على ركوب البحار منذ القدم . ففى مصر أفاد العرب من خبرة المصريين البحرية ومن العمال المصريين أيما افادة اذ أصبحت مصر عقب الفتح مركزا لصناعة السفن اللازمة لأسطول الخلافة ، كما كانت تمد هذا الأسطول بخيرة الملاحين والعمال المصريين . وأصبح اسم « الصناعة » يدل على المكان الذى تبنى فيه السفن الحربية . ونرى المقريزى يعقد فى كتابه الخطط[١] فصلا فى ذكر المواضع المعروفة بالصناعة . كما يشير فى أماكن أخرى من هذا الكتاب[٢] الى أن الصناعة كانت بجزيرة الروضة وأنها أسست فى سنة ٥٤ هـ ، ويلوح أن ذلك كان على أثر غزو الروم ثغر البرلس والخسارة الفادحة التى حلت بالمسلمين فى قتالهم . وسميت جزيرة الروضة حينئذ « جزيرة الصناعة » كما كانت تسمى أحيانا « جزيرة مصر »[٣] .

---

(١) خطط المقريزى ج ٢ ص ١٨٩

(٢) خطط المقريزى ج ١ ص ٣٠١

(٣) Maspero et Wiet : Matériaux pour servir à la Geographie d'Egypte p. 68 ; et G. Wiet : Corpus Inscriptionum Arabicarum, Egypte II. pp. 197 - 199.

والواقع أن « الصناعة » أنشئت فى مصر الاسلامية قبل هذا التاريخ . ولا شك أن الذى ساعد العرب على خوض البحار امتلاكهم دور الصناعة والسفن الحربية والتجارية التى كانت لدى مصر والشام حين الفتح . فكانت السفن اما موجودة أو سهلة الانشاء . كذلك انتفع العرب بخبرة الملاحين والصناع من أهل البلاد . وليس بعيد الاحتمال أن يكون العرب قد بدأوا يعنون ببناء السفن الحربية منذ عهد الخليفة عثمان بن عفان . وكان اشتباك البيزنطيين مع العرب فى البحار من أكبر الدوافع التى جعلت العرب يعنون بصناعة السفن فى جهات مختلفة من أنحاء دولتهم . ويذكر البلاذرى (١) أنه لما كانت سنة ٤٩ هـ هاجم الروم السواحل الاسلامية ، وكانت الصناعة بمصر فقط فأمر معاوية ابن أبى سفيان بانشاء دار للصناعة فى عكا .

ولما ولى عبد الملك بن مروان الخلافة (٦٥ — ٨٦ هـ = ٦٨٤ — ٧٠٥ م) بعث الى حسان بن النعمان عامله على افريقية يأمره باتخاذ صناعة بتونس لانشاء الآلات البحرية . وكتب عبد الملك بن مروان الى أخيه عبد العزيز والى مصر أن يوجه الى معسكر تونس ألف قبطى بأهله وولده لانشاء دار صناعة فيها . أما مهمة البربر هناك فكانت أن يجروا ويحملوا الى دار الصناعة ما تحتاجه من خشب لصنع المراكب(٢) .

(١) البلاذرى : فتوح البلدان (طبعة ليدن) ص ١٧٧ .

(٢) ابو عبيد البكرى : المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب (طبعة الجزائر سنة ١٨٥٧) ص ٣٨ — ٣٩ ، راجع أيضا مقال الأستاذ ڤيت عن المواصلات فى مصر فى العصور الوسطى ص٣٣ — ٣٤ =

ولا شك أن اهتمـــام عبد الملك بن مروان بالقوة البحـرية اهتماما شديدا يرجع الى ما نالته الدولة العربية على يد بحرية الروم اذ ثار البربر فى وجه العرب واستندوا الى مساعدة الروم البحرية . وظل الروم يهددون العرب من البحـــار الى أن نجح حسان بن النعمان فى تخريب قرطاجة وانشاء قاعدة بحرية أمينة فى تونس[1] . وقوى مركز العرب فى شمال افريقية بعد اهتمامهم بالبحر وبناء السفن . والواقع أنه منذ ولاية حسان بن النعمان الغسانى على افريقية (٧٣ — ٧٩ هـ = ٦٩٣ — ٦٩٩ م) أصبح شمال افريقية مركزا بحريا ثالثـــا أضيف الى المركزين العربيين فى مصر والشام . وحصن العرب قاعدتهم البحرية فى شمال افريقية باستيلائهم على جزيرة قوصرة[2] التى تقع قرب الشاطىء الافريقى، وبسيطرتهم على المضيق الفاصل بين الشاطىء الافريقى وجزيرة صقلية[3] .

= من كتاب «فى مصر الاسلامية» الذى أخرجه الدكتور زكى محمد حسن والبكباشى عبد الرحمن زكى) .

(١) ابن عذارى المراكشى : البيان المغرب فى أخبار المغرب ج ١ ص ٢٣ ـ ٢٤ (مكتبة صادر بيروت) ، حسين مؤنس : فتح العـرب للمغرب ص ٢٦٠ ـ ٢٦١ (القاهرة ١٩٤٧) .

(٢) هى جزيرة صغيرة بالبحر المتوسط تبعد عن شواطىء افريقية بنحو ستين كيلو مترا وأرضها جبلية (خصبة) السهول وتتبع الآن ايطاليا وتعرف باسم Pantellaria أما اسمها القديم فكان Csoyra ومنـــه اشتق اسمها لدى العرب (انظر : اسمعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ج ١ هامش ص ٤٠٦ ـ المطبعة الاميرية ببولاق ١٣١٢هـ).

(٣) ارشيبالد لويس : القوى البحرية والتجـــارية فى حوض البحر المتوسط (ترجمة احمد محمد عيسى القاهرة ١٩٦٠) ص ١٠١ .

وحين ولى موسى بن نصير افريقية فى خـلافة الوليـد بن عبد الملك أشرف على بناء سفن جديدة أرسلها للاغارة على صقلية وسردانية وجزر البليـار كما مر بنا . ولا شك أن غارات موسى على تلك الجزر ، فى الوقت الذى كان يعمل فيه لفتح المغرب الى المحيط الأطلسى ، كان الغرض منها أن يشل موسى حـركات الأسطول البيزنطى من قواعده فى صقلية وسردينية وجزر البليار، حتى لا يقع فيما وقع فيه عقبة بن نافع قبل ذلك بأكثر من عشرين عاما حين دفع حياته وحياة جيشه ثمنا لأنه لم يكن له أسطول أو قاعدة بحرية .

ويتضح من المصادر المختلفة ، ومن الأوراق البردية التى ترجع الى العصر الأموى أن صناعة السفن كانت متقدمة فى مصر، كما أظهرت الأوراق البردية أن حكومة العرب كانت تقدر مهارة المصريين فى تلك الصناعة ومهارة الملاحين المصريين .

وأظهرت أوراق البردى التى كشفت فى كوم اشقاو ، والتى ترجع الى عصر الوليد بن عبد الملك أن صناعة السفن كانت زاهرة بوادى النيل فى جزيرة الروضـة(١) وفى القلزم(٢) (السويس الحالية) وفى الإسكندرية(٣) .

وتكشف لنا تلك الأوراق أن قرة بن شريك والى مصر فى خلافة الوليد بن عبد الملك ، كثيرا ما كان يطلب من صاحب كورة

(١) Bell : (Der Islam vol. IV. 1913) p. 92.

(٢) Bell : (Der Islam vol. II. 1911) p. 277.

(٣) Bell : (Der Islam vol. II) p. 280.

أشقوه أن يرسل اليه عمالا وصناعا وملاحين للعمل فى دور الصناعة ، والمساهمة فى اعداد الأسطول المصرى الحربى . كما تشهد تلك الأوراق بأن الوالى كان يتفق مقدما على أجور هؤلاء العمال والملاحين الذين يعملون فى الأسطول المصرى [١] ، كما كان يفرض على الكور قدرا من الأدوات والآلات المختلفة اللازمة لصناعة السفن ولتنظيفها ، وكذلك يفرض عليها[٢] تموين الملاحين الذين يشتغلون فى اعداد الأسطول [٣] . كذلك كان قرة يشرف على أجور البحارة الذين يخرجون مع الأسطول للغزو[٤] . وكثيرا ما اضطر المصريون لدفع غزوات الروم المتتابعة على السواحل المصرية مثل غزوهم لدمياط وتنيس فى خلافة الوليد[٥] ولم يقتصر نشاط المصريين على اعداد الأسطول المصرى ، بل كان والى مصر يرسل بعض الملاحين المصريين للعمل فى أسطول المغرب [٦] أو أسطول المشرق[٧] والمساهمة فى المشروعات البحرية العامة للدولة الاسلامية . ونعرف من أوراق البردى أيضا أن المصريين

(١) Bell : (Der Islam vol. II) pp. 271, 272. 279, 280.

(٢) هذه الحقوق للحكومة على الهيئات أو الأفراد كلها من آثار الليتورجيا Leiturgia أو الالتزامات الاجتماعية والمالية التى عرفت فى العالم القديم .

(٣) Bell (Der Islam vol. II) pp. 277, 279 & (der Islam vol. XVII 1928) p. 8.

(٤) Bell (Der Islam vol. II) pp. 375 _ 376.

(٥) انظر خطط المقريزى ج ٢ ص ٢١٤ .

(٦) Bell : op. cit. vol. II p. 279.

(٧) Bell : op. cit. vol. XVII p. 6 - 8.

اشتركوا فى الأسطول الذى غزا افريقية بحرا فى خلافة الوليد ابن عبد الملك(١) .

٣ ـ محاولات العرب فتح القسطنطينية

ولم يكن نشاط العرب فى غزو البحار مقصــورا على دفع الغارات البيزنطية البحرية ، أو الهجوم على الجزر التى تتخذها الدولة البيزنطية قواعد للهجوم منها على أملاك الدولة العربية ، وانما أراد العرب أن يتموا ما بدأه أبو بكر وعمر فحاولوا القضاء على دولة الروم وغزوها فى عقر دارها برا وبحراً .

وكان من أمر الفتن الداخلية ما كان عقب مقتل عثمان . ورأى معاوية بن أبى سفيان أن من مصلحته أن يساوم الامبراطور قنسطانز الثانى (٦٤١ — ٦٦٨ م = ٢١ — ٤٨ هـ) على الصلح ، وأن يؤدى اليه جزية سنوية ، وكان ذلك فى سنة ٣٨ هـ (٦٥٨ — ٦٥٩ م) وذكر هذه الجزية المؤرخ ثيوفانس وأشار اليها البلاذرى اشارة سطحية . لكن بعد أن استتب الأمر لمعاوية وأصبح خليفة على المسلمين امتنع عن دفع الجزية للامبراطور البيزنطى واستأنف الهجوم ضد الروم برا وبحرا ، وكاد يصل مرتين الى الاستيلاء على القسطنطينية نفسها . وتذكر المراجع المختلفة أن الفضل فى انقاذ القسطنطينية من أيدى العرب كان للنار الاغريقية . وكانت هذه النار شديدة الاشتعال بحيث تلتهب على سطح الماء (٢) .

---

(١) Bell. op. cit. vol. II p. 279.

(٢) انظر عن النار الاغريقية Zenghlis, C. : "Le Feu Greçois" in Byzantion (1932) VII, 265 - 88.

ولم يتسرب اليأس الى نفوس العرب بعد هزيمتهم مرتين أمام أسوار القسطنطينية . فنرى الخليفة الوليد بن عبد الملك يجهز حملة عظيمة لغزو القسطنطينية ولكنه توفى قبل أن يسيرها فتولى أمر تلك الحملة خليفته سليمان بن عبد الملك . وحوصرت القسطنطينية بقيادة أخ الخليفة مسلمة بن عبد الملك (٩٨ — ١٠٠ هـ = ٧١٦ — ٧١٧ م) وكان هذا الحصار أشهر حصار لكثرة ما ذكر عنه فى التاريخ . وساعد الأسطول المصرى أسطول الشام فى الحصار كما كان يحدث فى معظم العمليات البحرية ، ولكن سر النار الاغريقية كان لا يزال مجهولا لدى العرب واستطاع الأسطول البيزنطى أن يتفوق على الأسطول الاسلامى وأن يرد العرب عن القسطنطينية .

٤ ـ الثغور والعواصم

ولا شك فى أن الحروب بين العرب والروم كان لها أهداف متعددة فقد كانت الدولة العربية تريد أن تثبت أن الجهاد ضد أعداء العرب لا يزال له مكانته فى سياستها العامة . فضلا عن أن الحدود المشتركة بين العرب والبيزنطيين فى مشارف آسيا الصغرى كان من شأنها أن تزيد الاحتكاك الذى يقع على الحدود . وكان كل فريق يريد أن يمد حدوده على حساب الفريق الآخر ويريد أن ينتهز أى فرصة يظهر فيها ضعف خصمه ، فضلا عن ان كل فريق كان يعتقد أن الهجوم أحسن وسيلة للدفاع وأنه اذا نجح فى مد حدوده على حساب حدود الطرف الآخر أمن هجومه . ولا ينفى

هذا كله أن الطمع فى الغنيمة كان يغرى بعض المشتركين فى هذه الغزوات والحروب . ولكن مما لاشك فيه ان المنطقة العربية على حدود بلاد الروم عرفت كثيرا من خيرة المجاهدين العرب الذين كانوا يعملون على اعلاء كلمة العرب وحماية حدود الدولة العربية.

ومنذ ان بدأ معاوية بن أبى سفيان سنة الجهاد ضد الروم ونحن نرى أن الغزو أصبح نظاما مطردا وأنه قلما نجد سنة لايغزو فيها العرب أرض الروم ، وكان هذا الغزو يقع فى الصيف ويقال له الصائفة ، ويقع فى الربيع ويقال له الربيعية ، وكانت الصائفة أطول من الربيعية . أما غزو الشتاء فكان يحدث نادرا جدا لأن البرد والثلوج كانا يعوقان حركة الجند ، واذا كان لابد من غزو الشتاء أو « الشاتية » فانها تكون قصيرة جدا لاتتجاوز عشرين يوما . وكان يطلق أحيانا اسم الشاتية على الغزوة الربيعية .

وكان نتيجة الصوائف والشواتى أن حصنت الحدود الشمالية الشامية وحدود الجزيرة فى شمال العراق تحصينا منيعا ، وأقيم هناك خطان دفاعيان أحدهما أمامى يطلق عليه خط الثغـــور ، والآخر خلفى يطلق عليه اسم العواصم .

أما الثغور فهى خط الحصون الخارجى الشمالى ، والثغر هنا ما يلى أرض العدو من أرض العرب ، أي الثغرة التى يدخل منها العدو الى أرض العرب . وكان خط الثغور ينقسم قسمين : ثغور الشام أى الأماكن الحصينة التى تحمى الشام من عدوان الروم ، وثغور الجزيرة أى ثغور الاقليم الواقع شمالى دجلة والفرات .

ومن أهم الثغور الشامية مدينة طرسوس الواقعة جنوبى

آسيا الصغرى بالقرب من ساحل البحر المتوسط . وقد هيمنت طرسوس على مركز الهجوم على مدخل بلاد الروم الجنوبى الشهير بأبواب قليقية Cilicia، وهو ممر فى جبل طوروس ، فجعلها العرب قاعدة حربية شنوا منها الحملات على مناطق الروم .

ومن الثغور المهمة أيضا أذنة (أطنة) والمصيصة (موبسوستيا) .

ومن الثغور الجزرية شمشاط وملطية ومرعش (جرمانيقية Jermanicia أو Marasion) والحدث (Adata) وزبطرة .

أما خط العواصم فكان يلى خط الثغور ، أى يعصم الدولة العربية من الأعداء ، وكان أهم بلدانه حلب ومنبج .

والواقع أنه كان هناك حاجز طبيعى منيع يساعد على الفصل شبه التام بين دولة العرب ودولة الروم وهو جبال طوروس التى تتكون من سلسلتين متوازيتين من الجبال : سلسلة جبال طوروس ، وسلسلة جبال طوروس الداخلية Atni Taurus التى تواجه الحدود العربية ، والتى كان العرب يسمونها جبل اللكام . وكان العرب ينفذون من جبل اللكام من ممرات جبلية أو من دروب على حد تعبير العرب ، أحدهما درب الحدث والآخر بالقرب من طرسوس اسمه درب السلامة ، وكان أكثر ارتيادا من الطريق الآخر .

ومر بنا أن معاوية بن أبى سفيان سير الجيوش برا وبحرا لغزو القسطنطينية . ثم شغلت الدولة العربية بالمنازعات والفتن الداخلية ، واضطر عبد الملك بن مروان أن يدفع الجزية لامبراطور الروم فى سنة ٧٠ هـ (٦٨٩ — ٦٩٠ م) لكنه استطاع بعد أن

تخلص من الفتن الداخلية ومن ثورة عبد الله بن الزبير أن يعلن الحرب على أعداء العرب الدائمين ، وتمكنت جيوشه من هزيمة جيوش الامبراطور چستنيان الثانى (يوستنيان Justinian) عند سيواس (سباستپوليس)Sebastia فى قليقية وذلك فى سنة ٧٣ هـ (٦٩٢ م) .

أما الوليد بن عبد الملك فقد دأب على محاربة الروم كل سنة تقريبا . وكان بطل حرب الروم أخوه مسلمة بن عبد الملك وأبناء الوليد . ففى سنة ٨٨ هـ (٧٠٧ م) غزا العرب الصائفة بقيادة مسلمة بن عبد الملك أخ الخليفة ، والعباس بن الوليد ابن الخليفة ، وفتحوا حصن الطّوانة Tyana وكان هذا الحصن من أعظم حصون الروم فى آسية الصغرى فى بلاد القباذق (كبدوكية Cappadocia) . وفى سنة ٨٩ هـ غزا مسلمة أرض الروم ومعه العباس بن الوليد ، أما مسلمة فانه افتتح حصن سورية [1] كما قصد عمورية Amorion (أسار قلعة حاليا) وهزم الروم هناك وافتتح هرقلة وقمودية ، أما العباس بن الوليد فانه افتتح اذرولية (درولية — دوريليوم Dorylaeum) كذلك غزا العباس الصائفة من ناحية البدندون (البذندون Podandos) . وفى سنة ٩٠ هـ غزا مسلمة أرض الروم ففتح الحصون الخمسة التى بسورية كما بلغ العباس بن الوليد الارزن . وتوالت غزوات مسلمة

---

(١) يورد الطبرى ج ٨ ص ٦٧ — ٦٨ اسم سورية وحصونها على أنها منطقة من أرض الروم جنوب آسيا الصغرى وفى أقصى شمالى الشام وعلى انها كانت تابعة للروم حتى غزاها العرب زمن الوليد .

ابن عبد الملك فى أرض الروم فى السنوات التالية فغزاها فى سنة ٩١ هـ وسنة ٩٢ هـ وسنة ٩٣ هـ . واستطاع مسلمة أن يفتتح حصونا كثيرة من أرض الروم فى الأناضول مثل حصن الحديد وسوسنة ، وغزالة ، وبرجمة (Pergamus) ، واشترك مروان بن الوليد وعمر بن الوليد فى الغزوتين الأخيرتين . وفى سنة ٩٤ هـ غزا العباس بن الوليد أرض الروم وقيل انه فتح أنطاكية ، كما غزا عبد العزيز بن الوليد أرض الروم حتى بلغ غزالة . ويذكر الطبرى أن يزيد بن أبى كبشة وصل أرض سورية [1] فى هذه الغزوة .

كذلك غزا العباس بن الوليد أرض الروم فى سنة ٩٥ هـ ففتح الله على يديه ثلاثة حصون وهى طولس والمرزبانين وهرقلة . ثم غزا بشر بن الوليد الشاتية فى سنة ٩٦ هـ فقفل وقد مات الخليفة الوليد بن عبد الملك . وجدير بالذكر ان الوليد بن عبد الملك أخذ يعد حملة برية بحرية لغزو القسطنطينية لكنه مات قبل أن ينفذ المشروع .

٥ ـ الجراجمة :

لم يكن الوليد بن عبد الملك أو أخوه مسلمة بن عبد الملك بطل المعارك ضد الروم فقط وانما أتيح للوليد بن عبد الملك على يد مسلمة أن يقضى نهائيا على خطر شعب المردة . والمردة شعب مجهول الأصل كان يتمتع بقسط وافر من الاستقلال فى المناطق الجبلية الوعرة فى جبل اللكام ، وعرفهم العرب باسم

(١) الطبرى : تاريخ : ج ٨ ص ٩١ .

الجراجمة . ويذكر البلاذرى فى فتوح البلدان ، وياقوت فى معجم البلدان ، ان اسم جراجمة نسبة الى مدينتهم الكبرى جرجومة فى جبال اللكام (أمانوس) . وكان هؤلاء الجراجمة أو المردة يدينون بالمسيحية ويقومون على خدمة مصالح الدولة البيزنطية فكانوا يمدون الروم من معاقلهم فى جبال طوروس واللكام بالرجال والجنود غير النظاميين ، وبذلك أصبح هؤلاء الجراجمة شوكة فى جنب العرب اذ كانوا يساعدون الروم ضدهم كما كانوا يثيرون الفتن الداخلية فى بلاد الشام . وفى خلافة معاوية بن أبى سفيان تسربت شراذم منهم الى جبل لبنان حول سنة ٤٦ هـ (٦٦٦ م) ، وأراد معاوية أن يصدّع جبهة الجراجمة فنقل الى سواحل الشام والى أنطاكية قوما من أخلاط الفرس الذين عرفهم العرب باسم الزُّط والسيابجة والاساورة .

وظل الجراجمة يثيرون المتاعب والقلاقل حتى اضطر عبد الملك ابن مروان أن يدفع للجراجمة أموالا كما كان يدفع للروم حين اضطر أن يداريهم وهو مشغول بالقضاء على الفتن الأهلية . وكان امبراطور الروم يرسل جماعات منهم الى الشام لاثارة الفتن والقلاقل وليكونوا عينا له ضد العرب واضطر عبد الملك أن يعمل ما عمله معاوية وذلك بارسال جماعات من العراق وفارس الى سواحل الشام لاسكانهم بين الجراجمة وذلك كى تخف سطوتهم ودسائسهم . ولما تولى الخلافة الوليد بن عبد الملك نقل الى أنطاكية قوما من زُطّ السند الذين أرسلهم محمد بن القاسم من السند الى الحجاج ، فبعث بهم الحجاج الى الشام .

واستطاع الوليد بن عبد الملك أن يقضى نهائيا على خطر المردة اذ هاجم مسلمة بن عبد الملك الجراجمة فى عقر دارهم ودمر عاصمتهم الجرجومة فمات بعضهم ، وهاجر البعض الى الأناضول ، وانضمت جماعة منهم الى جيش الشام وقاتلوا تحت لواء الاسلام وساهموا فى عهد يزيد بن عبد الملك فى اخضاع الفتن التى نشبت فى العراق .

الفصل التاسع

الدواوين وتعريبها

كانت الادارة عند العباسيين تطورا للادارة عند الأمويين وقد اعترف الخليفة أبو جعفر المنصور بأنه مدين الى حد كبير فى تنظيم دولته للأمويين .

ونلاحظ أن النظام الديوانى وجد مع قيام الدولة العربية نفسها وكان عمر بن الخطاب هو أول من دوّن الدواوين ، وطبيعى أن المقصود بتدوين الدواوين أو انشائها ، هو الدواوين المركزية التى كانت تستعمل اللغة العربية وحدها أما الدواوين المحلية فى الولايات والأمصار فكانت استمرارا للدواوين المحلية الساسانية والبيزنطية التى أبقاها العرب كما هى زمن الفتوحات ، والتى كانت تستعمل اللغات الأجنبية المحلية كالفهلوية فى العراق وايران ، واليونانية فى الشام والقبطية واليونانية فى مصر .

وتذكر المصادر أن ديوان كلمة فارسية معناها الدفتر أو السجل ثم استعملت الكلمة على المكان الذى تحفظ فيه سجلات الدولة .

أما الديوان الذى أنشأه عمر بن الخطاب فكان ديوان الجند وأطلق عليه حينئذ « الديوان » لأنه كان الديوان الوحيد فى

المدينة عاصمة الدولة العربية . وكان هذا الديوان يقوم بتنظيم الجند وتنظيم أعطياتهم ، وكان يحفظ فيه سجلات بأسماء الجند وأوصافهم وأنسابهم وأعطياتهم . ولما جاء الأمويون توسعت الأعمال وتعددت الحاجات نتيجة لتطور الأمة العربية فأدى هذا الى تطور الدواوين وتعددها وذلك لتتناسب مع حاجة الدولة وتطورها . وكانت الدواوين الأموية الرئيسية حتى عهد الوليد ابن عبد الملك هى :

١ - ديوان الجند :

ويعزو المؤرخون تدوين هذا الديوان الى الخليفة عمر ابن الخطاب كما ذكرنا ، وذلك حين اتسعت رقعة الدولة الاسلامية فى عهده فكان لابد من ضبط الأموال وتقرير العطاء المفروض للجند وأسرهم . وظل هذا الديوان فى العصر الأموى يعمل على أساس ديوان عمر بن الخطاب .

وكان هذا الديوان من أهم الدواوين فى الدولة العربية الفتية وكان الجند عربا فى بداية الأمر ثم بدأ القواد الفاتحون فى خلافة عبد الملك والوليد بن عبد الملك يشركون أهل البلاد المفتوحة فى الجيش فنرى موسى بن نصير يجند آلافا من البربر ، سكان شمال افريقية ، ومر بنا أن فتح الأندلس قام على عاتقهم فى معظمه ، كذلك أشرك قتيبة بن مسلم الباهلى أهل بلاد ما وراء النهر مع العرب فى فتوحاتهم هناك . واشترك الموالى فى العراق وايران مع الجيش العربى فى فتوحات المشرق ، وفى مصر كان

ملحقا بالجيش طائفة تسمى المطوعة وربما كان أساسها أهل البلاد ويبدو ان المصريين أو هؤلاء المطوعة كانوا يقومون بأدوار ثانوية فى خدمة الجيش أو يساعدون الجيش العربى فى أوقات الضرورة كما كان عملهم مقصورا على مصر وحدها ، ولم يكن لهؤلاء المطوعة عطاء ولم يثبتوا فى الديوان انما كان عطاؤهم من الصدقات أو أموال الزكاة . ويذكر الكندى فى كتابه الولاة والقضاء أن مواحيز (١) مصر كان يعمرها أهل الديوان وطائفة المطوعة (٢) .

وكان هناك ديوان للجند فى مقر الخلافة العربية كما كان هناك دواوين مماثلة فى حواضر البلاد المفتوحة . وكان يدون فى ديوان الجند أسماء الجند وأسرهم لتقرير العطاء والأرزاق اللازمة لهم .

ونستنبط من أوراق البردى التى ترجع الى عصر الوليد بن عبد الملك أن الوالى كان يطلب المال من أصحاب الكور عند حلول موعد عطاء الجند وأسرهم (٣) ، أو يطلب من أصحاب الكور ارسال ضريبة الطعام لتوزيع الأرزاق على « أهل الديوان » (٤)

---

(١) الماحوز : المكان الذى يكون بين القوم وبين عدوهم وهو من استعمال أهل الشام • ويذكر دوزى ان الماحوز فى سوريا معناه الحدود (Dozy : Supplément aux Dictionnaires Arabes).

(٢) الكندى : الولاة والقضاة ص ٤١٨ ـ ٤١٩ • بيروت ١٩٠٨ م.

(٣) Becker : Neue Arabische Papyri. pp. 251 - 252 (Der Islam. II Strassburg 1911), Grohmann : Arabic Papyri vol. III (Cairo 1938) pp. 12 - 13).

(٤) Bell : Translations of the Greek Papyri (Der Islam, Band II) p. 271.

ولسنا نعرف تماما المبادىء التى كانت تقدر على أساسها أعطيات الجند ، وهل كان ينظر الى القبيلة وسابقتها فى الاسلام وفضلها فى الجهاد ، أو كان الأساس قدر ما على الشخص من التزامات عائلية . ولكن من المحتمل أن بعض الخلفاء كان يزيد أعطيات بعض القبائل استرضاء لها واصطناعا لأبنائها ، ولعل عطاء الفارس كان ضعف عطاء الراجل ليستطيع أن ينفق منه على فرسه . ويذكر الفقيه الماوردى فى كتابه الأحكام السلطانية : أن تقدير العطاء كان بحيث يغنى المرء عن الاشتغال بحرفة أخرى تشغله عن القتال والحرب . ومهما يكن فقد كان من الواجب أن يراعى فى تقدير العطاء ثلاثة وجوه : أحدها عدد من يعوله الفرد من الذرارى والمماليك ، والثانى عدد ما عنده من الخيل والظهر (١) . والثالث ظروف الموضع الذى يحل فيه من الغلاء والرخص . واذا مات أحدهم أو قتل يصبح عطاؤه ارثا من بعده يأخذه ورثته . ويختلف الفقهاء فى ذلك فبعضهم يقول : ان ورثته يحالون على مال العشر والصدقة لأن عطاءه قد سقط بموته والبعض يقول بأن يورث ورثته من عطائه وهذا فيه تشجيع للجنود على التجند .

ونحن نعرف من المصادر التاريخية أن العطاء لم يستمر على حال واحدة فالخليفة عثمان بن عفان أول من زاد فى عطاء الجند ولكن هذه الزيادة لم تستمر بعده فبعض الخلفاء أبقاها والبعض منعها .

ولسنا نعرف كيف كانت الأعطيات تصرف للجند ، ولكن أكبر

---

(١) الظهر : الركاب التى تحمل الأثقال .

الظن أن الجند كانت فيهم رتب مختلفة من أمير وعريف وخليفة وقائد ونقيب وما الى ذلك من الرتب التى لم تتبين تماما الفرق بين كل منها فى فجر الاسلام ، ومن المحتمل أن العرفاء كانوا يتسلمون الأعطيات ويتولون تفريقها على الجند .

ويظهر أنه كان هناك وقت معين يعرفه الجند أو أهل الديوان يتسلمون فيه عطاءهم على رأس كل سنة . ويقال ان مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية قطع العطاء عن جند مصر سنة فكتب اليهم كتابا يعتذر فيه فى السنة التالية ويقول « انى انما حبست عنكم العطاء فى السنة الماضية لعدو حضرنى فاحتجت فيه الى المال ، وقد وجهت اليكم بعطاء السنة الماضية وعطاء هذه السنة فكلوا هنيئا مريئا وأعوذ بالله أن أكون أنا الذى يجرى الله قطع العطاء على يديه » [1] .

ونلاحظ أن ديوان الجند كان يعاد تدوينه كل فترة حسب مقتضيات الأحوال . كما كان الجند العرب يثبتون فى الديوان حسب قبائلهم التى ينتمون اليها . ونلاحظ أن الجيوش العربية كانت تقسم أيضـــا حسب القبائل حين خروجها للفتح كما كان العرب يقيمون فى المدن أو فى الأمصـــار التى اختطوها حسب قبائلهم أيضا .

ونعرف أن أول من دون ديوانا للجند فى مصر هو عمرو ابن العاص ، ثم دون عبد العزيز بن مروان تدوينا ثانيا فى خلافة

---

(١) الكندى : الولاة والقضـــاة ص ١٩٤ ، خطط المقـــريزى : ج ١ ص ٩٤ .

عبد الملك بن مروان ، ودون قرة بن شريك فى خلافة الوليـــد التدوين الثالث .

وكان أهل الديوان فى مصر زمن خلافة معاوية بن أبى سفيان أربعين ألفا حسب رواية المؤرخ المصرى المقريزى . ويذكر ابن عبد الحكم والمقريزى أن معاوية بن أبى سفيان جعل على كل قبيلة من قبائل العرب رجلا يدور على المجالس كل صباح ليسأل عما اذا كان مولود قد ولد فيهم أو ضيف حل بهم فيكتب أســماءهم وأسرهم ويذهب الى الديوان ليثبتهم فيــه (١) . ونلاحظ أن التجنيد فى الدولة العربية كان تطوعا فى البداية ، وكان شرف الجندية يتمناه كل عربى ، وكان العرب حينذاك شعبا يتقــد حماسة وشجاعة ولم يكونوا قد تنعموا بعد وغمرتهم تلك الروح التي تغمر الشعوب حين تعتاد الترف والرخاء . ولا أدل على هذه الروح المعنوية القوية ، وهذا الجهاد فى سبيل الله من تلك الكلمات التى قالها عبادة بن الصامت ، رسول عمرو بن العاص بطل فتح مصر ، للمقوقس حاكم مصر من قبل الروم أثناء المفاوضات التى جرت بين العرب والروم قبل فتح حصن بابليون (٢) اذ قال :

« أنا قد وليت وأدبر شبابى ، وانى مــع ذلك بحمد الله

(١) انظر ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها (طبعة تورى) ص ١٠٢ ، خطط المقريزى ج ١ ص ٩٤ .

(٢) حصن بابليون هو الحصن الذى بنـــاه الامبراطور تراجان (٩٨ ـ ١١٧ م) وكان يسميه العرب قصر الشمع أو الحصن ، ولاتزال بقاياه فى مصر القديمة بجوار الكنيسة المعلقة والمتحف القبطى .

ما أهاب مائة رجل من عدوى لو استقبلونى جميعا ، وكذلك أصحابى ، وذلك انما رغبتنا وهمتنا الجهاد فى الله واتباع رضوانه . وليس غزونا عدونا ممن حارب الله لرغبة فى دنيا ولا طلب للاستكثار منها ، الا أن الله عز وجل قد أحل لنا ذلك وجعل ما غنمنا من ذلك حلالا . وما يبالى أحدنا ان كان له قنطار من ذهب أم كان لا يملك الا درهما لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها يسد بها جوعه لليله ونهاره ، وشملة يلتحفها ، فان كان أحدنا لا يملك الا ذلك كفاه ، وان كان له قنطار من ذهب أنفقه فى طاعة الله واقتصر على هذا الذى بيده ، ويبلغه ما كان فى الدنيا ، لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم ورخاءها ليس برخاء ، انما النعيم والرخاء فى الآخرة ، وبذلك أمرنا الله وامرنا به نبينا وعهد الينا أن لا تكون همة أحدنا من الدنيا الا بما يمسك جوعته ويستر عورته ، وتكون همته وشغله فى رضوانه وجهاد عدوه » [1] .

وظلت روح الجهاد متقدة مشتعلة فى العصر الأموى ، وقد رأينا كيف كان يخرج أخو الخليفة الوليد بن عبد الملك وأبناؤه للغزو والجهاد ضد أعداء الدولة العربية . ورأينا كيف خرجت الجيوش العربية شرقا وغربا تحمل لواء العروبة وتبنى حضارة العرب الى حدود الصين شرقا والى المحيط الأطلسى وأوربا غربا .

أما جيش الخليفة فى الشام حيث مقر الخلافة الأموية ، فكانت مهمته الرئيسية حماية سلطة الخلفاء الأمويين ومحاربة الروم

---

(١) خطط المقريزى ج ١ ص ٢٩١ .

والجراجمة وفتح البلاد المختلفة فى الشرق والغرب ، كذلك كان الخليفة يتخذ جند الشام للقضاء على الفتن الداخلية فى داخل الدولة العربية وخاصة تلك التى كانت فى العراق .

ونلاحظ أن التجنيد دخله نوع من الالزام فى عصر بنى أمية . فكان الحجاج يشتد فى تجنيد الناس ، ولا يدع قرشيا ولا رجلا من بيوتات العرب الا أخرجه ويذكر الأصفهانى فى كتابه الأغانى أن الحجاج « ضرب البعث على المحتلمين ومن أنبت من الصبيان ، فكانت المرأة تجىء الى ابنها وقد جرّد فتضمه اليها وتقول له : بأبى ! جزعا عليه ، فسمى ذلك الجيش جيش ، بأبى » .

كذلك لما توفى بشر بن مروان والى العراق ووليه الحجاج ابن يوسف رأى ان جيوش المهلب بن أبى صفرة التى خرجت لمحاربة الخوارج قد بدأت تترك معسكراتها الحربية وتتخلى عن المهلب فخطب الحجاج قائلا : «...واياى وهذه الزرافات والجماعات، وقال ، وقيل ، وما يقولون ؟ وفيم أنتم ؟ والله لتستقيمن على طريق الحق ، أو لأدعن لكل رجل شغلا فى جسده ، ومن وجدته بعد ثالثة ، من بعث المهلب ، سفكت دمه ، وانتهبت ماله ، وهدمت منزله . فشمر الناس بالخروج الى المهلب » .

والحق اننا لا نكاد نرى فى المصادر العربية ما يساعد على أن نجلى غوامض هذه المسألة . وأكبر ظننا أن حال التجنيد من تطوع والزام كان يتغير بين حين وآخر بتغير الأمراء ، واختلاف ظروف القتال ، وقوة الخلافة نفسها ، ونوع العناصر التى كانت تعتمد عليها فى تكوين الجيوش الاسلامية .

٢ - ديوان الخراج :

كان ديوان الخراج من أهم الدواوين فى الدولة العربية لأنه كان يختص بالشئون المالية . وكان هذا الديوان يتولى تنظيم الضرائب وجبايتها والنظر فى مشكلاتها . وكان فى كل قطر فتحه العرب ديوان للخراج ، وكان لهـذا الديوان بدوره فروع فى مختلف بلدان كل قطر ، يقوم بالنظر فى مهمة توزيع الضرائب وتحديد مقدارها وجبايتها واعفاء من يستحق الاعفـاء . وقد مر بنا أن الخلفاء كانوا يعهدون الى الولاء فى الأقاليم المختلفة بالخراج أو الادارة المالية وأحيانا كانوا يسندون عمل الخـراج الى شخص آخر يكون مسئولا أمام الخليفـة مباشرة لا أمام الوالى ويعرف بصاحب الخراج ، وكان هـذا مما يحـد من سلطة الوالى كثيرا . ولذا كان لعامل الخراج أو لصاحب الخراج أهميـة كبيرة ، وكثيرا ما يكون منافسا للوالى مع أن الوالى هو رئيس الولاية بالنيابة عن الخليفة . وحسبنا دليلا على أهمية عامل الخراج من أنه عندما هـزم عمرو بن العاص الروم وطردهم من الاسكندرية سنة ٢٥ هـ أراد الخليفة عثمان بن عفان أن يولى عمرا على الحرب وأن يولي عبد الله بن سعد بن أبى سرح على الخراج فقال عمرو : « أنا اذا كماسك البقرة بقرنيها وآخـر يحلبها » [١] ورفض عمرو ما أراد عثمان وترك ولاية مصر .

وقد مر بنا كيف كانت سلطة الوالى مطلقة واسعة عندما

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر . ص ١٧٨ .

كان يجمع الولاية والخراج مثل الحجاج بن يوسف فى المشرق وقرة بن شريك فى مصر . وقد عرفنا من الأوراق البردية التى ترجع الى عصر الوليد بن عبد الملك أن الموظف المشرف على مالية الكورة فى مصر ، أى مندوب ديوان الخراج والأموال الخاص بمصر كان يعرف باسم الجسطال . وليس من شك فى أن اتساع رقعة الدولة العربية فى عصر الوليد بن عبد الملك قد جعل بيت المال يفيض بالدنانير والدراهم كما جعل عمال الخراج ومن يعاونهم من الموظفين والكتبة فى نشاط دائم . وكان كل اقليم يستبقى رواتب الموظفين وأعطيات الجند وأرزاقهم والأموال اللازمة للاصلاحات المختلفة ويرسل الفائض الى دمشق .

٣ ـ ديوان الخاتم :

أنشأ هذا الديوان معاوية بن أبى سفيان ، فكان يُختم بهذا الديوان الرسائل الصادرة من الخليفة ثم ترسل بعد ذلك الى الجهات المختلفة بعد أن يحتفظ فى الديوان بنسخة من رسائل الخليفة وأوامره ، وبعد أن تختم الرسائل بالشمع وبخاتم صاحب هذا الديوان وتحزم بخيط .

وكان الغرض الأساسى من هذا الديوان الاحتفاظ بأسرار المكاتبات الصادرة من مقر الخلافة الى الجهات المختلفة وعدم التغيير أو التلاعب فى تلك المكاتبات .

على أن ختم الرسائل كان موجودا قبل ذلك فقد ذكر ابن خلدون فى مقدمته أن النبى عليه الصلاة والسلام لما أراد أن

يكتب الى هرقل امبراطور الروم قيل له : ان العجم لا يقبلون كتابا الا اذا كان مختوما ، فاتخذ الرسول خاتما من فضة ونقش فيه « محمد رسول الله » وختم به أبو بكر وعمر وعثمان .

ولا شك أنه كان هناك دواوين مماثلة لهذا الديوان فى مختلف بلاد الدولة العربية .

٤ ـ ديوان الرسائل :

كان هذا الديوان يقوم بتحرير رسائل الخليفة وأوامره الى مختلف البلاد العربية كما كان يقوم بتحرير الرسائل مع بلدان الخارج التى كان لها علاقة بالدولة العربية . ولم يكن هذا الديوان قائما فى مقر الخلافة فحسب وانما كان هناك دواوين محلية للرسائل فى مختلف الأقطار العربية . ويشير القلقشندى الى وجود ديوان انشاء أو ديوان رسائل فى مصر منذ الفتح الى بداية الدولة الطولونية فى مصر الا انه يذكر أنه كان قليل الأهمية فيقول : « ولم يكن لديوان الانشاء بالديار المصرية فى هذه المدة صرف عناية تقاصرا عن التشبه بديوان الخلافة ، اذ كانت الخلافة يومئذ فى غاية العز ورفعة السلطان ، ونيابة مصر بل سائر النيابات مضمحلة فى جانبها ، والولايات الصادرة عن النواب فى نياباتهم متصاغرة متضائلة بالنسبة الى ما يصدر من أبواب الخلافة ، فلذلك لم يقع مما كتب منها ما تتوفر الدواعى على نقله ولا تنصرف الهمم لتدوينه »[١] .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الانشا ج ١١ ص ٢٨ (طبعة دار الكتب) .

أما فى الخلافة نفسها ، فان الخليفة الوليد بن عبد الملك بدأ يتجه الى العناية بأسلوب الرسائل ، وبنوع الورق وبشـــكل الخطوط . وفى ذلك يقول القلقشندى [1] : « ولم يزل الأمر فى المكاتبات فى الدولة الأموية جاريا على سنن السلف ، الى أن ولى الوليد بن عبد الملك ، فجوّد القراطيس ، وجلّل الخطوط وفخّم المكاتبات وتبعه من بعده من الخلفاء على ذلك ، الا عمر ابن عبد العزيز ، ويزيد بن الوليد المقدم ذكره ، فانهما جريا فى ذلك على طريقة السلف ، ثم جرى الأمر بعدهما على ما سنّه الوليد بن عبد الملك ، الى أن صار الأمر الى مروان بن محمد آخر خلفائهم ، وكتب له عبد الحميد بن يحيى — وكان من اللّسن والبلاغة على ما اشتهر ذكره — فأطال الكتب وأطنب فيها ، حيث اقتضى الحال تطويلها والاطناب فيها ، حتى يقال : انه كتب كتابا عن الخليفة جاء وقر جمل ، واستمر ذلك فيما بعده » .

٥ ـ ديوان المستغلات :

ورد اسم هذا الديوان منذ عهد الوليد بن عبد الملك وربما كان الغرض منه ادارة الأبنية والحوانيت والعمارات .

٦ ـ ديوان البريد

لم يكن ديوان البريد قائما فى عهد الخلفاء الراشدين ، ويقال ان معاوية بن أبى سفيان هو أول من وضع البريد لوصول الأخبار

---

(١) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٦ ص ٣٩١ .

اليه بسرعة من جميع أطراف بلاده وتبعه فى ذلك الأمويون ومن بعدهم العباسيون . ولم يكن البريد يخدم مراسلات الشعب وانما كان نظاما رسميا حكوميا . وكانت مهمة صاحب البريد فى أول الأمر توصيل الأخبار الى الخليفة بسرعة من الولايات المختلفة وبالعكس ثم أصبح صاحب البريد عينا للخليفة ينقل أوامره الى ولاته ، وينقل أخبار ولاته اليه ، كما يتجسس على أعداء الدولة .

أما كلمة بريد فالراجح أنها ليست عربية الأصل وانها من أصل لاتينى (ڤريدوس Veredus) ومعناها الدابة التى يركبها العامل لنقل مكاتبة أو رسالة . ثم نقلت الكلمة مجازا الى المسافة المقطوعة ثم استعملت كاسم للنظام كله . وقيل ان لفظ بريد عربى وانه مشتق من برد بمعنى أرسل .

وقيل ان البريد فى اللغة هو مسافة معلومة قدّرها الفقهاء بأربعة فراسخ والفرسخ ثلاثة أميال ، أى أن البريد مسافة معلومة قدرها اثنا عشر ميلا .

وقيل أيضا ان لفظ بريد فارسى معرب وان أصله بالفارسية « بريده دُم » ومعناها مقصوص الذنب ، ذلك لأن الفرس كانوا يقصون ذنب بغل البريد ليمتاز بذلك عن غيره من الدواب الأخرى .

وقد جعل معاوية للبريد محطات أو مراكز للاستراحة وللتزود بالزاد والعلف والماء ، ولتغيير الدواب والراكبين ، وكانت المسافة ما بين المحطتين فرسخين أى ستة أميال ، أو أربعة فراسخ . أما الدواب التى كانت تستعمل فى البريد فهى البغال والخيل

والابل ؛ وكانت الابل السريعة تستخدم بوجه خاص فى الجهات الصحراوية .

وفى عهد عبد الملك بن مروان أحكمت أمور البريد وأدخل عليه عدة تحسينات حتى أصبح أداة هامة فى ادارة شئون الدولة ويذكر الرواة أن عبد الملك قال لابن الدغيدغة : « وليتك ما حضر بابى الا أربعة : المؤذن ، فانه داعى الله تعـــالى فلا حجاب عليه . وطارق الليل فشر ما أتى به ولو وجد خيرا لنام . والبريد ، فمتى جاء من ليل أو نهار فلا تحجبه ، فربما أفسد على القوم سَنَة حبسهم البريد ساعة . والطعام اذا أدرك ، فافتح الباب وارفع الحجاب ، وخل بين الناس وبين الدخول »[١] .

وقد وصلت الينـــا نقوش معاصرة لعبد الملك بن مروان كشفت بالقرب من بيت المقدس وتشير الى أوامره ، بصنعة الأميال ، ومعنى صنعة الأميال مسح الأراضى لوضع حدود على كل مسافة قدرها ميل ، كما تبيّن تلك النقوش المعاصرة لعبد الملك عمارة أربعة طرق تخرج من ايلياء ، أى بيت المقدس ، ومن دمشق[٢] . ولا شك أن اهتمام الأمويين بالطرق كان لتسهيل البريد وخدمة هذا النظام . وكان رئيس ديوان البريد يعرف باســم صاحب البريد . وكان لصاحب البريد أتباع فى مختلف البلدان .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى : ج ١٤ ص ٣٦٨ .

(٢) Van Berchem, Max : Matériaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum, Jérusalem T.I. p. 20 (1920 - 1922) ; Combe, Sauvaget, Wiet : Répertoire Chronologique d'épigraphie Arabe. T.I. pp. 13 - 16.

وظل الخلفاء الأمويون يعنون بهذا النظام ويتعهدونه ، لأنه يسهل مهمة الحكم فى دولة اتسعت أطرافها . وكان الوليد بن عبد الملك يحمل على البريد الفسيفساء المذهب من القسطنطينية الى دمشق حتى صفّح منه حيطان المسجد الجامع بها ومساجد مكة والمدينة والقدس [1] .

٧ ـ كتاب الدواوين

وكان يقوم بأمور الدواوين الكتّاب ، وكانوا من خيرة المثقفين الذين يلمون بأنواع مختلفة من الثقافات والعلوم . ولدينا وصية منسوبة لعبد الحميد الكاتب ، كاتب مروان بن محمد ، وهذه الوصية موجهة الى الكتاب ، ويبين فيها ان الكاتب يجب أن يكون « قد نظر فى كل صنف من صنوف العلم فأحكمه ، فان لم يحكمه شدا منه شدوا يكتفى به . فنافسوا معشر الكتّاب فى صنوف العلم والأدب ، وتفقهوا فى الدين ، وابدءوا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض ، ثم العربية فانها ثقاف ألسنتكم ، وأجيدوا الخط فانه حلية كتبكم ، وارووا الأشعار ، واعرفوا غريبها ومعانيها وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها ، فان ذلك معين لكم على ما تسمون اليه بهممكم ، ولا يضعف نظركم فى الحساب فانه قوام كتّاب الخراج منكم » [2] .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ٠ ج ١٤ ص ٣٦٨ ٠

(٢) الجهشيارى : الوزراء والكتاب (باعتناء مصطفي السقا والابيارى والشلبى ، القاهرة ١٩٢٨) ص ٧٤ ـ ٧٥ ٠

وذكر الطبرى نفرا من كتبة الوليد فقال :

« وكان يكتب للوليد القعقاع بن خالد أو خليد العبسى ، وكتب له على ديوان الخراج سليمان بن سعد الخشنى ، وعلى ديوان الخاتم شعيب العمانى مولاه ، وعلى ديوان الرسائل جناح مولاه ، وعلى المستغلات نفيع بن ذؤيب مولاه » [1] .

٨ ـ تعريب الدواوين :

فى عهد عبد الملك بن مروان بدأت حركة « التنظيم والتعديل » على حد تعبير المؤرخين العرب ، فعمد عبد الملك الى صبغ الدولة بصبغة عربية والى الاعتماد على الموظفين من العرب أو الذين يتقنون العربية من أهل البلاد المفتوحة . وكما أمر عبد الملك فى سنة ٦٧ هـ بضرب نقود عربية بدلا من النقود الفارسية والبيزنطية التى كان يتداولها الناس حتى زمنه ، نراه يتجه الى تعريب لغة الادارة والحسابات .

وكانت دواوين الخراج فى البلاد المفتوحة حتى مجىء عبد الملك ابن مروان تكتب بلغات البلاد المحلية كما مر بنا فكانت تكتب بالفارسية فى المشرق ، وباليونانية والسريانية فى الشام ، وباليونانية والقبطية فى مصر . ويقول الجشهيارى « ولم يزل بالكوفة والبصرة ديوانان أحدهما بالعربية لاحصاء الناس وأعطياتهم ، وهذا الذى كان عمر قد رسمه ، والآخر لوجوه الأموال بالفارسية ، وكان

(١) الطبرى : تاريخ . ج ٧ ص ١٩٨ .

بالشام مثل ذلك ، أحدهما بالرومية والآخر بالعربية ، فجرى الأمر على ذلك الى أيام عبد الملك بن مروان »[1] . وكان كل اعتماد العرب بطبيعة الحال على أهل البلاد المفتوحة أو على الروم الذين بقوا في مصر والشام . وكان ذلك طبيعيا لقلة خبرة العرب بأمور الادارة ولأن الكتابة فن خاص .

ولكن توسع خبرة العرب ، واستقرار الدولة ، وتطورها ، واتجاهها نحو تقوية الحكم المركزى وذلك بجمع السلطان فى يد الحاكم ، كل ذلك أدى الى وجوب التعديل فى الدواوين المحلية سواء أكان من ناحية اللغة أم من ناحية الموظفين الذين يعملون فى هذه الدواوين . وكان هذا تأكيدا لسياسة الدولة العربية وسيادة اللغة العربية التى سار عليها بنو أمية . ومع ذلك فاننا نرى المؤرخين المسلمين مثل الجهشيارى يوردون أسبابا تافهه ويدعون أنها هى التى أدت الى التعريب فيذكرون قصصا عن تثاقل أحد الكتبة أو خصام بين كاتبين جعلوها سببا للتعريب . فيقول الجهشيارى « وكان يتقلد ديوان الشام بالرومية ، لعبد الملك ولمن تقدّمه ، سرجون بن منصور النصرانى ، فأمره عبد الملك يوما بشىء ، فتثاقل عنه وتوانى فيه فعاد لطلبه ، وحثه فيه ، فرأى منه تفريطا وتقصيرا فقال عبد الملك لأبى ثابت سليمان ابن سعد الخشنى — وكان يتقلد له ديوان الرسائل — أما ترى ادلال سرجون علينا ؟ وأحسبه قد رأى أن ضرورتنا اليه والى

---

(١) الجشهيارى : الوزراء والكتاب ص ٣٨ .

صناعته ، أفما عندك حيلة ؟ قال : لو شئت لحولت الحساب الى العربية ، قال : فافعل ، فحوّله . فرد اليه عبد الملك جميع دواوين الشام »[1] وكان الحجاج بن يوسف صاحب اليد الطولى فى الأخذ بهذا التعريب فى العراق وما يتبعها شرقا .

وكانت عملية التعريب عملية طويلة بدأها عبد الملك وسار الوليد بن عبد الملك على سياسة أبيه . ونرى الوليد بن عبد الملك يأمر سنة ٨٧ هـ (٧٠٦ م) واليه على مصر عبد الله بن عبد الملك بتدوين الدواوين فى مصر باللغة العربية بعد أن كانت تكتب بالقبطية[2] فجاء هذا العمل فى عهد الوليد تتمة لما بدأه الخليفة عبد الملك بن مروان فى سياسة التعريب .

ولم تتم عملية التعريب الا حين عربت دواوين خراسان فى أواخر الدولة الأموية فى ولاية نصر بن سيار حوالى سنة ١٢٤ هـ . والواقع أن هذا التعريب كان أول عملية ترجمة منظمة وجبارة ، وقد أدى الى نقل كثير من المصطلحات الفارسية واليونانية والقبطية الى العربية . وأصبحت الدولة من الناحية السياسية عربية بمعنى أكمل . وقد ساعد التعريب على شيوع اللغة العربية وانتشارها بين الموالى فأصبحت اللغة العربية لغة التدوين كذلك أصبحت اللغة العربية لغة الادارة فضلا عن أنها صارت لغة الثقافة بالاضافة الى أنها لغة السياسة والدين[3] .

(١) الجشهيارى : الوزراء ص ٤٠ .
(٢) الكندى : الولاة ص ٥٨ ـ ٥٩ ، خطط المقريزى ج ١ ص ٩٨.
(٣) انظر : الدكتور عبد العزيز الدورى : النظم الاسلامية . ج ١ ص ١٩٨ (بغداد ١٩٥٠) .

الفصل العاشر

الآثار والفنون

١ ـ طراز أموى :

كان العرب عنـد ظهور الاسلام فى دور من أدوار حياتهم لا يمكن أن يترك للعناية بالفنون مكانة تستحق الذكر ، فقد كان أمامهم مهمات أخـرى جليلة هى نصرة الدين الجديد ونشره وتأسيس امبراطوريتهم الواسعة الأرجاء . بل ان العارفين بطبيعة الجماعة الاسلامية فى عهد النبى عليه الصلاة والسلام وفى خلافة أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب يعتقدون أنه لو سار العالم الاسلامى على سُنة ذلك العصر لما قامت فى الاسـلام المساجد الشاهقة ، والعمائر الضخمة ، والقصـور الفاخرة ، ولما صنع المسلمون الثياب الغالية والآنية النفيسة وغير ذلك مما يخالف بساطة الدين وحياة الجهاد والتقشف التى كانت سائدة فى ذلك العصر . وليس هذا عيبا بأى حال من الأحوال لأن الأمم تمر فى حياتها بأطوار يحتاج كل منها الى اتجاهات خاصة وأهداف معينة ، ولا ريب فى أن المسلمين فى عصر النبى عليه الصلاة والسلام ، وعصر الخلفاء الراشدين كانت تشغلهم عن الفنون والعمارة أمور فى الدرجة

الأولى من الخطورة تتعلق بكيان الأمة ، وسلامة الجماعة العربية الناشئة ، ونشر الدين الاسلامى .

وهكذا نستطيع القول بأن العرب كان لهم الفضل فى قيام الامبراطورية العربية ونشر الدين الاسلامى ، ولكن نصيبهم فى بداية الأمر فيما يتعلق بالفنون كان محدودا ، كما كانت أبنيتهم بسيطة جدا . ويدلنا على بساطة البناء فى ذلك العهد الأول للدولة العربية الناشئة ، أن خارجة بن حذافة بنى غرفة فى الفسطاط فى مصر (أى دارا علوية أو بناءا مرتفعا) فبلغ ذلك عمر بن الخطاب فكتب الى عمرو بن العاص « سلام . أما بعد فانه بلغنى أن خارجة ابن حذافة بنى غرفة ولقد أراد خارجة أن يطلع على عورات جيرانه فاذا أتاك كتابى هذا فاهدمها ان شاء الله والسلام » (١) .

كذلك كان جامع عمرو بن العاص فى بداية تشييده فى غاية البساطة فكان فى بادىء الأمر طوله خمسين ذراعا وعرضه ثلاثين ذراعا ولم يكن له محراب مجوف كما كان سقفه واطئا جدا ولا صحن له ، ويقال ان عمرو بن العاص اتخذ منبرا فيه فكتب اليه عمر بن الخطاب يأمره بكسره لأنه لا يرضى أن يكون عمرو قائما والمسلمون جلوس تحت عقبيه ، فكسره عمرو (٢) .

ومثل تلك البساطة كانت فى البصرة والكوفة وفى مسجديهما .

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر . ص ١٠٤ .

(٢) خطط المقريزى ج ٢ ص ٢٤٧ ــ ٢٤٨ ، Creswell : Coptic Influences on Early Muslim Architecture (Extrait Bulletin de la Société d'Archéologie Copte. T. V 1939. Le Caire). p. 29.

على أن العرب ما لبثوا أن تخطوا عهد البساطة وتوسعوا فى البناء وأتنجوا فى الفنون ، ولا شك أن السبب فى ذلك يرجع الى اتساع الدولة العربية وتدفق الأموال اليها ، واختلاط العرب بالأمم الأخرى من ايرانيين وروم ، وتأثرهم بما شاهدوه من مظاهر الحضارة فى ايران والشام ومصر ، ورغبتهم فى أن يكون للاسلام مكانته ، وللدولة العربية منزلتها ، وفى ألا يظهر أمير المؤمنين كشيخ من شيوخ القبائل .

ونعرف من المصادر التاريخية ان عبد الله بن سعد بن أبى سرح والى مصر فى خلافة عثمان بن عفان بنى قصره الكبير الذى عرف باسم قصر الجن . ولفخامة ذلك القصر اذ ذاك قال له المقداد : ان كان من مال الله فقد أسرفت وان كان من مالك فقد أفسدت . فقال عبد الله بن سعد : لولا أن يقول قائل أفسد مرتين لهدمتها[1]. كذلك بنى عبد الله بن سعد الأسواق والحمامات فى الفسطاط .

وازدادت عناية العرب بالبناء والفنون أيام خلافة الأمويين . وكان الطراز الأموى الذى ينسب اليهم ، أول الطرز أو المدارس فى الفن الاسلامى . وازدهر هذا الطراز فى القرنين الأول والثانى بعد الهجرة . وكان هذا الطراز « طرازا امبراطوريا » شمل ديار الاسلام كلها ، كما كان طراز انتقال من الفنون والعمارة المسيحية فى الشرق الأدنى الى الطراز العباسى ، كذلك لم يخل هذا الطراز من التأثر بالأساليب الفنية الساسانية التى كانت مزدهرة فى الشرق

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١١٠ .

الأدنى عند ظهور الاسلام »[1] ذلك أن الأمويين عاشوا فى الشام حيث ازدهرت من قبلهم مدارس من الفنون الهلنستية والمسيحية الشرقية ، والتى تأثرت ببعض الأساليب الفنية الساسانية بحكم الجوار . وطبيعى أن العرب فى الشام تأثروا بالعمائر والفنون المسيحية التى شاهدوها ، وبدءوا يفكرون فى تشييد مساجد توازى فى العظمة كنائس المسيحيين ، ويتخذون من الطرف والتحف الفنية ما يتفق وعظمة ملكهم الجديد . وكان جل اعتماد العرب فى البداية على الصناع والفنيين من السوريين والأقباط والروم . وقد مكّن نظام الليتورجيا الحكومة الأموية من تنفيذ ما تريده من الأعمال الفنية الجليلة اذ كانت أقاليم الدولة العربية تلتزم بتقديم الصناع والفنيين ومواد الصناعة الى الحكومة . وقد نقل القواد والولاة أصول هذا الطراز الأموى من الشام الى سائر الأقاليم العربية[2] . وعنى الأمويون بتجديد بعض المساجد التى أنشئت فى عصر الخلفاء الراشدين مثل جامع البصرة وجامع الكوفة وجامع عمرو بن العاص ، لكن ازدهار فن العمارة ظهر على يدهم فيما شيدوه من مساجد مثل المسجد الأقصى وقبة الصخرة فى بيت المقدس ، والجامع الأموى فى دمشق [3] . هذا

---

(١) دكتور زكى محمد حسن : فنون الاســــلام ص ١٢ ـ ١٣ (القاهرة ١٩٤٨) .

(٢) دكتور زكى محمد حسن : فنون الاسلام ص ٣٢ ـ ٣٣ .

(٣) دكتور زكى محمد حسن : فنون الاسلام ص ٣٣ .

بالاضافة الى ما خلفه الأمويون من قصور أو ما رواه المؤرخون عن العمارة والفنون الأموية .

ويذكر المؤرخون أنه فى أثناء الشهرين اللذين أقامهما الخليفة مروان بن الحكم فى مصر ، أمر ببناء الدار البيضاء ليسكنها وقال انه لا ينبغى لخليفة أن يكون ببلد ليس له فيها دار [1] كذلك أمر عبد العزيز بن مروان والى مصر من قبل الخليفة عبد الملك ابن مروان ببناء الدار المذهبة سنة ٦٧ هـ فى غربى المسجد الجامع وكانت تدعى المدينة [2] . وحسبنا هذه التسمية لنعرف مبلغ تلك الدار من العظمة والفخامة .

كذلك بنى عبد العزيز بن مروان الدور والمساجد فى حلوان التى اتخذها عاصمة له ، وعمرها أحسن عمارة ، وغرس فيها الأشجار والنخيل ، حتى قيل انه أنفق فى بنائها مليون دينار[3] .

أما الخليفة عبد الملك بن مروان نفسه فان أبدع ما شيده هو قبة الصخرة فى بيت المقدس . وهى بناء حجرى مثمن الشكل ، قوامه تثمينة خارجية من الجدران ، تليها من الداخل تثمينة أخرى من الأعمدة والأساطين ، وداخل هذه التثمينة دائرة من الأعمدة والأساطين . وفوق هذه الدائرة قبة مرفوعة على رقبة أو اسطوانة ، وفى وسط هذا البناء الصخرة المقدسة التى يروى أن النبى عليه

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٤٥ .

(٢) الكندى : الولاة ص ٤٩ .

(٣) سعيد بن بطريق (المعروف باسم اوتيخا) : كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق . ج ٢ ص ٤٠ (بيروت ١٩٠٩) .

الصلاة والسلام وضع قدمه عليها ليلة المعراج ولذا يسمى البناء قبة الصخرة . وان كان يعرف أحيانا باسم جامع عمر لأن عمر ابن الخطاب كان قد أقام فى موضعه مصلى من الخشب قبل أن يقيم عبد الملك بن مروان على انقاضه البناء الحالى . وكان استخدام القباب معروفا عند المسيحيين الشرقيين قبل بناء قبة الصخرة ، كما كان فى الشام كنائس ذات قباب فوق أبنية مثمنة الشكل ، فليس غريبا أن يفكر عبد الملك بن مروان فى أن يكون للمسلمين عمائر تضارعها فى البهاء والعظمة (١) .

لكننا نجد المؤرخ اليعقوبى يكتب فى سبب بناء قبة الصخرة : « ومنع عبد الملك أهل الشام من الحج وذلك أن ابن الزبير كان يأخذهم اذا حجوا بالبيعة ، فلما رأى عبد الملك ذلك منعهم من الخروج الى مكة فضج الناس وقالوا تمنعنا من حج بيت الله الحرام وهو فرض من الله علينا ، فقال لهم هذا ابن شهاب الزهرى يحدثكم أن رسول الله قال : لا تشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدى ، ومسجد بيت المقدس ، وهو يقوم لكم مقام المسجد الحرام ، وهذه الصخرة التى يروى أن رسول الله وضع قدمه عليها لما صعد الى السماء تقوم لكم مقام الكعبة ، فبنى على الصخرة قبة ، وعلق عليها ستور الديباج ، وأقام لها سدنة ، وأخذ الناس بأن يطوفوا حولها كما يطوفون حول الكعبة وأقام بذلك أيام بنى أمية » (٢) . ويبدو أن هذه الرواية من وضع

(١) انظر : الدكتور زكى محمد حسن : فنون الاسلام . ص ٣٦ ــ ٤٠ .

(٢) اليعقوبى : تاريخ ج ٣ ص ٧ ــ ٨ .

خصوم بنى أمية ، ذلك أن عبد الملك كان من التابعين ، وكان يحرص على فرائض الدين وليس من المحتمل أن يقدم مثله على تغيير شعائر الدين بتحويل الحج عن الكعبة .

٢ ـ الوليد بن عبد الملك والفنون

أما الوليد بن عبد الملك فكان أعظم الخلفاء الأمويين أثرا فى العمارة والفنون . وقيل ان الناس فى دمشق كانوا يتحدثون فى عهد الوليد عن البناء والعمائر وجمالها ، وفى عهد سليمان بن عبد الملك عن الطعام والشراب ، وفى عهد عمر بن عبد العزيز عن الدين والقرآن .

والواقع أن الوليد سار على نهج سياسة أبيه وسياسة الأمويين فى العناية بالعمائر والفنون . ويشيد المؤرخون والأدباء القدماء بذلك مثل اليعقوبى والطبرى فى تاريخهما والثعالبى فى لطائف المعارف ، وابن فضل الله العمرى فى مسالك الأبصار ، والقلقشندى فى صبح الأعشى . ويؤيد ما ذهب اليه المؤرخون والأدباء النقوش الأثرية التى ترجع الى عهد الوليد ، والآثار التى لا تزال الى يومنا هذا وأعظمها الجامع الأموى فى دمشق ، والأوراق البردية التى ترجع الى عهد الوليد ، والدراسات القيمة الحديثة التى قام بها علماء الآثار مثل دراسات الأستاذ كريزول والدكتور زكى محمد حسن .

ويذكر المؤرخون أن الوليد كان مغرما بعمران البلاد واقامة المصانع . ونحن نعرف أن العرب كانوا يسمون الحصون الحربية

باسم المصانع . كذلك يذكر المؤرخون أن الوليد كان مغرما ببناء الجوامع وامتلاك الضياع . وكان الناس فى أيامه يسيرون سيرة خليفتهم ويحرصون على التشييد والتأسيس ويولعون بالضياع والعمارات لوفرة الثروة فى أيديهم . ويروى ان أحد عمال الوليد ابن عبد الملك كتب اليه أن بيوت الأموال قد ضاقت من مال الخمس فكتب اليهم أن يبنوا المساجد ، كذلك أجرى الوليد على العميان وأصحاب العاهات والمجذّمين وجعل لكل واحد خادما ، كذلك كان يهب أكياس الدراهم لتفرق فى الصالحين ، وزاد الوليد الناس جميعا فى العطاء وخاصة أهل الشام .

ويذكر اليعقوبى [1] عن الوليد أنه أول من عمل البيمارستان للمرضى ، وأول من أجرى على العميان والمساكين والمجذمين الأرزاق ، كما أنه أول من عمل دار الضيافة ، كما أنه كان أول من أجرى طعام شهر رمضان فى المساجد .

أما الطبرى [2] فيذكر أن الوليد كان عند أهل الشام أفضل خلائفهم ، بنى المساجد : مسجد دمشق ومسجد المدينة ، وأعطى الناس وأعطى المجذّمين ، وقال لا تسألوا الناس ، وأعطى كل مقعد خادما ، وكل ضرير قائدا .

ونفهم من المؤرخين القدماء ان الوليد بن عبد الملك عنى بالتشييد والبناء ، والاصلاح والتعمير ، فحفر الآبار وأصلح الطرق وبنى المساجد وخفف عبء الحياة على الناس ، فكان

---

(١) اليعقوبى : تاريخ ج ٣ ص ٣٤ ــ ٣٥ .
(٢) الطبرى : تاريخ ج ٨ ص ٩٧ .

أول من أمر بتشييد المستشفيات لذوى الأمراض المزمنة أو المستعصية .

وعنى الوليد بتجديد الكعبة فى مكة وتوسيعها . كذلك عنى بتجديد المسجد النبوى فى المدينة . ولم تكن المساجد التى شيدت فى عصر النبى عليه الصلاة والسلام والخلفاء الراشدين ترمى الى أكثر من جمع المصلين فى مكان واحد ، فكان مسجد النبى(ص) فى المدينة مساحة من الأرض مربعة الشكل يحيط بها جدران من الآجر والحجر ، وعلى جزء منها سقف من جريد النخل تغطيه طبقة من الطين ويستند الى عدد من جذوع النخل . وزاد عمر بن الخطاب فى هذا المسجد ، وجدده عثمان بن عفان . لكن العمارة الكبرى التى جعلته مثالا للمساجد فى العصور التالية هى التى تمت على يد الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك فى سنة ٨٧ هـ أو سنة ٨٨ هـ (٧٠٧ م) . وقد أشار اليها البلاذرى فى فتوح البلدان بقوله : « ثم لم يحدث فيه شىء الى أن ولى الوليد بن عبد الملك بن مروان بعد أبيه فكتب الى عمر بن عبد العزيز وهو عامله على المدينة يأمره بهدم المسجد وبنائه ، وبعث اليه بمال وفسيفساء ورخام وثمانين صانعا من الروم والقبط من أهل الشام ومصر ، فبناه وزاد فيه »[1] .

ولم يكن المحراب المجوف معروفا فى المساجد قبل عصر الوليد ابن عبد الملك وحين أعيد بناء مسجد المدينة فى عهد الوليد بن

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٣ ، دكتور زكى محمد حسن : فنون الاسلام ص ٣٣ .

عبد الملك عمل له محراب مجوف . كذلك ذاعت المنابر فى العصر الأموى . وعنى الوليد بتجديد سائر الجوامع ومن بينها جامع عمرو بن العاص . ففى ولاية عبد الله بن عبد الملك من قبل الوليد ابن عبد الملك أمر برفع سقف مسجد عمرو بن العاص وكان واطئا وذلك فى سنة ٨٩ هـ . ثم هدم قرة بن شريك مسجد عمرو بأمر الوليد بن عبد الملك فى سنة ٩٢ هـ وابتدأ فى بنيانه من جديد . وقد عثر على نص أثرى يدل على أن اصلاح جامع عمرو كان فى ولاية قرة بن شريك فى رمضان من سنة ٩٢ هـ [١] . ونعرف أن البناء تم فى رمضان من سنة ٩٣ هـ ونصب منبر جديد للجامع فى سنة ٩٤ هـ [٢] .

٣ ـ الجامع الأموى فى دمشق :

أما أبدع العمائر الأموية فكان المسجد الجامع فى دمشق . وكان هذا الجامع الأموى من أجل وأعظم ما بنى فى عصر الوليد ففيه آيات للفن العربى البديع وفيه معان لعظمة العرب وتفوقهم وغلبتهم فى كافة الميادين . وكان مكان الجامع الأموى معبد وثنى قديم هو معبد جوبيتر حـوّل فى أواخر القرن الرابع الميلادى الى كنيسة القديس يوحنا المعمدان . ولما فتح المسلمون دمشق فى عهد عمر بن الخطاب دخل أمير الجيش أبو عبيدة بن الجراح بالأمان من غرب البلد ، ودخل خالد بن الوليد بالسيف من شرقه

(١) Répertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe T.I. pp. 17-18

(٢) خطط المقريزى ج ٢ ص ٢٤٨ .

فصارت دمشق نصفين والكنيسة كذلك ، فاتخذ المسلمون نصفه الكنيسة الشرقى المفتوح عنوة مسجدا يصلون فيه وصلى النصارى فى النصف الآخر . ثم رأى الوليد بن عبد الملك أن المسجد قد ضاق بالمسلمين فبعث الى النصارى يستأذنهم فى أن يدخل كنيستهم فى المسجد على أن يعطيهم عوضها حيث شاءوا ، أو يعطيهم ثمنها ويضعف لهم الثمن (١) .

وكان هدم الكنيسة فى أول خلافة الوليد ، وبدىء فى بنيان المسجد فى سنة ٨٨ هـ (٧٠٧ م) واستمر بنيانه تسع سنوات . وقيل ان الوليد لما أراد بناء المسجد احتاج الى الصناع فكتب الى ملك الروم يطلب منه أن يوجه اليه مائتى صانع من صناع الروم ليبنى المسجد فأرسل اليه ملك الروم ما طلب .

كذلك استعان الوليد بن عبد الملك بالعمال والصناع المصريين فى بناء المسجد الجامع فى دمشق ففى الأوراق البردية نقرأ كتابا من قرة بن شريك الى صاحب كورة أشقوه نراه يحدد أجر أحد العمال الذين سيرسلون للعمل بجامع دمشق لمدة ستة أشهر (٢) . وكذلك نجد كتابا آخر من قرة يختص بالنفقة على أربعين من مهرة العمال الذين استخدموا فى بناء جامع دمشق (٣) .

---

(١) راجع ابن فضل الله العمرى : مسالك الأبصار فى ممالك الامصار ج ١ ص ١٨٢ ــ ١٨٣ (مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٤ م) .

(٢) Bell : Translations of the Greek Aphrodito Papyri (Der Islam vol. 2) p. 274.

(٣) Bell : op. cit : vol. III p. 133.

وقيل ان الوليد أنفق على عمارة هذا المسجد خراج المملكة سبع سنين وقيل ان حساب ما أنفق على المسجد حمل على ثمانية عشر بعيرا فأمر الوليد باحراق الحساب ولم ينظر فيه وقال : « هو شيء أخرجناه لله فلم تتبعه »[1] . وقيل كذلك ان الوليد أنفق فيه أربعمائة صندوق فى كل صندوق ثمانية وعشرون ألف دينار ، وانه اجتمع فى ترخيمه اثنا عشر ألف مرخِّم وقيل انه كان فيه ستمائة سلسلة ذهب . وذكر الرواة أن المسجد « زُخرف بأنواع الزخرفة من الفصوص المذهبة والمرمر المصقول ، وتحت نسره عمودان مجزعان بالحمرة لم يُر مثلهما ، يقال ان الوليد اشتراهما بألف وخمسمائة دينار ، وفى المحراب عمودان صغيران يقال انهما كانا فى عرش بلقيس وقيل أيضا انه كان عند منارته الشرقية حجر يقال انه قطعة من الحجر الذى ضربه موسى عليه السلام فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا »[2] . ويذكر المؤرخون أن الوليد لما فرغ من المسجد أمر أن يسقف بالرصاص فأتى بالرصاص من كل البلاد وبقيت قطعة منه لم يوجد لها رصاص الا عند امرأة وأبت أن تبيعه الا بوزنه ذهبا فقال الوليد : « اشتروه منها ولو بوزنه مرتين ، ففعلوا ، فلما قبضت الثمن ، قالت : انى ظننت أن صاحبكم ظَلم فى بنائه هذا ، فلما رأيت انصافه ، فأشهدكم أنه لله ، وردت الثمن ، فلما بَلَغ ذلك الى

(١) ياقوت الحموى : معجم البلدان ج ٤ ص ٧٦ .

(٢) انظر : القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٩٦ .

الوليد أمر أن يكتب على صفائح المرآة « لله » ولم يدخله فيما كتب عليه اسمه »[1] .

والحق أن المؤرخين والأدباء والرواة أفاضوا فى وصف هذا الجامع الأموى ، حتى قيل ان الزائر لهذا المسجد يرى فيه كل يوم شيئا جديدا لم يره من قبل من حسن صنائعه ، واختلافه . والواقع أن المبالغات التى نلمسها فى المصادر القديمة تدل على ابداع هذا المسجد وعظمة بنائه . وقيل انه بنى بالحجر والكلس ، واتخذت له ثلاث منائر اثنتان فى جناحى قبلته شرقا وغربا ، والثالثة فى شماله عرفت بالعروس ، كما عمل له أربعة أبواب ، وقد فصصت حوائط المسجد بالفسيفساء الرومى المذهب والملون بغرائب الأشجار والصباغة . وفى قبلته ثلاثة أروقة فى وسطها القبة المعروفة بالنسر . وفرش المسجد بالمرمر أما عمده فكانت من الرخام الأبيض والمجزع والأحمر المنقط والأخضر المرشوش والأسود الغرابى والأبقع والمعجون الأزرق ، ورصع محرابه بالجواهر الثمينة وكان المسجد يضاء بقناديل من الذهب والفضة .

وقد أعجب بهذا المسجد كل من رآه من مشرق ومغرب حتى قيل ان أحد الروم زاره فى عهد عمر بن عبد العزيز فخرّ مغشيا عليه فلما أفاق سألوه عما عرض له فقال : « كنا معشر أهل رومية نتحدث أن بقاء العرب قليل فلما رأيت ما بنوا علمت أن لهم مدة سيبلغونها فلذلك أصابنى ما أصابنى » ولما وصل ذلك الكلام

---

(١) ياقوت : معجم البلدان ج ٤ ص ٧٦ ــ ٧٧ .

الى مسامع عمر ، وكان عازما على قلع الفسيفساء والرخام ونزع السلاسل الذهبية ليبيعها ويرد ثمنها الى بيت المال ، ترك ما كان عازما عليه [1] .

وروى المؤرخون أنه لما أخذ الوليد فى بناء المسجد ، وظهر من تزويقه وبنائه وعظم مؤونته تكلم الناس ، وقالوا : محق بيوت الأموال فى نقش الخشب وتزويق الحيطان . ولما بلغ ذلك الوليد صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : قد بلغنى مقالتكم وليس الأمر على ما ظننتم . ألا وأنى أمرت باحصاء ما فى بيوت أموالكم فأصبت فيه عطاءكم ست عشرة سنة [2] .

وقيل ان الوليد لما بلغه كلام الناس قال : يا أهل دمشق انى رأيتكم تفخرون بمائكم وهوائكم وفاكهتكم وحماماتكم ، فأحببت أن يكون مسجدكم الخامس [3] .

والحق ان النفقات التى قيل انها أنفقت على بناء هذا المسجد لا تكاد تذكر بجانب هذا الفخر للعرب ، وبجانب هذه العظمة البالغة فى العمارة والفنون . وبالرغم من هـذه النفقات الباهظة فان المصادر تجمع على أن الوليد لم يظلم أحدا ولم يغبن عاملا فى أجر ، ويقال : « ما تم مسجد دمشق الا بأداء الأمانة . لقد كان يفضل عند الرجل منهم الفلس ورأس المسمار فيجىء به حتى يضعه فى الخزانة »[4] .

---

(١) ابن فضل الله العمرى : مسالك الأبصار ج ١ ص ١٩١ .

(٢) نفس المرجع ص ١٨٦ .

(٣) ابن فضل الله العمرى : مسالك الأبصار ج ١ ص ١٨٨ .

(٤) نفس المرجع ص ١٨٥ .

وقد زعم بعض مؤرخى الفنون أن بيت الصلاة فى المسجد الحالى هو كنيسة القديس يوحنا التى قسمها المسلمون بينهم وبين المسيحيين بعد فتح دمشق ، وان الوليد بن عبد الملك لم يشيد من المسجد الا القبة والمئذنة الشمالية أما ما عدا ذلك فكان بعض اصلاحات جزئية فى بناء الكنيسة . ولكن أعلام رجال الآثار قد أثبتوا خطأ هذا الزعم وقرر كريزويل وستريجوفسكى وسوڤاجيه وغيرهم ان المسجد الحالى بناء متجانس وأن تخطيطه يخالف تخطيط الكنائس البيزنطية وأنه يرجع الى عصر الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك مع بعض اضافات فى العصور التالية .

وقد جدد بناء المسجد وأعيد بناء بعض أجزائه فى العصور التالية . وشكل هذا المسجد مستطيل طوله ١٥٧ مترا وعرضه مائة متر . ولا ريب فى أن أبدع ما وصل الينا من فسيفساء الدولة العربية هو فسيفساء قبة الصخرة وفسيفساء الجامع الأموى فى دمشق .

ومما يؤسف له أن فسيفساء الجامع الأموى فى دمشق قد أصاب معظمها التلف بسبب الحرائق المختلفة التى شبت فيه ، فلم تبق منها الا أجزاء صغيرة الى أن كشفت منها سنة ١٩٢٧ م أجزاء عظيمة الشأن كانت حتى ذلك الحين مغطاة بالملاط . وأهم هذه الأجزاء المكتشفة ما يقع على مقربة من المدخل الرئيسى للجامع . وقوام هذا الجزء الكبير رسم نهر فى مقدمة المنظر ، وعلى ضفته الداخلية أشجار ضخمة تطل على منظر طبيعى ، فيه رسوم عمائر بين أشجار وغابات ومن هذه الرسوم رسم ملعب للخيل ،

ورسم قصور ذات طابقين وأعمدة جميلة ، ورسم بناء مربع الشكل وله سقف صينى الطراز ، كما نرى رسم عمائر صغيرة تبدو كأنها موضوعة الواحدة فوق الأخرى . وفوق النهر المذكور قنطرة تشبه قنطرة فوق نهر بردى بدمشق ، مما حمل على القول بأن هذه الرسوم قد تكون لمناظر فى مدينة دمشق نفسها [1] .

٤ ـ الجامع الأموى فى حلب والمسجد الاقصى وقصر الوليد :

ومن أهم العمائر الاسلامية التى بنيت فى العصر الأموى جامع حلب الكبير ، ويقال انه كان معادلا للجامع الأموى فى دمشق بجماله وفنه ، وخاصة بأحجاره المرمرية وفسيفسائه . ويظن أن سليمان بن عبد الملك بناه ليتمثل بأخيه الوليد الذى أنشأ جامع دمشق ، ويظن آخرون أن الوليد نفسه هو الذى بنى الجامع الأموى فى حلب .

ويذكر المؤرخون وعلماء الآثار أن عبد الملك بن مروان شيد مسجدا بالقرب من قبة الصخرة فى القسم الجنوبى من الحرم الشريف ببيت المقدس فى مكان لعله كان موقع كنيسة قديمة ، وأطلق الأهالى على هذا المسجد اسم المسجد الأقصى كما يطلق هذا الاسم أيضا على جميع الأبنية المقدسة فى هذه البقعة التى تعرف كذلك بالحرم الشريف ، وهى تلى فى الأهمية الدينية حرم مكة وحرم المدينة ولذا فهى معروفة بثالث الحرمين . ويظهر من أوراق

---

(١) دكتور زكى محمد حسن : فنون الاسلام ص ٦٤٧ .

البردى ان الخليفة الوليد بن عبد الملك هو الذى بنى أو أتم بناء المسجد الأقصى ، فى الوقت الذى كان يبنى فيه المسجد الأموى وقصرا للخلافة فى دمشق . ففى كتاب بردى من قرة بن شريك والى مصر فى خلافة الوليد ، الى صاحب كورة أشقوه ، نراه يطلب عدة رجال من أماكن مختلفة للعمل فى بناء قصر الخليفة الوليد بن عبد الملك (١) . وفى كتاب آخر نرى قرة يطلب أحد العمال ويحدد أجره للعمل لمدة ستة أشهر فى جامع بيت المقدس (٢). ونجد كتابا آخر يختص بالنفقة على الفعلة والعمال المهرة الذين يعملون فى جامع بيت المقدس وفى قصر أمير المؤمنين (٣) . وهناك كتب أخرى تختص بالصرف على العمال الذين يعملون فى بيت المقدس أو دمشق أو قصر أمير المؤمنين (٤) .

٥ ـ القصور الأموية فى البادية :

لم تحفظ الأيام لنا القصور الأموية التى فى دمشق أو فى بقية المدن التى كان خلفاء بنى أمية يحبون الاقامة فيها مثل الرملة التى اتخذها سليمان بن عبد الملك مقرا له ، ومثل الصنبرة (على الشاطىء الجنوبى لبحيرة طبرية) التى كان معاوية ومروان يشتوان بها ، ومثل حوارين وأذرعات التى أحب يزيد بن معاوية الاقامة

---

(١) Bell : Translations ... vol. II. p. 274

(٢) Bell : op. cit ... vol. IV. p. 93.

(٣) Bell : op. cit. vol. III. p. 383.

(٤) Bell : vol. III p. 133, 134, vol. IV p. 95, vol. XVIII p. 6.

فيها ، ومثل الجابية التى فضلها عبد الملك بن مروان على غيرها . الا أنه بقى مع الأيام بعض أطلال العمائر الأموية التى أقامها الأمويون فى بادية الشام من الشمال الى الجنوب . وأطلق على بعض هذه العمائر أسماء حديثة لم ترد فى المدونات القديمة . ومن تلك القصور قصير عمرة ، وقصر المشتى ، وقصر خربة المنية ، وقصر القسطل ، وقصر الطوبة ، وقصر الموقر ، وقصر الحير الشرقى ، وقصر الحير الغربى ، وقصر خربة المفجر . ولعل بعض هذه الأطلال المنتشرة فى بادية الشام كانت حصونا حربية ، أو مصانع على حد تعبير العرب القدماء ، ولعل البعض الآخر كان قصورا شتوية مثل قصر خربة المفجر فى فلسطين الواقع على بعد ثلاثة أميال من اريحا شمالا . ولعل البعض كان قصورا يلجأ اليها الخلفاء الأمويون للاستجمام من متاعب الحكم وللصيد ، وليشبعوا ما فى نفوسهم من حنين الى حياة البادية ولم يكن عهد الخلفاء الأمويين قد بعد عن حياة البادية بعد .

وكان الخليفة الأموى يخرج الى قصور البادية أحيانا فرارا من الأمراض الوبائية أو على حد تعبير المؤرخ الطبرى [1] ، حين تكون الأيام بالشأم وبية .

ومن أهم تلك القصور قصر أسيس (سيس حديثا) الواقع على بعد ثلاثة وثمانين ميلا من دمشق شرقا . وهو موقع محصن يشتمل على جهاز للرى يستخدم للانتفاع بمياه الأمطار وهـذا

---

(١) الطبرى : تاريخ : ج ٩ ص ٦ .

الأثر هو الوحيد من نوعه من الآثار الباقية ، وأغلب الظن أنه من المباني التى أقامها الوليد بن عبد الملك . والمعروف أن الوليد ابن عبد الملك كان يقيم فى مدينة تل سيس أحيانا [1] .

أما قصير عَمرة فيرجع الى عهد الوليد بن عبد الملك بين سنتى ٩٢ هـ — ٩٦ هـ (٧١١ — ٧١٥ م) ، وهو قصر صيد صغير يقع على بعد خمسين ميلا شرقى عمان فى شرقى الأردن . ويمتاز هذا القصر بتصاوير جدرانه الرائعة ، ولم يعرف هـذا القصر الا بعد أن صورته البعثة العلمية التى كان يرأسها الأستاذ موزل Alois Musil والتى أتيح لها أن تكشف هـذا البناء لعلماء الآثار سـنة ١٨٩٨ . وتضـم هـذه النقوش رسوم صـيد واستحمام ورسوم راقصات ونساء شبه عاريات ، ورسوما رمزية لآلهة الشعر والفلسفة والنصر والتاريخ عند الاغريق ، وأخرى لبعض مراحل العمر المختلفة : الفتوة والرجولة والكهولة ، ورسما لقبة السماء ، وبعض النجوم فضلا عن البروج المختلفة ، ورسوم طيور وحيوانات وزخارف نباتية . ولكن أهم نقوش هذا القصر نقشين : الأول رسم الخليفة على عرشه وحول رأسه هالة وفوقه مظلة يحملها عمودان حلزونيان ، ويحف به شخصان ، وكان على عقد المظلة كتابة كوفية تطرق التلف الى كثير من أجزائها ويستنبط من الكلمات الباقية أنها كانت تشتمل على عبـارات دعائية .

---

(١) انظر : دكتور زكى محمد حسن : فنون الاسلام ص ٤٤ ، الدكتور فيليب حتى : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين (ترجمـة الدكتور كمال اليازجى ـ دار الثقافة ـ بيروت ١٩٥٩) ج ٢ ص ١٢٥ .

أما النقش الثانى فهو عبارة عن الصورة المشهورة المعروفة باسم صورة « أعداء العرب » والتى اعتمد عليها العلماء فى تأريخ قصير عمرة ، وقوام هذه الصورة ستة أشخاص ذوى ملابس فاخرة مرسومين فى صفين : ثلاثة فى الصف الأول وثلاثة فى الصف الثانى . وفوق أربعة منهم كتابة بالعربية والاغريقية لا تزال باقية . فالأول من اليسار (وهو فى الصف الأمامى) فوقه كلمة « قيصر » بالعربية واليونانية ، والثانى (وهو فى الصف الخلفى) فوقه كلمة يظن أنها « لودريق » آخر ملوك القوط فى اسبانيا ، وقد قتل حين قضى العرب على جيشه فى معركة شريش سنة ٩٢ هـ (٧١١ م) ، والثالث (وهو فى الصف الأمامى) فوقه كلمة « كسرا » فهو ملك الفرس ، والرابع (وهو فى الصف الخلفى) فوقه كلمة النجاشى فهو ملك الحبشة . وقد رجح المستشرق السويسرى « ڤان برشم » Van Bercham أن الأشخاص المرسومين فى الصف الأمامى ملوك امبراطوريات كبيرة ، فى حين أن المرسومين فى الصف الخلفى ملوك دول صغيرة ، كما رجح أن ترتيب الأشخاص فى الصفين من اليسار الى اليمين يقابل موقع بلادهم الجغرافى من الغرب الى الشرق ، واستنبط من ذلك أن الشخص الخامس (وهو فى الصف الأمامى) ربما كان امبراطور الصين (ولعل المقصود حاكم بخارى) ، وأن الشخص السادس ربما كان أحد الأمراء الترك الذين حاربهم قتيبة بن مسلم الباهلى قبل أن يفتح سمرقند سنة ٩٣ هـ (٧١٢ م) ، وربما كان داهر ملك السند الذى قتله محمد بن القاسم سنة ٩٣ هـ حين فتح تلك الأقاليم . وذكر

فان برشم أن هذين الأميرين والأمراء الآخرين يمكن اعتبارهم أعداء العرب عامة وأعداء الوليد بن عبد الملك خاصة ، وانّنا نستطيع بوساطة هذه الصورة أن ننسب قصير عمرة الى الفترة الواقعة بين معركة شريش سنة ٩٢ هـ (٧١١ م) أو سقوط سمرقند سنة ٩٣ هـ (٧١٢ م) ووفاة الوليد الأول سنة ٩٦ هـ (٧١٥م) [١] .

(١) دكتور زكى محمد حسن : فنون الاسلام ص ٤٤ ـ ٤٧ ، بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ج ١ ص ١٨٦ ـ ١٨٩ (ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكى ـ دار العلم للملايين ـ بيروت) .

الفصل الحادي عشر

دراسات فى المجتمع على عهد الوليد

١ ـ العرب

كان قوام المجتمع الاسلامى فى العصر الأموى سيادة العرب . وكان العرب فى البداية لا يدفعون أى ضريبة على ما بيدهم من الأرض الا الزكاة . وكانوا يؤلفون الجيوش التى ترابط فى الأمصار أو تشتغل بالفتوحات ، وكانوا الأغلبية العظمى فى ديوان الجند الذين يتقاضون عطاء من بيت المال نقدا وعينا من غنائم الفتوحات والأموال الواردة من البلاد المفتوحة .

وزادت الأراضى التى يمتلكها العرب زيادة كبيرة منذ عهد معاوية بن أبى سفيان وذلك اما بالاقطاع من الحكومة ، أو بطريق الشراء من ملاك الأرض الأصليين . وكان الخلفاء قد عمدوا الى طريقة الاقطاع ليضمنوا زراعة الأرض التى آلت الى الحكومة وليضمنوا أن يدخل من ايرادها شىء الى بيت المال ولو بطريق الزكاة . وذلك أن الحكومة كانت قد آلت اليها الأرض التى كانت ملكا للحكومة الساسانية أو للحكومة البيزنطية ، فضلا عن الأرض التى هجرها كبار الملاك بعد هزيمة جيوش بيزنطة وايران هذا بالاضافة الى الأرض غير المستصلحة (الموات). وهكذا أصبحت

مساحات واسعة من الأرض فى البلاد المفتوحة قطائع أو صوافٍ يدفع عنها أصحابها الزكاة ولا يدفعون الخراج الذى يدفعه أهل الذمة عما بيدهم من الأرض . ولم يكن أصحاب هذه الاقطاعات يسكنون فى اقطاعاتهم دائما فان كثيرا منهم كانوا يسكنون المدن .

وكان أصحاب الاقطاع عادة من أفراد البيت الأموى ، وكبار أعوانه من أعلام العرب . وهكذا نشأت طبقة من كبار الملاك ، وكان بعضهم يعنى بالزراعة واستثمار الأرض عناية طيبة .

كما يبدو أن العرب لم يشتغلوا بالتجارة الى حد كبير فى هذا العهد ، وانما أقبل الخلفاء والطبقة الأرستقراطية وكبار الملاك على البذخ وحياة الترف ، واتخذوا الدور الكبيرة والقصور فى المدن وفى البادية .

ولم يكن جميع العرب ينالون عطاء من الدولة فقد كانت هناك طوائف فقيرة من عرب العراق والبحرين غير مسجلة فى ديوان العطاء ، ولم تكن من الناحية الاقتصادية أرفع من طبقة الموالى التى سيأتى الكلام عليها .

ولا نستطيع أن نعرف على وجه التحديد أى احصاء لطبقة العرب فى المدن والأمصار المختلفة ، ولكن لدينا بعض الاحصاءات التى قد تعطى فكرة فى هذا الموضوع . فعدد العرب الذين كانوا يتناولون عطاء فى دمشق وأعمالها فى عصر الوليد بن عبد الملك بلغ خمسة وأربعين ألفا . وفى عهد مروان بن الحكم كان العطاء فى حمص وأعمالها لعشرين ألف عربى .

ويقال ان العرب الذين كانوا فى الشام فى نهاية القرن الأول

الهجرى بلغوا نحو ربع مليون شخص كان معظمهم من الجند والموظفين والبدو ، ولا سيما من القبائل العربية التى كانت تسكن تلك البقاع قبل الاسلام .

أما فى مصر فكان عدد العرب أقل بكثير ، والراجح أنهم بلغوا فى نهاية العصر الأموى بضعة آلاف .

٢ ـ الموالى

أما الطبقة الثانية فى المجتمع الاسلامى فى عصر بنى أمية فكانت طبقة الموالى وهم المسلمون من غير العرب .

وكان لهم من الناحية الاسمية معظم ما للعرب من الحقوق . ولكن هذه المساواة بالعرب لم ينلها منهم الا البقية الباقية من الأرستقراطية الفارسية القديمة التى ترك العرب لها كثيرا من ميزاتها وحقوقها الاقتصادية والاجتماعية القديمة فلم يفقدوا الا سلطانهم السياسى ، وكسبت الحكومة العربية القائمة ولاءهم .

ولكن الأغلبية العظمى من الموالى كانوا فى منزلة اجتماعية دون منزلة العرب ، وكان ذلك سببا فى سخطهم وباعثا لهم على مناصرة الحركات المختلفة التى كانت تناهض بنى أمية ولا سيما حركة الشيعة فى العراق وحركة الخوارج فى ايران . والملاحظ فضلا عن ذلك ، أن الدهاقين الفرس ، أو الطبقة الأرستقراطية القديمة ، قد تخلوا عن الدولة الأموية وانضموا الى الدعوة العباسية حين سحبت امتيازاتهم وفرضت الضرائب على ما كان بيدهم من الأرض على يد نصر بن سيار العامل على خراسان فى نهاية العصر الأموى .

ومما يستحق الذكر أن الموالى وأهل الذمة كانوا يستخدمون كثيرا فى وظائف الدولة ولا سيما ما كان متصلا منها بشئون المال ، وكان العمال يلجأون الى ذلك لضمان الخراج وابتعادا عن العصبية القبلية التى قد تمنعهم من محاسبة كبار العرب فى الأمور المالية . وقد كتب المؤرخ ابن الأثير فى كتابه الكامل ، أن عبيد الله بن زياد قال : « كنت اذا استعملت العربى يكسر الخراج فاذا أغرمت عشيرته أو طالبته أوغرت صدورهم ، وان تركته تركت مال الله ، وأنا أعرف مكانه . فوجدت الدهاقين أبصر بالجباية ، وأوفى بالأمانة ، وأوهن بالمطالبة منكم ، مع انى جعلتكم أمناء عليهم لئلا يظلموا أحدا » .

وقد بدأت حركة الشيعة فى البداية بين العرب ، وكانت حركة عربية سياسية تؤيد حق سيدنا علىّ بن أبى طالب وذريته فى الخلافة . وقد نالت هذه الحركة تأييد العراق لأن علىّ بن أبى طالب كان قد نقل مركز الحكومة الى الكوفة على حين اتخذ الأمويون الشام مركزا لهم .

وأدت مأساة كربلاء التى استشهد فيها الحسين بن علىّ ابن أبى طالب الى فشل حركة الشيعة كحزب سياسى ولكنها كانت حافزا وبداية لنموها كمذهب دينى . وأقبل الموالى الساخطون على الأرستقراطية العربية الأموية ، على الانتصار للمذهب الشيعى ولا سيما أن الموالى الفرس كانوا قريبى العهد بمبدأ الوراثة فى الحكم فى بلادهم قبل الاسلام . وهكذا كان انتصار الموالى لمذهب الشيعة معبرا عن سخطهم على الحكومة الأموية القائمة ، وعلى السيادة العربية بوجه عام ، وعلى النظام

الاجتماعى العربى الذى لم يمنحهم المساواة التامة بالعرب .

وطبيعى أن المذهب الشيعى لم يقم على أكتاف الموالى فحسب ، فان كثيرين من العرب فى العراق — ولا سيما فى الكوفة — كانوا من أعظم المتحمسين له ، بل ان الفضل فى نشر هذا المذهب فى ايران كان للعرب قبل كل شىء ، وكانت الحامية العربية فى مدينة « قم » — وأصلها من جند الكوفة — من أهم المعاقل الشيعية فى ايران .

كما نلاحظ أن حركة المختار بن أبى عبيد الثقفى قد رفعت من شأن الموالى . وقد قام المختار فى البداية يعلن أنه قادم من قبل محمد بن الحنفية (وهو ابن على بن أبى طالب من غير فاطمة) للأخذ بثأر الحسين ، ونجح فى الاستيلاء على الكوفة ، وقتل كثيرين ممن اشتركوا فى قتل الحسين وعلى رأسهم الوالى الأموى عبيد الله بن زياد بن أبى سفيان . ولكن مصعب بن الزبير الذى قدم الى العراق واليا عليها من قبل أخيه عبد الله بن الزبير اصطدم بالمختار وهزم جيشه فى ضواحى الكوفة ، وتفرّق أصحابه .

ولكن الذى يعنينا الآن أن المختار سوّى بين الموالى والعرب ونفخ فى روح الموالى ، فانتشر التشيّع بينهم ، واقترنت الفكرة السياسية بالفكرة الشيعية الصميمة ، واقترن التشيع عند الفرس بحب آل البيت والعمل من أجلهم . وكان ذلك فاتحة للحركة الكبرى التى قامت على أكتاف الموالى وانتهت بسقوط بنى أمية .

أما الخوارج فكانوا فى البداية حزبا دينيا وسياسيا ذا مبادىء ديمقراطية متطرفة لم تلبث أن تطرقت الى الفوضى . وقالوا فى

البداية بأن الخلافة حق لكل عربى حرّ ، وان الخليفة الذى يُختار لا يصح له أن ينزل عن الخلافة ، واذا جار استحلوا عزله أو قتله اذا دعا الحال .

ولكن الخوارج أدخلوا بعض التعديل فى شروط الخلافة ، فشرطوا أن يكون المرشح للخلافة مسلما عادلا بدلا من أن يكون عربيا حرا . وهكذا انضم الى صفوفهم كثير من الموالى ، بل انهم جعلوا حق الخلافة شائعا بين جميع المسلمين من أحرار وأرقاء على السواء .

واشترك كثير من الموالى مع الجند العرب فى جيوش الفتح ولا سيما فى خراسان وبلاد المغرب ولكن معظمهم كانوا يحاربون مشاة وكان عطاؤهم أقل من عطاء الخيّالة العرب .

والواقع أن الاقتصاد فى الدولة الأموية كان يقوم على أن يكون الحكم بيد أقلية من العرب ، تعمل لها جموع الموالى وأهل الذمة ولم يكن هذا غريبا لأن مساواة الموالى وأهل الذمة بالعرب من الناحية المالية كان معناه أن ينخفض ايراد الدولة وتقل مواردها من الجزية والخراج .

ومن المهم أن نلاحظ أن النظام المالى فى عصر بنى أمية كان أقل ارهاقا على البلاد المفتوحة من النظم التى عرفتها قبل الاسلام ، وأن أسس هذا النظام كانت قد وضعت فى عصر الخلفاء الراشدين ولكنها تطورت تطورا طبيعيا فى عصر بنى أمية .

وأقبلت جماعات كبيرة من الموالى على الهجرة الى المدن والأمصار العربية حيث اتخذت لها مساكن حول الخِطط العربية .

واشتغل هؤلاء الموالى بخدمة العرب واحترفوا المهن المختلفة ولا سيما الصناعات المختلفة والتجارة .

ولجأت الحكومة منذ عصر عبد الملك بن مروان ، ولأسباب اقتصادية ، الى فرض الخراج على أرض الذميين الذين يعتنقون الاسلام ، والى ارجاع الموالى من المدن الى أرضهم الزراعية ، حتى لايزداد الهبوط فى دخل الأرض بسبب الانصراف عن الزراعة .

وأقبل الموالى على تعلم اللغة العربية ، ولكن الحياة العقلية فى العصر الأموى كانت عربية بحتة ، وكان بيد العرب علوم الحديث والفقه واللغة والتاريخ التى ظهرت فى هذا العصر ، كما يظهر جليا فى مراكز الحياة العقلية فى البصرة والكوفة والمدينة والفسطاط .

والواقع أن الموالى لم يظهر شأنهم فى الحياة العقلية الا بعد أن تم تعريب الدواوين فى عهدى عبد الملك بن مروان ، والوليد ابن عبد الملك ، وبعد أن تقدمت حركة التعريب الاجتماعية الشاملة تقدما ملحوظا بعد هذا التعريب الرسمى للدواوين . فالحديث عن مشاركتهم القوية فى الحياة العقلية انما يكون عند الكلام على العصر العباسى . ولكن الشعوبية الذين كانوا يقولون بتفضيل العجم على العرب بالغوا فى هذا الميدان فقللوا من شأن العرب الى حد كبير .

٣ ـ أهل الذمة

كانت الطبقة الثالثة فى المجتمع الأموى تتألف من أهل الذمة ، أى أهل الكتاب من اليهود والمسيحيين والصابئة . والصابئة طوائف

كانت عقائد بعضها تجمع بين اليهودية والمسيحية ، وكانوا يسكنون المنخفضات فى جنوبى العراق والأغوار الواقعة على مصب الفرات (وألحقت بالصابئة طائفة كانت تسكن حران فى الجزيرة ، وفى تعاليمها كثير من الوثنية وعبادة النجوم) .

وكان على أهل الذمة أن يؤدوا الجزية ، وألا يحملوا السلاح ، وهم فى مقابل ذلك يتمتعون بحماية الدولة الاسلامية ، كما كانوا يرجعون فى قضائهم الى رؤسائهم الدينيين .

وقد امتدت هذه المعاملة فى كثير من الأحيان الى المجوس والبوذيين ، والى البربر ، والى الوثنيين فى حرّان . فخيروا بين الاسلام والجزية والقتال ، بدلا من الاسلام أو القتال .

وكان أهل الذمة يلقون فى العصر الأموى معاملة طيبة ويلون بعض وظائف الدولة الى أن كان عصر عمر بن عبد العزيز فتغيّر وضعهم بعض الشىء ، فان عمر بن عبد العزيز لم يضطهدهم ولكنه كان يعمل على أن تكون الأداة الحكومية اسلامية بحتة ، وعلى أن ينتشر الاسلام بين أهل الذمة الى أبعد الحدود ، فوضع على الذميين قيودا نسبت الى عمر بن الخطاب وذلك بأن منع تقلدهم وظائف الحكومة ومنعهم لبس العمامة وفرض عليهم زيّا خاصا .

ولكن هذه القيود لم يكن يُعمل بها أو يتشدد فى تنفيذها دائما .

وقد أقبل سكان البلاد المغلوبة على اعتناق الاسلام ولا سيما بعد أن أمر عمر بن عبد العزيز برفع الجزية عمن يعتنق الاسلام ،

وباقصاء أهل الذمة عن مناصب الحكومة ، وبفرض زى خاص على أهل الذمة .

وكان انتشار الاسلام فى مصر وطبعها بالطابع العربى أسرع مما كان فى سائر الأقاليم المفتوحة .

وقامت فى البلاد المفتوحة حركتان رئيسيتان : الأولى انتشار الدين الاسلامى ، والثانية التعريب . واختلفت سرعة هاتين الحركتين باختلاف الأقاليم وتمسكها بقوميتها ، وباختلاف طبيعة البلاد ، بمعنى أن المناطق الجبلية كانت أبعد عن التأثر بالعرب والانقياد الى الاسلام من السهول .

٤ ـ الرقيق :

والطبقة الرابعة فى المجتمع الأموى هى طبقة الرقيق . فان الاسلام لم يلغ نظام الرقيق ، ولكنه أوصى بالرفق بالعبد وحسن معاملته .

ومنع الاسلام استرقاق المسلم ، ولم يبح الاسلام الا استرقاق أسرى الحروب الشرعية التى تقوم على اعلاء كلمة الله تعالى ، وذلك مالم تؤد عن الأسير الفدية . وحبب الاسلام بشتى الوسائل فى الغاء الرق ، وذلك لأن الاسلام اعتبر الرق عارضا ، ولذلك شرّع الاسلام عدة وسائل للنهوض بالأرقاء ومساعدتهم على استرداد حريتهم واستقلالهم .

وكان أهم مورد للرقيق فى العصر الأموى أسرى الحروب . وكان مولود الأمة من غير سيدها لا يعد من الأحرار ، وكذلك

مولودها من سـيدها ان لم يلحقه بنسبه ، ويعترف ببنوته . أما الأمة التى تلد لسيدها مولودا يعترف به فتصبح « أم ولد » وترتفع منزلتها الاجتماعية ، ولا يجوز بيعها أو اهداؤها ، وتنال حريتها بعد موت سيدها . أما أولاد العبد من زوجة حرة فكانوا يعدون من الأحرار . وكان العبد المعتق يصبح مولى لسيده ، حتى انه ليرث ممتلكات سيده اذا توفى بدون وارث .

وليست لدينا احصاءات عن عدد الرقيق فى العصر الأموى فان الأرقام التى يذكرها بعض المؤرخين يبدو فيها المبالغة . ومن ذلك ما ذكره بعضهم عن أن موسى بن نصير أخذ ثلاثمائة ألف أسير ، وأرسل خمسهم الى الوليد بن عبد الملك ، كما سبى ثلاثين ألف عذراء من بنات ملوك القوط وأعيانهم ، وان قتيبة بن مسلم أسر فيما وراء النهر مائة ألف أسير .

والمعروف ان الوليد بن عبد الملك بدأ يتخلى عن تقليد الخلفاء الأمويين الذين كانوا يحافظون على صفاء الدم العربى الذى يجرى فى عروقهم وعروق أبنائهم فنراه يتسرى بفارسية سباها الحجاج فى خراسان وأرسلها هدية له فولدت له ابنه يزيد ، كذلك كان ابراهيم بن الوليد ابنا لجارية لعلها رومية (يونانية) .

والواقع أن العرب منذ أواخر الخلافة الأموية وأوائل الخلافة العباسية سوف لا يصبحون عنصرا اجتماعيا وراثيا لا يدخله شخص الا بطريق الولادة من القبائل العربية ، أو بطريق الولاء لتلك القبائل ، وانما سيصبح العرب الأقوام الذين يتكلمون اللغة العربية وتجمعهم عدة روابط سياسية وثقافية وتاريخية .

٥ ـ الحياة العقلية :

شهد العصر العباسي ازدهار الحياة العقلية عند المسلمين ، ولكن أسس هذه النهضة وضعت فى العصر الأموى .

وكانت مراكز الحياة العقلية فى العصر الأموى البصرة والكوفة ومكة والمدينة ودمشق والفسطاط . أما البصرة والكوفة فقدأفادتا من موقعهما الجغرافى وكانتا من أهم الأمصار العربية الأولى التى كان العرب يتخذونها قواعد عسكرية يوجهون منها جيوشهم للفتوحات ، ومراكز لادارة الأقاليم التى يفتحونها . فكانت ترد اليها أموال طائلة ، فازدهرت فيهما الحياة الاقتصادية ازدهارا كبيرا ، واستقر فيهما عدد كبير من العشائر العربية كما توافد عليهما عدد كبير من الموالى حتى لقد قيل ان عدد سكان كل منهما زاد على مائة ألف نفس .

وقام فى البصرة والكوفة مدرستان أو مذهبان فى النحو والأدب العربى ، ولم تكن العناية بالصرف والنحو يقصد بها تعليم العربية للموالى فحسب ، بل قصد بها مقاومة تفشى اللحن وانتشار اللهجات التى كانت تبتعد تدريجا عن اللغة العربية الفصحى . وظهر فى البصرة أبو الأسود الدؤلى الذى ينسب اليه وضع النحو والمتوفى سنة ٦٩ هـ (٦٨٨ م) كما عنى الفقهاء فى البصرة والكوفة فى العصر الأموى بدراسة العلوم الدينية الاسلامية ولا سيما الحديث والفقه .

ومن أعلام أولئك المحدثين فى البصرة الحسن البصرى ، وابن شهاب الزهرى ، وفى الكوفة عبد الله بن مسعود ، وعامر بن شراحيل الشعبي .

. أما فى الفسطاط فى مصر فيعتبر عبد الله بن عمرو بن العاص بحق مؤسس مدرسة مصر الدينية ، اذ أخذ عنه كثير من أهلها وكانوا يكتبون عنه ما يحدث . ولأهل مصر عن عبد الله بن عمرو ابن العاص قرابة مائة حديث . وقد أسلم عبد الله بن عمرو قبل أبيه . وكان فاضلا عالما قرأ القرآن والكتب المتقدمة ، واستأذن النبى صلى الله عليه وسلم فى أن يكتب عنه فأذن له فقال : « يا رسول الله أكتب ما أسمع فى الرضا والغضب . قال : نعم فانى لا أقول الا حقا » . وتوفى عبد الله بن عمرو بن العاص فى سنة ٦٥هـ واشتهر من مصر فى العصر الأموى أيضا كثير من العلماء والفقهاء والأئمة المجتهدين ، نذكر منهم : عمر بن عبدالعزيز الذى ولد بمصر سنة احدى وستين وقيل ثلاث وستين ، وأبوه عبد العزيز ابن مروان أميرا عليها . وممن اشتهر بمصر أيضا يزيد بن أبى حبيب واسمه سويد الأزدى أبو رجاء المصرى ، كان فقيه مصر وشيخها ومفتيها ، ولد سنة ٥٣ هـ بمصر وهو أحد ثلاثة فوض اليهم عمر ابن عبد العزيز أمر الفتيا بمصر . وقد أخذ عنه عبد الله بن لهيعة والليث بن سعد وآخرون . وكان الليث بن سعد يثنى عليه ويقول « ابن أبى حبيب سيدنا » وتوفى يزيد بن أبى حبيب بمصر فى سنة ١٢٨ هـ .

أما المدينة ومكة فقد تجمع فيهما كثيرون ممن اعتزلوا الحياة السياسية ، وممن عادت عليهم الفتوحات بثروة كبيرة ، وممن كانت الدولة تجزل لهم العطاء لأسباب سياسية أو اجتماعية . وكانت الأموال التى ينفقها الحجاج فى الحجاز عاملا على ازدهار

الحياة الاقتصادية فى مكة والمدينة . فازدهرت الحيـاة فى هاتين المدينتين ، وشيّدت العمائر ، وزادت طوائف الخدم والرقيق ، كما انتشرت دور اللهو والمجون .

وقد روى صاحب الأغانى أن مكة كان بها ناد يؤمه الزائرون « فيه شطرنجات ونردات وقرقات ودفاتر فيها من كل علم ، وجعل فى الجدار أوتادا ، فمن جاء علّق ثيابه على وتد منها ، ثم جر دفترا فقرأه ، أو بعض ما يلعب به فلعب به مع بعضهم » .

وفى المدينة اشتهرت السيدة سكينة بنت الحسين بمجالسها التى تشبه الصالونات فى العصر الحديث ، وبجمالها ، وظرفها ، وأدبها ، وحبها للشعر والغناء ، وكانت مثالا يحتـذى فى اتقان التزين وحسن الذوق ، وكانت تنافسها فى هذا الميدان السيدة عائشة بنت طلحة فى الطائف .

وعلى الرغـم من قيـام هـذه البيئـة الأدبيـة فى مكة والمدينة ، فقد قامت فيهما الى جنب الغزل والموسيقى والغنـاء دراسات طيبة ولا سيما فى العلوم الدينية فقد وفد على هاتين المدينتين طلاب علوم الحديث والفقه وأصول الدين . وازدهرت فى المدينة أول مدرسة لعلم الحديث ، ونبغ فى هذا الميدان فى العصر الأموى عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وأنس بن مالك ، كما نبغ فى مكة عبد الله بن عباس جد الخلفاء العباسيين وأصبح حجة فى العلوم الدينية من تفسير وفقه وحديث .

وبدأ تدوين التاريخ فى العصر الأموى بسبب الحرص على جمع الأخبار الخاصة بسيرة الرسول (ص) وأعلام الصحابة ،

وحوادث الفتوحات ، والرغبة فى الالمام بأخبار الأشـخاص ، والأمكنة الواردة فى القرآن ، والشعر القديم ، والعمل على اثبات أنساب العرب لتقرير ما يفرض لهم من العطاء ، فضلا عن حرص بعض الموالى على تدوين أخبار ملوكها وحضارتها قبل الاسلام . وحرص العرب من أهل اليمن على الاشادة بحضارة بلادهم فى الجاهلية . فضلا عن أن حاجة الشعراء الى عناصر الفخر والهجاء كانت تقتضى معرفة أخبار الأوائل ومآثر القبائل ومثالبها .

وكان تدوين أخبار الفتوحات لازما لاثبات ما فتح من البلاد عنوة وما فتح منها صلحا لأن لكل منها حكما خاصا فى النظم المالية .

وهكذا تألفت « الأخبار » فى فجر الاسلام من السيرة النبوية وأخبار الفتوح والمغازى ، فضلا عن أخبار الجاهلية وأنساب العرب .

ولكن التاريخ كان فى فجر الاسـلام فرعا ثانويا من علم الحديث ، وتأثر بأساليب المحدّثين فى جمع الروايات التاريخية واسنادها ، غير أنه لم يخضع بعد ذلك لكل ما خضعت له الأحاديث النبوية من نقد الناقلين وما يسمونه الجرح والتعديل . فضلا عن أنه لم يخضع لنقد الروايات التاريخية نفسها . وكانت عنايته بأخبار الأشخاص أعظم بكثير من عنايته بدراسة المجتمع وأحواله .

وقد روى المسعودى فى مروج الذهب أن عبيد بن شرية اليمنى صنّف لمعاوية بن أبى سفيان كتبا فى أخبار القدماء منها « كتاب الملوك وأخبار الماضين » وكان هذا الكتاب معروفا على عهـد

المسعودى أى فى منتصف القرن الرابع الهجرى وفى منتصف القرن العاشر الميلادى .

وروى ان عروة بن الزبير وابان بن عثمان بن عفان كتبا فى السيرة النبوية .

وكتب ابن شهاب الزهرى وموسى بن عقبة فى المغـازى .

وممن اشتهروا فى العصر الأموى فى رواية أخبار الأوائل كعب الأحبـار المتوفى نحو منتصف القـرن السابع الميلادى والأول الهجرى ، وكان قبل اسلامه من يهود اليمن والتحق بخدمة معاوية منذ كان واليا على الشام . وتنسب الى كعب الأحبار وغيره من اليهود الذين اعتنقوا الاسلام ادخال كثير من أقاصيص اليهود فى الحديث وأخبار الأوائل عند العرب .

ومن الأخباريين فى العصر الأموى وهب بن منبه المتوفى نحو سنة ١١٠ هـ (٧٢٨ م) ، وكان قبل اعتناق الاسلام من يهود اليمن وأصله فارسى . وكان حجة فى أخبار الأوائل ولا سيما فى اليمن وينسب اليه ادخال كثير من الاسرائيليات فى الحديث وأخبـار الأوائل عند العرب . وقد ألّف كتبا كثيرة وصل الينا منها كتاب « التيجان فى ملوك حمير » وقد طبع فى الهند سنة ١٣٤٧ هـ .

ووضعت فى العصر الأموى أسس كثير من الحركات الفكرية التى ظهر أثرها فى الحياة العقلية الاسلامية ولا سيما فى العصر العباسى .

ومن هذه الحركات حركة الاعتزال التى نشأت فى البصرة حين « اعتزل » مؤسسها واصل بن عطاء ، أستاذه الحسن البصرى على

أثر اختلافهما بشأن الحكم على مرتكب الكبائر واعتباره فى منزلة بين المنزلتين أى بين الايمان والكفر . والواقع أن المعتزلة مذهب فكرى اعتزل سائر المذاهب الفكرية والدينية التى ظهرت فى فجر الاسلام . وتتلخص مبادىء حركة الاعتزال فيما يلى :

١ — نفى صفات الله كالسمع والبصر والحكمة والحياة لأن وجود هذه الصفات يناقض وحدة الله ، ولأن وجود هذه الصفات يقتضى تشبيه الله بخلقه . واتصل بذلك القول بأن القرآن مخلوق خلقه الله ولا يمكن اعتباره كلام الله الا على التأويل لأن صفة الكلام منفية عن الله تعالى .

٢ — حرية الارادة عند الانسان وهو مذهب الاختيار وقوامه ان الله جعل للانسان قدرة يوجه بها أفعاله حرا مختارا ، ولذلك جعله مسئولا عن عمله وجعل عقله هو المقرر الأساسى لأعماله ، ولا يتنافى هذا مع ان الله تعالى يعلم من الأزل ما سيفعل الانسان . والقائلون بهذا المذهب يسمون القدرية ، ويقابلهم الجبرية وهم القائلون بأن الانسان مجبور ولا قدرة له ولا اختيار .

ومن حكم المعتزلة فى حرية الارادة ، وفى نفى صفات الله سمّوا أنفسهم أهل العدل والتوحيد . العدل لأنهم نزهوا الله تعالى عما يقوله الجبرية من أن الله قدّر على الناس المعاصى ؛ لأنه لا يُعقل ذلك عند المعتزلة ، فان الله خلق الانسان حرا فيما يفعل ، وهو حين يحاسبه عليها عادل . أما التوحيد فلأنهم نفوا صفات الله لأنها تتنافى مع وحدته .

٣ — القول بالمنزلة بين المنزلتين أى ان مرتكب الكبائر ليس

بمؤمن ولا كافر ، وانما يعتزل عن جماعة المسلمين وتكون منزلته وسطا بين منزلة المؤمنين والكفار .

٤ — تحكيم العقل دون النقل .

وعلى كل حال فان مذهب الاعتزال نشأ فى العصر الأمــوى وأيده بعض خلفــاء بنى أمية مثل يزيد الثالث ابن الوليد بن عبد الملك ، ولكنه لم ينتشر الا فى العصر العباسى .

ومن الحركات الفكرية فى العصر الأموى حركة المرجئة ، وكانت فى البداية حركة سلبية لأن أصحابها وقفوا على الحياد فى الفتن الدينية التى قامت بسبب الخلافة . فقــد كان الخوارج يذهبون الى أن الخلافة يجوز أن تكون فى غير ذرية علىّ بل فى غير قريش كلها ، وكان الشيعة يوجبون الخلافة للامــام علىّ وذريته ، وكان فريق من المسلمين يقولون ان عثمان قتل مظلوما ويقفون من بنى أمية موقف التأييد الايجابى حينا والسلبى حينا آخــر .

فذهب المرجئة الى أنهم لا يحكمون بتصويب جانب أو تخطئة جانب ، وأنهم يرجئون الحكم على المسلمين الى يوم القيامة ، فان الله عز وجل هو الذى يحكم بينهم وأنه لا يجوز تكفير أى انسان ما دام قد نطق بالشهادتين ، لأن الله هو الذى يفصل فيما يرتكبه الانسان من المعاصى . وانتقل المرجئة بعد ذلك الى البحث فى المسائل الدينية ولا سيما تحديد الايمان والكفر ، لأن مرتكب الكبائر أو المقصّر فى القيام بالفرائض كافر عند الخوارج ولكنه

مؤمن عند المرجئة ، على حين أن المعتزلة يقولون بأن مرتكب الكبائر فى منزلة وسط بين المنزلتين .

وكان للحياة الفكرية فى العصر الأموى صلة بالفكر المسيحى والثقافة الاغريقية بوساطة بعض طوائف المسيحيين ومنهم النساطرة (نسبة الى زعيمهم نسطور) وهم جماعة كانوا يخالفون كنيسة بيزنطة فأخرجتهم من حظيرتها سنة ٤٣١ م ، واضطروا الى الرحيل عن الامبراطورية البيزنطية فنزلوا نصيبين ومنها الى الرها ثم لجأوا الى ايران . وقد افتتحوا فى نصيبين مدرسة كانوا أنشأوها قبل ذلك ، وقفلوها حين استولى الفرس على هذه المدينة من بيزنطة . كما كانت لهم فى جنديسابور جامعة ومستشفى كبير ذاع صيتهما فى عصر كسرى أنوشروان (٥٣١ — ٥٧٩ م) واجتمع فيها كثير من علماء الفرس والنساطرة والهنود .

وكانت لتعاليم النساطرة فى المسيحية طابع شرقى متأثر بالفلسفة اليونانية ، واحتفظوا بقسط وافر من العلوم الطبيعية الاغريقية ، ومن تعاليم أرسطو ، وكان كثير من أطباء البلاط الأموى من النساطرة .

وعلى كل حال فان تعاليم الثقافة الاغريقية التى احتفظت بها مدرستا نصيبين وجنديسابور ، ومدرسة الاسكندرية كان لها أثر فى اتجاه الفكر عند المسلمين .

واعتنق بعض النساطرة الاسلام كغيرهم من علماء المسيحية وبدأوا مع بعض المسيحيين فى نقل الكتب اليونانية الى العربية .

وكان للصابئة فى حرّان شأن مذكور فى نشر الثقافة اليونانية

بين المسلمين وفى ترجمة كثير من الكتب عن اللغة اليونانية . ومن الذين ساهموا فى نقل الفكر اليونانى والمسيحى الى الفكر الاسلامى يوحنا الدمشقى وكان سوريا يتقن العربية والآرامية واليونانية . وكان قد خلف أباه وجده (منصور بن سرجون) فى الاشراف على الشئون المالية للدولة الأموية . وكان نديما ليزيد ابن معاوية .

وقد اعتزل يوحنا الدمشقى وظيفته فى عصر هشام بن عبد الملك وانصرف الى الزهد والتنسك الى أن مات فى دير من أعمال بيت المقدس سنة ٧٤٨ م (١٣١ هـ) .

واتجه بعض الأمراء الأمويين الى البحث العلمى مثل خالد ابن يزيد بن معاوية ويروى أنه اشتغل بالكيمياء أو علم الصنعة ، والطب وتعلمهما على كاهن من الاسكندرية ؛ ثم نقلت له بعض الكتب العلمية من اليونانية والقبطية . وأنفق خالد بن يزيد أموالا كثيرة فى دراسة الكيمياء العملية وفى محاولة تحضير الذهب .

ولا شك أن العرب عنوا بعلم الطب عناية يدل عليها الحديث المنسوب الى النبى (ص) وهو : « العلم علمان : علم الأديان وعلم الأبدان » .

وكان من أطباء البلاط الأموى الطبيب النصرانى ابن اثال ، طبيب معاوية والطبيب اليونانى ثياذوق طبيب الحجاج . وعكف الطبيب الفارسى الأصل ماسرجويه فى خلافة مروان بن الحكم على ترجمة كتاب فى الطب عن السريانية كان قد ألفه باليونانية راهب نصرانى فى الاسكندرية اسمه اهرون ، فكان أول كتاب علمى بلغة العرب .

آما الوليد بن عبد الملك فانه عنى بالمصابين بالجذام والعمى والأمراض المزمنة ورتب لهم ما يعنى بأمرهم وكان للوليد الفضل بذلك فى انشاء أول مؤسسة صحية فى الاسلام .

وترجمت الى العربية بعض الكتب الفارسية . وذكر ابن النديم أسماء الكتب التى ترجمها جبلة بن سالم .

وذكر المسعودى أنه رأى فى اصطخر فى سنة ٣٠٣ هـ كتابا فارسيا فى تاريخ ايران كان هشام بن عبد الملك قد أمر بترجمته الى العربية .

ولم يعرف المسلمون فى العصر الأموى المدارس بالمعنى الحديث ، ولكن الخلفاء كانوا يرسلون أبناءهم الى البادية لتعلم العربية ، كما كان بعضهم يختار لأبنائه مؤدبا أو معلما . وكان الأغنياء يفعلون ذلك أيضا . وغدا المؤدب فى عهد عبد الملك بن مروان فى جملة حاشية البلاط . وكان مما أوصى به عبد الملك مؤدب أولاده « علـمهم الصوم ، وخذهم بقلة النوم » .

وكان مقياس التعلم عندهم أن يكتب الرجل العربية ويقرأها ويتقن السباحة والرماية . ولعل اشتراط السباحة ناتج من تأثير العرب الجنوبيين الذين برعوا فى ركوب البحر ، ومن البحار التى سيطر عليها العرب بعد الفتوحات . وكانت المدارس الأولى فى الاسلام منذ عصر الخلفاء الراشدين وفى عصر بنى أمية هى المساجد .

فقد كان المسجد يضم حلقات يجلس فيها الناس فيدرسون علوم القرآن والحديث والفقه والعلوم المتصلة باللغة وآدابها .

وكان طلاب العلم ولا سيما الحديث يرحلون فى طلبه الى الأمصار المختلفة .

والراجح أن بعض المتعلمين أنشأوا فى المدن كتاتيب أو مدارس صغيرة يعلمون فيها الصبية القراءة والكتابة ويحفظونهم القرآن . ووردت فى بعض النصوص الأدبية والتاريخية اشارة الى وجود هذه المدارس . مثال ذلك أن ابن سعد ذكر فى الطبقات الكبرى أن شخصا اسمه الضحاك بن مزاحم افتتح مدرسة فى الكوفة كان يعلم الطلاب فيها بالمجان وكان الضحاك أحد مؤدبى أولاد عبد الملك وقد توفى الضحاك فى سنة ١٠٥ هـ (٧٢٣ م) . ومما يستحق الذكر فى تاريخ الأدب العربى على عهد الأمويين نهضة الشعر السياسى بسبب تعدد الأحزاب والفرق وتطاحنها وتشجيع الخلفاء وأمراء الأمصار لمن يمدحونهم من الشعراء . وكان على رأس الشعراء الذين اتصلوا بالبلاط الأموى ، الشاعر النصرانى الأخطل وكان هذا الشاعر يناصر قضية الأمويين منذ خلافة معاوية وتوفى فى خلافة الوليد بن عبد الملك (سنة ٩٢ هـ = ٧١٠ م) . وكان الأخطل واحدا من ثلاثة شعراء اتصلوا بالبلاط الأموى وكانوا فى طليعة شعراء العرب . فكان جرير شاعر الحجاج (توفى حوالى ١١١ هـ = ٧٢٩ م) ، أما الفرزدق (توفى ١١٤ هـ = ٧٣٢ م) فكان شاعر عبد الملك وأولاده : الوليد وسليمان ويزيد .

خاتمة

عرضنا فى الفصول السابقة لشتى النواحى السياسية والادارية والاقتصادية والاجتماعية والفنية والحربية التى ميزت عهد الوليد ابن عبد الملك . ولم تكن ظروف وأحوال الدولة العربية حينذاك هى التى توجه الوليد فقط وانما كان للوليد أعظم الأثر فى توجيه معظم الأحداث الهامة آنذاك . وكانت الدولة العربية على عهد الوليد تمر بتطورات هامة تختص بحكم الدولة العربية ، وبالنواحى المالية ، وبامتلاك العرب للأراضى فى البلاد المفتوحة ، وبالتحاق أهل البلاد المفتوحة بالجندية فى الجيش العربى ، وبتعريب الدواين . وقد رسمت لنا ولاية الحجاج فى العراق والمشرق ، وولاية قرة ابن شريك فى مصر صورة صادقة لسلطان الولاة فى العصر الأموى عامة وفى عهد الوليد خاصة . فضلا عن أن حكم هذين الواليين يوضح كثيرا من النظم الادارية والمالية والحربية حينذاك التى تكشف لنا عن كفاءة العرب ومرونتهم وتطورهم مع الأحداث والزمن .

وكان عهد الوليد عبد الملك عهد اصلاح وتعمير وانشاء واهتمام بشئون الرعية ، كذلك كان عهد الوليد عهد عظمة وتفوق فى الفنون العربية ، وكان الوليد بن عبد الملك أعظم الخلفاء الأمويين

أثرا فى فن البناء ولا يزال الجامع الأموى فى دمشق يشير الى عظمة هذا الخليفة العربى .

وكان سلطان الوليد قويا وحكومته مهابة ، وسار الوليد على هدى سياسة أبيه عبد الملك الذى وضـع نفسـه فوق المنازعات القبلية . واستطاع الوليد ، مترسما خطوات أبيه ، أن يسير دفة الدولة العربية على شاطىء الأمان بعيدا عن مكامن الخطر على الدولة حينذاك والتى كانت تتمثل فى حركات الشيعة والخوارج والموالى ، وفى العصبية الاقليمية بين العراق والشام ، وفى العصبية القبلية التى انبعثت بعد موقعة مرج راهط .

واستأنف الوليد عهد الجهاد ونشر النفوذ العربى فى مناطق جديدة لم تصلها الجيوش العربية من قبل أو لم تثبت أقدام العرب فيها بعد .

وقد بسط العرب سلطانهم فى عهده على أكبر بقعة من العالم القديم حينذاك . وكان توسع العرب فى ايام الوليد بن عبد الملك هو أعظم توسع بلغوه واتصل العرب بالثقافات الهندية والايرانية والتركية والمغولية والصـينية كما اتصلوا بالثقافات المسيحية والهلنستية من قبل .

وكان الوليد بن عبد الملك هو القائد الأعظم والموجه لهذه الفتوح الرائعة التى حملت معها العروبة والاسلام ، والتى خطت بأهل البلاد المفتوحة قرونا الى الامام ، والتى نتج عنها انتشار الحضارة العربية الفذة التى غذت أوربا فى عصور ظلامها ، ولسنا نبالغ إذا قلنا إن عصر الوليد يمثل أوج مجد الأمويين وسلطان العرب .

فهـــرس الموضوعات

صفحة

أعلام العرب
الكتاب القادم

الاصمعى

للدكتور
أحمد كمال زكى

يصدر فى ٧ يونيه ١٩٦٣

مطبعة مصر